



العربية لغة العلم والتكنولوجيا

للدكتور إبراهيم مذكور

فلم نتردد في ذلك ، كما صنعت جامعات عربية أخرى ، بين العربية وبعض اللغات الأجنبية من فرنسية أو إنجليزية ، وأقامت الدليل العملي على أن لغتنا كفيلة بذلك على خير وجه . وقدر لها أن تحظى بزمرة صالحة من الأساتذة الأجلاء ذوى الخبرة الطويلة ، فحملوا الرسالة وأدوا الأمانة أصدق أداء . وليس في هذه الجامعة إلا كلية واحدة تدرس موادها باللغة الإنجليزية وهي : كلية العلوم . وتعد العدة لإنشاء كليتين إحداهما للطب والأخرى للهندسة ، وأتوقع أن يوضع سؤال لغة التدريس موضع البحث . ويقى أن هذه الكليات الثلاث سائرة نحو ما انتهت إليه الدراسات الإنسانية :

وكم تذكرني قضية تعريب التعليم بمشكلة أخرى أثرت في العشرينات الأولى من هذا القرن ، وهي مشكلة الثنائية بين العامة والفصحى ، والرغبة في التخلص منها . فذهب فريق إلى الأخذ بالعامة ليسرها وانتشارها ، ويظهر أنه نظر إلى

ظن لأول وهلة أن هذا العنوان دعوى ، وكل دعوى لم يقم عليها دليل



فأهلها أدعياء . والواقع أن هذا الدليل قد قام في الماضي والحاضر ، فكانت العربية قديما لغة العلم يوم أن لم تكن له لغة سواها ، وها هي ذى تؤدى اليوم الرسالة نفسها ، وإن بدا فيها قصور ما ، فذلك عيب الناطقين بها ، ولا تسأل هي عنه في شيء . وتعريب التعليم الجامعي من القضايا المثارة ، والمثارة بعنف في العشرينات الأخيرة . ونخطئ إن زعمنا أننا لم نخط في هذا السبيل خطوات وأستطيع أن أقرر أنها خطوات فسيحة ، إذا ماقيست بالزمن الذى قطعت فيه .

ويكفى أن أشير إلى جامعة الكويت الحديثة النشأة ، فقد أفادت من تجربة الجامعات العربية ودرست العلوم الإنسانية كلها بلسان عربى مبين ، من تاريخ وجغرافيا ، وتجارة واقتصاد ، وحقوق وتشريع ، وعلم نفس وتربية ، واجتماع وفلسفة .

(*) كلمة ألفت بجامعة الكويت في الربيع الماضى .

الموضوع من زاويته الخاصة ، ونسى أن هناك عاميات لاعامية واحدة ، فكيف يجمعها ويؤلف بينها ؟ ورأى فريق آخر ألا بد من الاستمسك بالفصحى ، تقليداً للماضى ، وحرصاً على جمع العروبة على بساط واحد ، وإبقاء على تراث من الحرق تبديده دون التأكد من بديل يحل محله . وعندى أن هذا الحوار وهذه الخصومة لم تخل من خير وبركة ، فقد قادت إلى فصيحى جديدة هينة لينة ، تغنى بالجللاء والوضوح . وتنفر من الشاذ والغريب ، وتمقت الصنعة اللفظية ، وتأخذ عن العامية كلما كان اللفظ عربى الأصل . وبذا ضاقت مسافة الخلاف بين الطرفين ، وأصبحنا لا نحس بتلك الثنائية إحساسنا بها بالأمس . وتوفرت لدينا فصيحى جديدة كتبت بلغة العصر وروحه ، وسلمت من العبارات الضخمة والجمل الطنانة التى شاعت فى أخريات القرن الماضى وأوائل هذا القرن . ويقىنى أن نشر التعليم والثقافة الشعبية ، والنهوض بوسائل الإعلام من صحافة وإذاعة سيقضى ذلك كله بتاتا على هذه المشكلة . وسبق أن لاحظت أن صوت أم كلثوم وغناها قربا المسافة بين لغة تونس ولغة القاهرة ، وألاحظ اليوم أن الإذاعة الكويتية قربت كثيرا لهجة أهل الكويت من لهجة القاهريين . ومن العيب أن نعود مرة أخرى إلى الحديث عن هذه الثنائية ، فقد انقضى زمنها ، أصبحت غير ذات موضوع .

وهناك عيب آخر شبيه بهذا ، ويحمل رايته بعض إخواننا اللبنانيين الذين يتحدثون عما سموه اللغة الأساسية ، وهى فى تقديرهم مزيج من العامية والفصحى ، ولست أدري فى أى معمل أو صيدلية يتم هذا التركيب . وهل من سبيل لأن تصنع لغة ما صنعا ، وأن تفرض على الناس فرضا ؟ إن الواقع والتاريخ يشهدان باستحالة ذلك ، وإن قوانين المجتمع تعارض هذا وترفضه . وهل فات أصحاب هذه « الروشة » أن هذا المزج يتم عفوا وبطريقة طبيعية وفى لغتنا الدارجة عامية وعربية ، بل ألقاظ وتعبيرات أجنبية أيضا . والذى لاشك فيه أن هذه اللغة الدارجة أصبحت اليوم أسمى مما كانت عليه فى أوائل هذا القرن ، وتضيق مسافة الخلاف بينها وبين الفصحى باطراد ، وتلك سنة التطور اللغوى فى كل المجتمعات . وأملى كبير فى أن يقطع تعريب التعليم الجامعى الطريق على هذا النحو ، وقد قطع فيه شوطا غير قصير . والمهم أن يتمكن العلماء من لغتهم القومية ، وإذا ما أجادوها ، ففى وسعهم أن يؤدوا بها كل ما يصادفون من معنى ، وكل مايجول فى أذهانهم من فكرة .

للعلم لغة يؤدى بها ، ولأحياة له بدونها ، بها يشرح ويعلم ، وبها يكتب وينشر بين الناس . وتحيا اللغة العلمية بحياة العلم نفسه ، وتسير بسيره ، ولاسبيل لأن توجد فى

مجتمع لا يغنيها ولا ينميها : والنهوض العلمى
مقترن دائماً بالنهوض الحضارى ،
هكذا كان ، وهكذا يكون . فالعلم
اليونانى وليد نهضة أثينا فى القرنين الخامس
والرابع قبل الميلاد ، والعلم الإسلامى ثمرة
من ثمار العصر العباسى الأول ، وهو قمة
الحضارة الإسلامية . والعلوم الأوربية
امتداد للنهضة الحديثة ، وصدى لما قام
به الأوربيون من كشف ورحلات .
وحركاتنا العلمية المعاصرة أثر من آثار
يقظة القرن الماضى ، ونتيجة من نتائج
ذلك الوعى الذى ينشد النهوض والتقدم .

ولغة العلم صنيع أهله ، فالعالم الذى
يكشف الظاهرة أو يخترع الفكرة هو وحده
الذى يحس بها ، ويحسن التعبير عنها ، ويحكم
أداءها ، ومن الخطأ أن نفرض عليه لفظاً ،
أو نلزمه بصيغة معينة . وكلما كان متمكناً
من لغته القومية ، استطاع أن يختار منها
اللفظ الملائم والصيغة الدقيقة . ولغة العلم
فى تطور مستمر شبيه بتطور اللغة الوطنية
نفسها ، تتقدم بتقدم البحث ، وتنمو
بنمو المادة العلمية . وتاريخ علم يكاد
يتلخص فى تاريخ مصطلحاته ، ولكل
عالم قدر من الألفاظ ابتكره والتزم به ،
وكثيراً ما يرجع خلاف العلماء إلى اختلاف
على مدلول ألفاظ تباينوا فى فهمها وشرح
المقصود منها . وهناك مصطلحات تبدو
قلقة عند نشأتها ، ثم لاتلبث أن تركز

وتستقر ، وأخرى ثموت فى مهدها ولا يقدر
لها حياة .

ومن اليسير توضيح هذه القضايا فى
ضوء الماضى والحاضر ، فلم تنشأ لغة العلم
فى الإسلام دفعة واحدة ، بل نمت على مر
الزمن . بذرت بذورها فى القرن الأول
الهجرى ، وفيه ظهرت مصطلحات فى
الفقه والتشريع ، والتفسير والحديث ،
والفرق وعلم الكلام . وتلتها فى القرن الثانى
مصطلحات فى الأدب واللغة ، فى التاريخ
والسياسة ، فى الأخلاق والاجتماع . فى
الطب والكيمياء ، فى الفلك والهندسة .
ولم تر هذه العلوم غضاضة فى أن
يأخذ بعضها عن بعض ، وأن يستعين
لاحقها بسابقتها ، فهناك ألفاظ استعملت
فى عدة علوم ، ولكن بمدلولات مختلفة .
وفى القرن الثالث الهجرى استكملت
العلوم الإسلامية لغتها وانتشرت هذه اللغة
فى العالم الإسلامى بأسره ، فرددت فى
قرطبة والقيروان ، كما رددت فى الفسطاط
ودمشق ، وأخذ بها فى البصرة والكوفة ،
كما أخذ بها فى الرى وأصبهان ، وفى القرن
الرابع الهجرى أصبحنا أمام علم إسلامى
مكتمل له آراؤه ونظرياته ، وله لغته
ومصطلحاته . وقد سجلت هذه المصطلحات
فى مفردات ومعاجم مختلفة ، مثل : « كتاب
الحروف للغرابى » ، « ومفاتيح العلوم
للخوارزمى » منذ عهد مبكر ، وتلاهما

كتاب التعريفات للجرجاني ، « وكشاف اصطلاحات العلوم للتهانوي » . واستطاعت هذه المصطلحات أن تغذي لغات أخرى ، فانتقل قدر منها إلى الفارسية والتركية ، واستمسك ببعضها من ترجموا عن العربية إلى اللاتينية ، وامتد صداها إلى بعض اللغات الأوروبية الحديثة .

واستعان المسلمون على وضع هذه المصطلحات بوسيلتين هامتين : أولاهما النقل ، وهو منهج مألوف في اللغات جميعها ، فتنقل الكلمة من مدلولها الأصلي إلى مدلول جديد له به صلة ، وتستقر فيه . بحيث تصبح حقيقة عرفية ، وقد ينسى المدلول القديم ، ويحل محله المدلول الجديد وحده . والأمثلة على ذلك كثيرة ، نذكر من بينها الصلاة والصيام والزكاة في الفقه ، والتمييز والاستثناء في النحو ، والجامد والمشتق في علم الصرف . والفرق بين الدلالة اللفظية والدلالة الاصطلاحية لهذه الكلمات واضح ومعروف . والوسيلة الثانية من وسائل تكوين المصطلح العلمي هي الوضع ، ويراد به خلق لفظ جديد لأداء معنى خاص بالنحت والاختراع أو التركيب والجمع ، وأوضح صوره الاشتقاق . والعربية ولاشك لغة اشتقاقية ، يمكن أن يؤخذ فيها من مادة واحدة عدة ألفاظ لدلالات مختلفة ، كالفاعلية والمفعولية والصفة المشبهة وصيغة المبالغة ، واسم الزمان والمكان واسم الآلة والمصدر الصناعي . واستطاعت

الصيغة الأخيرة أن تسعفمنسا في مواقف متعددة ، وبخاصة فيما يتعلق بالدلالة على المذاهب والنظريات ، كالتدريية والحدبرية ، والمادية والمثالية .

لم يقف علماء العربية عند النقل والوضع ، بل سلكوا سبيل التعريب عند الحاجة ، فعربوا عن الفارسية والهندية ، كما عربوا عن السريانية واليونانية . والأمثلة على ذلك كثيرة أيضا ، واستطاع الخوارزمي أن يقدم منها في كتابه « مفاتيح العلوم » نماذج لا بأس بها . ويمكن أن يلاحظ بوجه عام أن الفارسية كثيرة الورد في المستحدثات الحضارية والنظم الإدارية ، مثل « الرزمانية » وهي مسك حساب الخراج ، والدفتري والفهرست من مستلزمات الديوان ، والبريد الذي كان في الأصل دابة تحمل الرسائل ثم أصبح الآن قطارا أو طائرة ، والدستور الذي نسي معناه القديم وأصبح لا يراد به إلا دلالة القانونية الخاصة . ويلاحظ أيضا أن الأنماط اليونانية والسريانية كثيرة الورد في العلوم والفلسفة . فعن اليونانية أخذ لفظ « الناموس » و « السفسطة » في الفلسفة ، والأرثماطيقى و « الأسطرلاب » في الرياضيات والفلك ، و « القولون » وهو المعى الغليظ ، و « الترياق » وهو دواء السم في الطب . وعن السريانية أخذ « الكيان » وهو الطبيعة في الفلسفة ، و « البحران » في الطب

وللعالم الإسلامية تاريخ طويل يشرح
نشأتها وتطورها ، ويبين مناهجها ونظرياتها
ويشير إلى كبار رجالها وما وضعوا فيها من
بحوث وهــؤلفات . ولا سبيل لأن نستعرضها
هنا ، ونكتفى بأن نقف قليلا عند علمين منها
كان لهما شأنهما في القرون الوسطى لدى العرب
واللاتين على السواء ، وهما : الكيمياء والفلك .

وقد عنى المسلمون بالكيمياء عناية خاصة
منذ عهد مبكر ، فشغل بها في أخريات القرن
الأول الهجرى خالد بن يزيد ، وهو من
بيت الملك . وتفرغ لها في القرن الثانى جابر
ابن حيان ، وكون مدرسة خاصة عرفت في
الشرق والغرب . وقامت بتجارب عالجت
فيها بعض الفلزات والقوايات ، وفرقت
بين الترشيح والتقطير ، ووصلت إلى البلورة
والتصعيد ، واستخدمت بعض الآلات كالكور
والأنبيق ، والميزان ، وسمى علم الكيمياء
بجملة « علم الميزان » . وكان لهذه المدرسة شأن
وتأثير على البحث الكيميائى لدى المسيحيين
في القرون الوسطى والتاريخ الحديث .

وفي أخريات القرن الثالث وأوائل القرن
الرابع الهجرى توسع أبو بكر الرازى في
الدراسات الكيميائية ، وصبغها بصبغة علمية
دقيقة وهودون نزاع أكبر كيميائى في الإسلام ،
عرف كيف يربط الكيمياء بالطب ، واستطاع
أن يجعلها علما تجريبيا دقيقا ، فسبق بذلك التاريخ
الحديث . عنى بتحليل العقاقير وهى عنده
متنوعة : نباتية وحيوانية ، أحجار وأهلاج
غازية ومعدنية ، وصف الآلات المستخدمة

في الكيمياء وصفا دقيقا ، كالمنفاخ ، والبوتقة
والقدح والقنية . وقام بتجارب شبيهة بالتجارب
الحديثة في التقطير والتصعيد ، في التكليس
والاحتراق ، وحضر بعض الأحماض بالتسخين
كما حضر الكبريت وبعض الكحول بالتقطير ؛
ثم تلاه كيميائيون إسلاميون آخرون ،
ويطول بنا الحديث إن وقفنا عندهم . والمهم
أن هؤلاء الكيميائيين كانت لهم مصطلحاتهم
الكيميائية ، فعرفوا الكبريت والزرنيخ ،
والزئبق والنوشادر ، والراتنج والمغنيسيا ،
والمغنطيس والأسفيداج . ولم يجدوا غضاضة
مطلقا في أن يستعملوا بعض الكلمات الأجنبية
المأخوذة عن الفارسية ، أو عن السريانية
واليونانية . ولا تزال هذه مستعملة بيننا ،
وأخذ اللاتين والأوربيون منها قدرا أقروه
 واحتفظوا به .

أما الفلك فهو أحد علوم ثلاثة عنى بها
المسلمون عناية خاصة ، وهى : الطب ،
والكيمياء ، والفلك . ولا شك في أنه كان
للرب في الجاهلية بعض ملاحظات فلكية ،
تتصل بالأنواء والعواصف ، وتقيس الزمن
بطلوع الشمس وغروبها . ونرجح أنهم أفادوا
شيئا من فلك البابايين والكلدانيين . وقد بدأت
دراسة الفلك الإسلامى في أوائل العهد العباسى ،
ولعلها كانت مرتبطة بالعرفاء والتنجيم . وأولع
بها خاصة رجلا من كبار الخلفاء العباسيين
أولهما : المنصور الذى اتجه نحو الفلك الهندى
ودعا إلى ترجمة كتاب « السند هند » وكلف بذلك
إبراهيم الفزارى أكبر الفلكيين في عصره .

وثانيهما : المأمون الذي اثنى نحوه الفلك اليوناني ،
وشجع على ترجمة كتبه ، وله أبحاث فلكية
متعددة ، من أهمها : محاولته قياس محيط الأرض
وقد وصل فيه إلى نتائج مذهشة بالنسبة لعصره .

وفي الإسلام فلكيون كثيرون ، تعاصروا
وتنافسوا ، وتلاحقوا جيلا بعد جيل ، وكانت
لهم أعمال فلكية عرفت بهم . فظهر منهم في
القرن الثالث الهجري : الكندي وأبو معشر
الباقلي ، وفي القرن الرابع : البتاني وابن يونس
المصري ، وفي القرن الخامس ابن الهيثم ،
والبيروني . وفي القرن السادس ابن ماجه
والبيروني ، وفي القرن السابع الطوسي والقزويني .

وأقام المسلمون ما أقاموا من مراصد ،
ومن أشهرها : مرصد بغداد ، ومرصد الحاكم
بالمقطم ومرصد المراغة وزودوها بآلات
رصد خاصة ، فاستخدموا الأسطرلاب
وذاات الأوتار ، ودورة الرياح والبوصلة .
واستطاعوا أن يتنبأوا في دقة بالكسوف
والخسوف ، ورصدوا الاعتدالين الربيعي
والخريفي ، وضبطوا حساب السنة الشمسية
نما لا يقل عما انتهى إليه العلم اليوم إلا بنحو
دقيقة وثلاث وعشرين ثانية ، وقدروا محيط
الأرض عن طريق قياس مساحة كبيرة بما
لا يبعد عن الواقع كثيرا . وهنا أيضا عولوا
في لغتهم الفلكية على الألفاظ العربية أولا ،
فإن لم تف بمحاجتهم استعاروا بعض المصطلحات
والألفاظ الأجنبية . وكان للفلك العربي شأن
في العالم اللاتيني ، قدره اللاتين حق قدره

وأعجبوا برجاله ، ورغبوا فيه وترجموا معظم
كتبه .

وفي ضوء ما تقدم نستطيع أن نقرر أنه كان
للعرب علوم أولعوا بها ، وأنه ازدهرت
لديهم حركة علمية لها منزلتها بين الحركات
العالمية العالمية الكبرى ، ومما يؤسف له أن هذه
الحركة لم تدرس بعد الدرس اللائق بها ، ولم
تجمع مصادرهما ، ولم تخرج إلى النور في صورة
مقبولة . فكان في القرون الوسطى علم عربي
مزدهر ، تعهده المسلمون ، وغدوه طوال
عدة قرون . وأنشأوا له لغة خاصة به ، وقامت
هذه اللغة على أساس متين من العربية ، وما
أخذته عن اللغات الأخرى تبنته ، وأصبح
جزءا منها . ويمكننا أن نقرر أن هذه اللغة
كانت في ذلك التاريخ لغة العلم الوحيدة في
العالم بأسره ، فيما بين القرنين الثامن والثالث
عشر الميلادي . ثم انضمت إليها اللاتينية بعد
ذلك ، أخذت عن العربية ، وأفادت منها .
فترجم اللاتين قدرا من كيمياء جابر بن حيان
وأبي بكر الرازي ، وعنوا برياضيات الخوارزمي
وبصريات ابن الهيثم ، وفلك الميتماني والبيروني
وطب ابن زهر ، وعلى بن رضوان . شغلوا
بالترجمة عن العربية نحو قرنين ، الثاني عشر
والثالث عشر الميلادي ، واستعاروا بعض
الألفاظ العربية كما استعار المسلمون من قبل
بعض الألفاظ الأجنبية . ولا تزال الألفاظ
العربية المستعارة باقية إلى اليوم في اللاتينية
ومن بعدها في بعض اللغات الأوروبية المعاصرة

تأدت العربية رسالتها نحو العلم في الماضي ،
ولا يعز عليها أن تؤديها في الحاضر ، وهي
متهمة لذلك تهو اللغات العالمية الكبرى .

* * *

وشاء القدر أن تركد حركة البحث العلمي
في العالم العربي فيما بعد القرن الثالث عشر
الميلادي ، وبقيت على ذلك نحو خمسة قرون
ولم تستيقظ إلا في أخريات القرن الثامن عشر
وأوائل القرن الذي تلاه ، استيقظت في مصر
أولا بدافع من الحملة الفرنسية ، وبغذاء لم
يستمر طويلا في عهد محمد علي ومن جاء بعده
من خلفائه الأقربين . فأنشئت في عهده مدارس
للطب والصيدلة والهندسة ، ودرست فيها هذه
العلوم بالفرنسية ومعها ترجمتها العربية ، ولا
تزال بين أيدينا صور من هذه الترجمات التي
حاولت أن تحل العربية محل الفرنسية . ولو
قدر لهذه المدارس أن تبقى وتستمر في أداء
رسالتها لكان لتاريخ الحركة العلمية المصرية
الحديثة شأن آخر . ولا يكاد يختلف الأمر
في الأقطار العربية الأخرى عن ذلك كثيراً
اللهم إلا في لبنان الذي أنشئ فيه منذ أكثر
من مائة سنة جامعتان ، إحداهما أمريكية
والأخرى يسوعية ، وكانت لهما معاً شبه رسالة
دينية ، وحملتا بطراد الطابع العربي ، ولم يعبرا
في الحقيقة عن علم عربي .

ولم تبدأ الحركة العلمية في العالم العربي إلا
في القرن العشرين . فأنشئت الجامعة المصرية
القديمة في أوله ، وهي مدينة بنصيب ملحوظ
لحركة الاشراف . وتلتها في مصر جامعات

متعددة ، يبلغ عددها الآن سبعة ، وازديادها
مطرد . وتدرس فيها العلوم المختلفة ، من طب
وصيدلة ، وكيمياء ، وفسيولوجيا ، نبات
وحوان ، جيولوجيا وزراعة ، رياضة وفلك :
ويقدم قدر من هذه المواد حالياً باللغة العربية
ولا يزال قدر آخر يدرس باللغة الإنجليزية .
وعلى غرار مصر سارت الأقطار العربية الأخرى .
ولكل بلد عربي تقريباً جامعته أو جامعاته
الخاصة ، وتدرس العلوم فيها على نحو
ما جرى في مصر ، فيعطى في الأغلب بالإنجليزية
أو الفرنسية ، اللهم إلا جامعة دمشق التي أخذت
نفسها منذ عهد بعيد بتدريس الطب باللغة
العربية .

ومن هنا نشأت مشكلة تعريب التعليم
الجامعي ، ولها ما يحمل عليها ، لأنه لا سبيل
لقيام حركة علمية حقيقية في بلد إلا إن
اعتمدت على اللغة الوطنية ، وبودنا أن يعرب
العلم والتكنولوجيا في الدرس والمحاضرة ،
في قاعة البحث والمعمل ، في المصنع والمزرعة .
وقد خطونا في ذلك خطوات ملحوظة أسهم
فيها الجامعيون بما ألفوا من كتب ، وبما
ألقوا من دروس ، وقد عربت بالفعل بعض
المواد في كليات العلوم والهندسة ، وربما كان
الأمر أيسر في كليات الزراعة والطب
البيطري . وتبذل جهود في سبيل تعريب
التعليم في كليات الطب والصيدلة ، والموقف
هنا دون نزاع أدق وأعسر :

وإلى جانب هذه الجهود الجامعية لتعريب
التعليم ، ينبغي أن نشير إلى ما تضطلع به

هيئات أخرى في هذا المضمار . فأنشئت
المجامع اللغوية والعلمية منذ نصف قرن أو
يزيد ، ورأت ضرورة مساندة العربية
لمقتضيات العلم ومتطلبات الحضارة ، وأسهمت
في ذلك ما وسعها . ويبدو أن مجمع القاهرة
لقد منح مشكلة اللغة العلمية عناية خاصة ،
وشغل بها إلى درجة لعلها لم تتوفر لدى مجمع
آخر ، فوقف عليها عدة بلخان ، وتوسع في
النقل والوضع . ويسر قواعدهما . وأقر
التعريب كما أقره الأفديمون ، ونظمه وأحاطه
بشيء من القيود والضوابط ، فاستساغ
بوجه خاص في المصطلحات ذات الطابع
الدولي ، وفي أسماء أعلام الجنس ، وفي
الألفاظ التي تعبر عن فصائل من النبات أو
الحيوان . وأقر عشرات الآلاف من المصطلحات
وأخرجها في مجموعات معينة ، أو في بعض
المعجمات المتخصصة . ويسعد أن يلاحظ
أن العلماء والمتخصصين يقبلون على مقرراته ،
ويستعينون بها فيما يكتبون ويؤلفون .

وفي العالم العربي أيضاً هيئات علمية
متعددة ، من جمعيات واتحادات ، ومراكز
بحث ومجالس علمية ، بل عمدت بلاد إلى
إنشاء وزارات للبحث العلمي والتكنولوجيا .
وتعنى هذه الهيئات كلها بالشكل والموضوع ،
فتحاول أن تدفع البحث العلمي العربي دفعة
قوية ، وترى أن من أهم وسائل هذا الدفع
أن تطاوع اللغة العربية الباحثين والدارسين ،
وأن تمكنهم من أن يعبروا عن كل ما يدرسون
ويكشفون . ولا بد للغة العلمية من أن تستقر

وتتمكن ، وأن تنتشر وتتداول ، وأن يتلاقى
عندها الباحثون العرب أجمعون . لهذا أخذت
الهيئات العلمية نفسها بنشر صحف ومجلات
تقدم بحوثها في لغة عربية سهلة ، ونظمت
ما استطاعت الندوات والمؤتمرات التي
تجمع المتخصصين في صعيد واحد ، وتربط
جهودهم بعضها ببعض ، إن في البحث
والدرس ، أو في تكوين لغة العلم ومصطلحاته .
وأصبح لدينا من هذا كله زاد كفيلاً بأن يسد
الحاجة ، وبأن يسمح بمتابعة السير .

* * *

فبرهنت العربية إذن في الماضي والحاضر
على أنها ليست أقل استعداداً من اللغات
العالمية الكبرى لمواجهة متطلبات العلوم
والتكنولوجيا . أدت هذه الرسالة بالأمس
في أمانة ، يوم أن كان أبناؤها حريصين على
أدائها . وعجزت عن أدائها حيناً يوم أن
انصرف العرب عن ذلك . ولا شك في أنهم
راغبون اليوم كل الرغبة في استعادة مجدهم ،
والإسهام بنصيبهم في نهضة العلم وتقديمه ،
ومتى تمكن الباحث والعالم من لغته وجد فيها
وفاء لأداء كل ما يجول بخاطرهم . وتعريب
التعليم الجامعي يستلزم لا محالة أن يعرب
الباحثون والعلماء أولاً ، فيدرسوا لغتهم
درساً كافياً يمكنهم من أن يكتبوا فيها ويتحدثوا
بها في يسر وطلاقة . ومنهم من يؤثر التأليف
بالإنجليزية أو الفرنسية ، لأن عربيته لا تطاوعه
لدى أن يكتب على نحو ما يحب ويهوى ،
ويوم أن تتوفر في اللغة الوطنية مكتبة شاملة

في مادة من المواد ، يحس أهلها بأنهم ملكوا
هذه المادة وأحسنوا التصرف فيها ، وهذا
شرط آخر من شرائط تعريب التعليم الجامعي ؟

على أننا أصبحنا نعيش في عصر لا يستطيع
باحث أو دارس أن يقنع فيه باللغة الوطنية
وحدها ، بل لا بد له أن يضيف إليها لغة
أو أكثر من اللغات الأجنبية . وتستمسك
الجامعات الكبرى بذلك ، وتطبقه في دقة .
وقد كان العلم ولا يزال لا وطن له ، والحكمة
ضالة المؤمن يلتقطها أنى وجدها . ويعول
العلماء في لقاءاتهم الدورية على أن يتبادلوا
فيما بينهم ما كشفوه وما اهتمدوا إليه ، وأن

يربطوا خيوط البحث العلمي بعضها ببعض ؟
وبين العرب علماء يدون لغتين أجنبيتين أو
أكثر ، وعلى أمثال هؤلاء يعول في دعم
حركة التعريب والنهوض بها . بيد أنه يجدر بنا
أن نصارح أنفسنا بما نحس به من نقص ، إن
كنا نريد تداركه . ولا أظننا نختلف في أننا
نزلق في منحدر بغيض في تعليم اللغات
وتعلمها ، وأصبحت الغالبية العظمى من
الشباب لا تجيد العربية ولا أية لغة أجنبية .
لنبدأ من هنا إذن إن كنا نريد إصلاحاً على
أساس متين ، ولا سبيل بدونه ، لا إلى تعليم
ولا إلى تعريب .

ابراهيم مدكور
رئيس الجمع



من الدراسات اللغوية في بعض الآيات القرآنية

للدكتور الشيخ عبد الرحمن تاج

بسم الله الرحمن الرحيم :

آية من القرآن الكريم قد يقنع الإنسان في التلاوة العابرة بما يلوح له فيها من معنى إجمالي ، يمكن أن يجرى سهلاً مع بعض الأحكام العامة ، التي رسخت في النفوس ، واستقرت في الأذهان ، وكانت من القضايا البديهية التي يعرفها الخاصة والمتقفون ، ولا يجهلها العامة ولا الأديون ، من مثل أنه لا يستوى العالم والجاهل ، والعامل والخامل ، كما لا يستوى الطيب والخبيث ، والجيد والردى ، وكما لا يستوى المؤمن والكافر ، ولا البر والفاجر لكن القارئ المتبصر ، الذي يقرأ هذه الآية بتمهل وتدبر ، لا بد - في غالب الأمر - أن يستوقفه منها ما اشتملت عليه عباراتها وجملها من إجمال وتفصيل وإطلاق وتقييد وما إلى ذلك ، مما

أقضت حكمة الله تعالى أن يقيم عليه آيات كتابه العزيز .

فهذا القارئ المتبصر يقف عند ذلك ليبحث ويفكر ، ويتأمل ويتفهم ، يجمع لذلك وعيه ، ويعمل فيه فكره ، كي يقف على شيء من السر في تصريح القول على الوجه الذي وردت به الآية الكريمة .

ولعله في ذلك تدركه عناية الله تعالى ؛ فيدرك الغاية أو يقع قريباً منها . هذه الآية هي التي جعلناها موضوع الدراسة في هذا البحث وهي قوله تعالى : « لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أُولِي الضَّرَرِّ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ، فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ، وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى . وَفَضَّلَ اللَّهُ

المجاهدين عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ؛
دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَنْفِرَةً وَرَحْمَةً ، وَكَانَ اللَّهُ
غَفُورًا رَحِيمًا . « النساء ٩٥ » .

قد ذكر المجاهدون في هذه الآية ثلاث
مرات بعبارات ثلاث متفاوتة ، بعضها
أطول من بعض .

١ - في العبارة الأولى قيل : « والمجاهدون
في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم » .

٢ - وفي العبارة الثانية قيل : « فضل
الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على
القاعدين درجة » من غير كلمة في
سبيل الله .

٣ - وفي العبارة الثالثة قيل : « وفضل
الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما »
مقتصرًا فيها على كلمة « المجاهدين »
فلم تذكر معها صلة « في سبيل الله » ولا
صلة « الأموال والأنفس » .

فهل هذه المغايرة في التعبير لها تأثير
في المراد بالمجاهدين في تلك العبارات
الثلاث ؟

والجواب : أنه لا تأثير لها في ذلك ،
فإن المراد بالمجاهدون في سبيل الله بالأموال

والأنفس في كل من العبارات الثلاث ؛
غير أنه لكرهية التكرار مع العلم بالمحذوف
والتصريح به أولاً ، اقتضت العبارة في
المرتين : الثانية والثالثة على الوجه الذي
وردت به الآية .^١

وقد ذكر « القاعدون » في الآية ثلاث
مرات أيضا : ففي المرة الأولى قد وصفوا
بأنهم غير أولى الضرر . أما في المرتين
الأخريين فلم يذكر هذا الوصف ، فهل
الأمر فيهم على نحو ما قلنا في المجاهدين ،
فيكون المراد بهم شيئا واحدا في العبارات
الثلاث ؟

والجواب : أن جمهور المفسرين على
أن الأمر في « القاعدين » ليس كذلك ،
فإنه لا يمكن أن يكون المراد بهم في كل
من العبارتين « الثانية والثالثة » نفس
القاعدين غير أولى الضرر ، كما أريد بهم
ذلك وصرح به في العبارة الأولى .

نعم لا يمكن أن يكونوا هم الذين
فضل الله المجاهدين عليهم درجة واحدة
وأن يكونوا هم أنفسهم الذين فضل
المجاهدين عليهم درجات كثيرة .

ومن هنا اختلف العلماء في تبأويل
هذه الآية :

فقال « الجلال السيوطي » - كما قال « ابن جرير الطبري » - إن كلمة « القاعدون » في الجملة الأولى : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم » مراد بها المعنى الظاهر من اللفظ ، أي الذين لم يخرجوا للجهاد وليسوا من أولى الضرر ، فتكون الآية قد ذكرت هؤلاء بهذه الصفة الخاصة وأرشدت إجمالاً إلى حكمهم وأنهم ليسوا مساوين للمجاهدين بأموالهم وأنفسهم !

إن حمل الكلمة في الجملة الأولى من الآية على ما يعطيه ظاهر اللفظ من غير تقييده بشيء غير ما ورد في الآية من أنهم غير أولى الضرر هو تفسير مقبول ومعقول .

لكنه قد يقال : إن عدم مساواة القاعدین الذين لا يشتركون في الجهاد بنفس أو مال للمجاهدين الذين يبذلون في ذلك أنفسهم وأموالهم أمر ضروري ومعلوم لا يحتاج إلى نص عليه .

والجواب : أن النص على عدم المساواة بين فريقى القاعدین والمجاهدين ليس المقصود به أصل الإخبار بعدم هذه

المساواة بينهما ، وإنما المقصود به استنهاض القاعدین ورفع هممتهم عن الركون إلى تلك المنزلة الضعيفة التي ليس فيها صلاح دنيا ولا عزة دين .

ثم إن كلام « الطبري » و « السيوطي » يفسر كلمة « القاعدین » الواردة في الجملة الثانية من الآية - وهي قوله تعالى : « فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى » - بأن المراد بها القاعدون أولو الضرر ، فهم الذين فضّل الله المجاهدين عليهم درجة واحدة ، كما روى ذلك عن ابن عباس والبراء وغيرهما .

أما في الجملة الأخيرة - وهي قوله سبحانه (وفضل الله المجاهدين على القاعدین أجراً عظيماً) فإنه المراد هؤلاء القاعدین هم غير أولى الضرر ، وهم الذين صرحت الجملة الأولى إجمالاً بعدم مساواتهم للمجاهدين ، فهؤلاء قد شرحت الآية في الجملة الأخيرة حكمهم بطريق البيان التفصيلي ، وقررت مبلغ التفاوت بينهم وبين المجاهدين في الأجر والثواب .

هذه طريقة « ابن جرير والطبري والجلال السيوطي » في تفسير الآية .

وقد يقال : إن تفسير القاعدين في الجملة الثانية بأنهم القاعدون أولو الضرر ؛ تفسير غريب يؤدي إلى أن تنحرف الجملة عما هو الشأن الذي عهد في نظائرها ، وهو الذي يقضى به الأسلوب الجيد في فصيح اللغة العربية .

ذلك أن الشأن في مثل الأسلوب الذي وردت به الآية الكريمة من نفي المساواة إجمالاً بين أمرين ثم إتباع ذلك بتفصيل يرتبط بذلك النفي - أن يكون هذا التفصيل بياناً لحكم التفاوت بين الأمرين وإرشاداً إلى سرّ عدم التساوى بينهما ؛ كما أنه لا بد أن يكون الأمران اللذان قد بين حالهما في التفصيل هما بعينهما الأمرين اللذين قد نفي التساوى بينهما أولاً في الإجمال .

١- وذلك كما في قوله تعالى :

(لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ، أصحاب الجنة هم الفائزون) الحشر - ٢٠

فالجملة الأولى من هذه الآية قد نفي بها إجمالاً الاستواء بين أصحاب النار وأصحاب الجنة ، والجملة الثانية بيّن بها تفصيلاً حال الفريقين وأن الفوز في

الآخرة مقصور على أصحاب الجنة وليس لأصحاب النار حظ فيه .

٢- وكذلك قوله تعالى : « لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلاً وعد الله الحسنى » الحديد (١٠) .

فإن الجملة الأولى من الآية قد نفى بها الاستواء بين من أنفق من قبل فتح مكة وقاتل ، ومن أنفق وقاتل بعد الفتح . وقد أضمر في الآية . هذا المقابل الثاني وهم من أنفق وقاتل بعد الفتح . للعلم به والدلالة عليه في البيان التالي .

وهذا البيان التالي هو التفصيل المرتبط بالجملة الأولى ؛ التي نفيت فيها المساواة بين الفريقين . وقد أرشد هذا التفصيل إلى مبلغ التفاوت بينهما في الأجر والثواب .

٣- ومثل ذلك أيضاً قوله تعالى : « أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا ، لا يستوون » (السجدة ١٨) فقد نفيت المساواة بهذه الآية إجمالاً بين المؤمن والفاسق ثم أتبع ذلك بالتفصيل الذي بين به حالة كل منهما وما آل إليه أمرهما بسبب اختلافهما بالفسق والإيمان ، وذلك في قوله تعالى : « أمّا الذين آمنوا

وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نُزُلًا
بما كانوا يعملون » وأما الذين فسقوا
فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها
أُعِيدُوا فيها وقيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ
الذى كنتم به تكذبون ، . (١٩ ، ٢٠
السجدة) .

هذا هو الشأن فى استعمالات اللغة
العربية الفصيحة وأساليبها الجيدة :
إنه إذا حكم بنفى المساواة بين أمرين ،
ثم أتبع ذلك بتفصيل يبين سرَّ عدم
المساواة بينهما ، ويرشد إلى أصل ذلك
وما يؤول إليه أمر عد القبيلين المختلفين
غير المتساويين ، فإنه لابد أن يكون الأمران
المتقابلان فى ذلك البيان التفصيلي هما
عين المتقابلين فى الحكم الذى قرر عد
المساواة بينهما بطريق الإجمال .

ومن هذا يعلم أن تفسير الآية على
الوجه الذى اختاره « الطبرى » و « الجلال »
لا يتمشى مع الاستعمالات الجيدة فى
فصيح اللغة ، ولا يحقق ما يقضى به
الأسلوب الذى أشرنا إليه آنفا .

ذلك أنه يجعل « القاعدين » فى
الجملة الثانية من الآية مراداً بهم « القاعدون

أولو الضرر » ، على خلاف ما أريد بهم فى
الجملة الأولى ، وعلى خلاف ما يفيد
نظام الجملتين اللتين رتبت فيهما الثانية
على الأولى بغير العطف ، ذلك الترتيب
الذى هو ظاهر فى أن الجملة الثانية قد
وردت بياناً تفصيلياً لما أجمل فى الجملة
الأولى على نحو ما جاءت به الآيات الكريمة
الى قد منها .

وخلاصة القول أن طريقة « الجلال »
و « الطبرى » فى تفسير هذه الآية قد
جعلتها مخالفة للمعهود فى نظائرها ،
ولما هو الشأن الذى يقضى به الأسلوب
القويم فى فصيح اللغة العربية وفقاً
للأصول البلاغية المقررة فى باب الفصل
والوصل ، من علم المعانى .

رأى الزمخشري صاحب الكشاف

ج ١ ص ٣٨٢

وقال الزمخشري فى تفسير الآية مانصه :
« فضل الله المجاهدين » جملة موصحة
لما ننى من استواء القاعدين والمجاهدين ،
كأنه قيل : ما لهم لا يستوون ؟ فأجيب
بذلك ، والمعنى : « على القاعدين غير
أولو الضرر » لكون الجملة بياناً للجملة

الأولى المتضمنة هذا الوصف . « وكلا »
كل فريق من القاعدين والمجاهدين (وعد
الله انحسني) أى المثوبة الحسنى وهى
الجنة ، وإن كان المجاهدون مفضلين على
القاعدين درجة .

ثم قال : وعن النبي صلى الله عليه
وسلم : « لقد خلفتم بالمدينة أقواما ما سرتهم
مسيرا ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم ،
وهم الذين صحت نياتهم ونصحت
جيوبهم^(١) وكانت أفئدتهم تهوى إلى
الجهاد ، وبهم ما يمنعهم من المسير من
ضرر أو غيره » .

ثم أتبع ذلك بقوله :
فإن قلت « قد ذكر الله تعالى
مفضلين درجة ، ومفضلين درجات فمن
هم » ؟ قلت . أما المفضلون درجة واحدة
فهم الذين فضلوا عن القاعدين الأضراء .
وأما المفضلون درجات فالذين فضلوا على
القاعدين الذين أذن لهم فى التخلّف اكتفاء
بغيرهم ، لأن الغزو فرض كفاية « اهـ .

ومن هذا يعلم مبلغ ما فى رأى الزمخشري
من الاضطراب :

(أ) فهو يقرر أولا : أن المراد بالقاعدين
فى الجملة الثانية من الآية - وهى
قوله تعالى : « فضل الله المجاهدين
بأموالهم وأنفسهم على القاعدين
درجة » - هم القاعدون المذكورون
فى الجملة الأولى ، وهم القاعدون
غير أولى الضرر ، لأن الثانية
جاءت بيانا للجملة الأولى المتضمنة
هذا الوصف .

هذا صريح كلامه عن الجملتين
الأولى والثانية .

(ب) ثم يقرر صراحة أيضا فى موضوع
التفضيل درجة والتفضيل درجات ،
أن المفضلين درجة واحدة . هم
المفضلون على القاعدين الأضراء ،
أما المفضلون درجات فهم الذين
فضلوا على القاعدين الذين أذن لهم
فى القعود اكتفاء بغيرهم ، لأن
الغزو لم يكن حينئذ فرض عين ،
ولئلا هو فرض كفاية .

فهو يقرر فى آخر كلامه أن
المفضل عليهم درجة واحدة هم

(١) نصحت جيوبهم ، أى صفت صدورهم وطهرت قلوبهم من الفسق والحداع . والجيوب جمع جيب وهو فتحة
القميص على النحر ، وذلك كناية عن نقاء السريرة وطيب القلب .

القاعدون أصحاب الأضرار على حين أنه في أول الكلام - يقول إن المراد بالقاعدين في الجملة الثانية التي جاءت بيانا للجملة الأولى هم القاعدون غير أولى الضرر . وهذا تضارب فاحش لاندري كيف صدر من العلامة الزمخشري .

(ج) ثم يلاحظ أخيرا أنه فيما بين الكلامين : الأول والأخير قد أورد الزمخشري حديث : « لقد خلفتم بالمدينة أقواما . » إلى آخره ، وظاهر أن هذا الحديث إنما يحسن إيراده حيث يكون الكلام عن القعود عن الجهاد بسبب الأضرار والأعذار ، ولكن المفسر قد أوردته عقب قوله : إن المراد بالقاعدين هم القاعدون غير أولى الضرر ، وليس هناك ذكر لقاعدين أولى أضرار أو أصحاب أعذار .

وهذا شيء يضاعف حالة الاضطراب والتضارب التي وقعت في كلام العلامة « الزمخشري » .

تفسير النسفي ج ١ ص ١٩٠، ١٩١

وقد وقع النسفي « في الاضطراب والتضارب مثل ما وقع « الزمخشري » نقد تابعه في طريقته وكما كبوته إذ قال في تفسير قوله تعالى : « فَضَّلَ اللَّهُ المجاهدين بأمّوالمهم وأنفسهم على القاعدين درجة » مانصه : « ذكر هذه الجملة بيانا للجملة الأولى موضحة لما نفى من استواء القاعدين والمجاهدين ، كأنه قيل ما لهم لا يستوون ؟ فأجيب بذلك » ، ثم قال : « وفضل الله المجاهدين على القاعدين بغير عذر أجرا عظيما » درجات منه ومغفرة ورحمة ، ثم ختم المفسر كلامه بقوله : « وحاصله أن الله تعالى فضل المجاهدين على القاعدين بعذر درجة واحدة ، وعلى القاعدين بغير عذر - بأمّالنبي عليه السلام - اكتفاء بغيرهم درجات ، لأن الجهاد فرض كفاية » . اهـ .

فهو يقرر أولا أن القاعدين الذين فضل الله عليهم المجاهدين درجة واحدة هم القاعدون غير أولى الضرر ، وهم الذين ورد ذكرهم في الجملة الأولى التي نفى فيها الاستواء بين القاعدين والمجاهدين ،

لأن الجملة الثانية جاءت بيانا للأولى ،
موضحه لما أجمل فيها من عدم الاستواء
ثم يقرر أخيرا أن القاعدين الذين
فضل الله عليهم المجاهدين درجة واحدة
هم القاعدون أولو الضرر . أما الذين فضل
الله المجاهدين عليهم درجات فهم القاعدون ،
بغير عذر بأمر النبي صلى الله عليه وسلم
اكتفاءً بغيرهم . وهذا هو التضارب
والاضطراب .

طريقة أبي السعود في تفسير الآية

أقد أراد العلامة أبو السعود أن يتفادى
من ذلك الاضطراب وينجو بكلامه مما
وقع فيه « الزمخشري والنسفي » فقال
أما خلاصته إن المراد بالقاعدين في الجمل
الثلاث فريق واحد هم القاعدون غير أولى
الضرر وقد أذن لهم الرسول صلى الله عليه
وسلم في القعود اكتفاءً بغيرهم :

فهم في الجملة الأولى قد حكم بأنهم
لايساؤون المجاهدين وجاءت الجملة
الثانية بحكم تفصيلي لما أجمل في الجملة
الأولى من عدم المساواة ؛ فبينت أن
المجاهدين مفضلون على القاعدين درجة
وأن هؤلاء القاعدين غير محرومين من

الأجر والثواب ، إذ أن الله تعالى قد وعد
كلا من الفريقين الحسنى وهى الجنة .
« قال أبو السعود » وليس المراد بالدرجة
التي فضل الله بها المجاهدين على أولئك
القاعدين أنها درجة واحدة بالشخص
ولكنها جنس واسع يشتمل على درجات
ومراتب كثيرة من الأجر والثواب .
وبذلك لايتعارض ماتضمنته هذه الجملة
الثانية من التفضيل درجة وماجاءت به
الجملة الأخيرة التي تقول : « وفضل
الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً »^[١]
وقد بين ذلك الأجر العظيم بقوله تعالى
« درجات منه ومغفرة ورحمة » .

وعلى هذا يكون التفضيل درجة هو
التفضيل درجات ، وتكون الدرجة
والدرجات شيئاً واحداً في الحقيقة ،
ولكنه يختلف بالإجمال والتفصيل .
هذا ماخص ماقاله أبو السعود في تفسير
الآية^(١) .

ونحن نرى أن هذا تأويل بعيد
لا يتبادر إلى الذهن ، ولا يستقيم جيداً في
الفهم ، ولا ينبغى أن يسار عليه في
تفسير الآية الكريمة .

(١) يراجع في ذلك تفسير أبي السعود المطبوع على هامش تفسير الفخر الرازي ج ٣ ص ٢٤٥ - ٢٥١ .

ثم يقول أبو السعود : « إنه يحتمل أن يكون التفضيل درجة والتفضيل درجات أمرين مختلفين بالحقيقة ، وأن المراد بالدرجة درجة واحدة هي ما يرجع إلى النعم الدنيوية ، أما الدرجات الكثيرة فهي أنواع نعم الآخرة وثوابها .

وهذا أيضاً تأويل بعيد ، ومحاولة للتوصل إلى جعل التفضيلين : تفضيل الدرجة وتفضيل الدرجات جميعاً على فريق واحد هم القاعدون الذين ذكروا في الجمل الثلاث ، وهم الذين يقول « أبو السعود » : إن المراد بهم جميعاً القاعدون غير أولى الضرر ، وقد أذن لهم الرسول صلى الله عليه وسلم في القعود اكتفاءً بغيرهم .

إن ذلك تكلف غير مقبول ، ولا سيما إذا لوحظ ما في الجملة الثانية التي تقرر التفضيل درجة ، وهي قوله تعالى « فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة ، وكلا وعد الله الحسنى » فإن المراد « بالحسنى » المثوبة الجميلة وهي نعم الجنة . وبذلك يكون التفضيل درجة والتفضيل درجات جميعه في الآخرة ونعيمها .

وبعد ؛ فإنه إذا كان أبو السعود قد استطاع أن يتفادى ما وقع فيه « الزمخشري والنسفي » من الاضطراب والتضارب ، فإنه اضطر في سبيل ذلك أن يلجأ إلى تلك المحاولات والتكلفات غير المقبولة .

أما ما جاء في تفسير الفخر الرازي والتيسابوري وتفسير الألوسي ؛ فإنه لا يبعد عما أوردناه من تفسير أبي السعود ، وإذا لا داعى إلى الإطالة بذكر ما قالوه في ذلك .

وهناك رأى آخر في تفسير الآية يشبه إلى حد ما ما قاله أبو السعود : يشبهه في أصله وأساس مبناه ، ولكنه يخالفه في حقيقته وجوهر معناه ، ولعله يكون أحق منه بالقبول .

وحاصله أن يحمل « القاعدون » في الجمل الثلاث على غير أولى الضرر لكنهم فريقان :

فريق أذن لهم الرسول صلى الله عليه وسلم في القعود وعدم الخروج مع المجاهدين في تلك « الغزوة » ، غزوة بدر ، لأن الخروج إليها كان فرض

كفاية ، وقد رأى عليه الصلاة والسلام
فيمن خرج إليها الكفاية ، ثم أنه صلى الله
عليه وسلم ، لا بد أن يكون قدر رأى الحكمة
في عدم خروج هؤلاء الذين أذن لهم
في القعود ، لأنهم - وإن لم يكونوا
أولى ضرر في أنفسهم - قد تكون
هناك حاجات مهمة تدعوهم إلى القعود .

وذلك كما تخلف « عثمان بن عفان »
رضي الله عنه بإذنه عليه الصلاة والسلام ،
لقيامه بتمريض زوجته السيدة « رقية »
بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد
بقي معها حتى توفيت رضي الله عنها .

وكذلك رد عليه الصلاة والسلام « أبا
لبابة بشير بن عبد المنذر » من الروحاء
لما بلغه خروج النفير من « مكة »
واستعمله على المدينة .

والفريق الآخر من القاعدين غير أولى
الضرر هم الذين لم يسبق لهم إذن من
الرسول صلى الله عليه وسلم بالقعود ،
ولكنهم قعدوا لعلمهم بأن الخروج ليس
فرض عين . وهم مع ذلك مخلصون
صادق الإيمان ، ويتمنون في قرارة

(١) يراجع في ذلك كتاب البداية والنهاية ج ٣ ص ٣٢٧ .

أفئدتهم أن ينصر الله المسلمين على
أعدائهم الكافرين .

وعلى هذا يكون نظم الآية في جملها
الثلاث متسقاً هكذا غاية الاتساق :

فالجمل الأولى نفت المساواة بين
القاعدين غير أولى الضرر والمجاهدين
في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، وهذا
الحكم بعدم المساواة يشمل فريقى القاعدين ؛
أى الذين أذن لهم في القعود والذين
لم يسبق لهم مثل هذا الإذن .

ثم جاءت الجملة الثانية بطريق الفصل
من غير أن تعطف على ما قبلها ، لأنها
بيان تفصيلي لما أجمل في الجملة الأولى
من الحكم بعدم المساواة ؛ وهذا هو ما تقضى
به البلاغة في شأن الجملة التي تقع بيانا
لما تضمنته جملة قبلها .

هذه الجملة الثانية : « فضل الله
المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على
القاعدين درجة » قد بينت فضل
المجاهدين على الفريق الأول من القاعدين
غير أولى ، وهم الذين قعدوا بإذن من
الرسول صلى الله عليه وسلم ، فأفادت

أن المجاهدين مفضلون عليهم درجة واحدة ، إذ أن حال هؤلاء القاعدين قريب جدا من حال أولئك المجاهدين حيث إنهم كانوا يودون الخروج معهم للجهاد بأنفسهم ، ولكن رأى الرسول صلى الله عليه وسلم أن من الحكمة أن يبقوا في المدينة للحاجات المهمة التي تقتضى هذا البقاء كما قدمنا الإشارة إلى ذلك .

ومع أن المجاهدين فضلوا عليهم درجة قد وعدهم الله الحسنى وهى الجنة ، كما وعده المجاهدين بقوله سبحانه : « وكلا وعده الله الحسنى » .

أما الذين لم يسبق لهم إذن من الرسول صلى الله عليه وسلم فى القعود ، فهم الذين بنيت الجملة الأخيرة حالهم وإن المجاهدين مفضلون عليهم درجات كثيرة ، وذلك قوله تعالى :

« وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً . درجات منه ومغفرة ورحمة » .

وبذلك علم حال القاعدين غير أولى الضرر : المأذون لهم والآخرين .

أما أولو الضرر فى أنفسهم كالهرم والزمنى والمرضى وذوى العاهات التى تعجز بها أصحابها عن إمكان الخروج مع المجاهدين ، وكذلك من ليس لهم من المدة ما يمكنهم من الاشتراك فى الجهاد ؛ فإن الآية لم تصرح فى جانبهم بحكم ، ولم تبين حالهم بالنسبة إلى المجاهدين كما صنعت فى جانب غير أولى الضرر فما هو حكمهم ؟ وما جزاؤهم ؟ وهل يمكن أن يقال بوجه ما من القول : إنهم يساؤون فى الأجر والثواب أولئك المجاهدين ؟

إن جواب هذا هو من المواطن التى اختلفت فيها أنظار المجتهدين ، وذلك أن الآية التى حكمت بنى المساواة بين المجاهدين والقاعدين ، قد وصفت هؤلاء القاعدين بأنهم غير أولى الضرر ، فهل لهذه الصفة مفهوم مخالفة يقتضى ثبوت نقيض الحكم المنطوق الذى هو عدم المساواة فى حال زوال تلك الصفة ، وحينئذ تثبت المساواة ؟ أو أن ذلك المفهوم مسكوت عنه ، فهو فى مقام الاحتمال ؟ يجوز أن يثبت له نقيض

الحكم المنطوق ويجوز أن يكون الثابت له خلافة ؟

من المجتهدين من سار على الطريقة الأولى، وحكم بأن القاعدين أولى الضرر يساؤون في الأجر والثواب أولئك المجاهدين .

وقد يستند هذا الفريق من المجتهدين في ذلك أيضا إلى ما ورد من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد خلفتم بالمدينة أقواما ، ما سرتهم مسيرا ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم ، وهم الذين صحت نياتهم ونصحت جيوبهم وكانت أفئدتهم تهوى إلى الجهاد ، وبهم ما يمنعم من المسير من ضرر أو غيره » .

أما الفريق الآخر من المجتهدين فإنه يرى أنه ليس في الآية ولا في الحديث ما يفيد الجزم بمساواة القاعدين أولى

الضرر للذين خرجوا بالفعل مجاهدين في إخلاص وصدق إيمان ، فإنه لا يستوى العاملون وغير العاملين ، وإن كان هؤلاء الذين لم يعملوا لم تتوافر لهم وسائل العمل وضروراته ، أي أنهم غير مفرطين . فحكم أولى الضرر عند هذا الفريق من المجتهدين أنهم بالنظر إلى النصوص التي ذكرناها آنفا - في محل الاحتمال : يجوز أن يكونوا مساوين للمجاهدين في الأجر والثواب .

ويجوز أن يكونوا أقل منهم في هذا الجزاء . . .

ورأينا أن وجهة نظر هذا الفريق من المجتهدين أدق وأحكم وأولى بالاتباع . والله أعلم .

عبد الرحمن تاج
عضوالمجمع

الفارسي في الإغفال

للأستاذ على النجدي ناصف

« هذه مسائل من كتاب أبي إسحاق إبراهيم بن السري في إعراب القرآن ، ذكرناها لما اقتضت عندنا من الإيضاح منها للإغفال الواقع فيها . ونحن ننقل كلامه في كل مسألة من هذه المسائل بالفظه على وجهته من النسخة التي سمعناها منه فيها ثم نتبعه بما عندنا ، وبالله التوفيق . »

وهمزة « الإغفال » يحتمل أن تكون للتعدي ، وأن تكون للمصادفة ، كالتى فى قوله تعالى : (ولا تُطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا) ، على بعض التفاسير^(١) ، أى من وجدناه غافلا عن ذكرنا . والتسمية بالإغفال على الحالين - ملحوظ فيها مضاف محذوف وتأويلها على التعدي : تدارك إغفال الزجاج وعلى المصادفة : تدارك ما وجدنا عند الزجاج من إغفال :

والفرق بين التأويلين يسير ، وهو يتعلق بوصف الوقوع على الإغفال كيف كان ؟ فعلى التعدي كان الإغفال ميسرا قريبا المتناول ، لا يكلف مثونة ، ولا يحمل على طلب ، وعلى المصادفة يتطلب الوقوع عليه تعقبا واقتفاء .

أبو إسحاق الزجاج

— فيما ألف —



كتابا فى معانى القرآن ، يعرض فيه بالبيان والإعراب لآيات الكتاب العزيز التى يتطلب فهم معانيها وإعراب أساليبها فضلا من التأمل وإنعام النظر ، ثم جاء أبو على الفارسي أبعد تلاميذ الزجاج شهرة ، وأعمقهم فى العربية فلسفة ، فألف كتابا يعرف بالإغفال ، ينقد فيه كتاب شيخه فى معانى القرآن ، ويستدرك عليه من شاء الله أن يستدرك من فوت .

ويبين أبو على فى مقدمة الإغفال سبب تأليفه ، ويذكر منهجه فيه على العهد به من الإيجاز فى مقدمة كتابه الحجة فى علل القراءات السبع ، فيقول :

(١) انظر كشف الزمخشري : ١ : ٥٦٧ ، والمختص : ٢ : ٢٨ .

ولا على الفارسي أن ينقد شيخه ،
ويلبى على الإغفال الذى رآه فى كتاب معانى
القرآن وفى كل كتاب من كتبه إذا بدا
ذلك له ، ووجد السبيل إليه : بل إن
الأمانة العلمية ، والغيرة على الحقيقة أن
يتحيفها نقص ، أو تشوبها شائبة غموض
لتوجب أن عليه أن ينبى للنقد والإيضاح
والاستدراك وجوبا لا هوادة فيه ولا توقف
دونه . وفى ذلك من بعد خير للعلم وتمحيص
لمعدنه . ولكن الذى كنا نود لو أن أبا
على نزه عنه نقده ، ومنع منه قلمه ألا يأخذ
شيخه هكذا أخذ شديدا لارفق فيسه ،
ولابقيا معه ، فهو لا يتحرج أن يرميه بالخطأ
الصراح ، وبالتحامل وتناقض الأقوال .

وإذا أمكن أن يغضى مغض عن هذا
العنف إذا كان من عدو يناكر الزجاج
ويحقد عليه ، أو من قرن يطاوله ويحاول
فى زحام الحياة وتدافعها أن يؤخره ليتقدم
هو عليه — فما أظن أن أحدا يمكن أن
يغضى عنه بل عن شيء منه إذا كان من
تلميذ له جلس إليه وسمع منه .

وإذا ساغت التخطئة فيما يناقض القوانين
الرياضية ، أو البرهانات المنطقية — فإنها
غير سائغة ، ولا هى من الحكمة فى شيء إذا
كانت فى المسائل اللغوية ، فإن هذه المسائل
إنما تقوم أصلا على رواية النص وفهم
معناه ، إلى قرائن وملاحظات من الظنون

والافتراضات : والرواية عمل مشترك بين
اللغويين ، لكل منهم نصيبه المقسوم منه .
ومهما اتسعت رواية أحدهم فلن تكون
محيطة شاملة ، لاتند عنها صغيرة ولا كبيرة .
واختلاف الفهم سمة من سمات العقول
فى تعددها وتفاوت أصحابها فى الخصائص
والمزايا . والظنون والافتراضات كثيرا
ما تبطلها قرائن غير القرائن وملاحظات غير
الملاحظات .

فليس عجيبا أن نرى لغويات عدت
خطأ ، فأزرى بها ، ونهى عنها ، وأن
نرى أخرى وصفت بالاطراد والعموم
الذى لاستثناء منه ولاخروج عليه . ثم
قيض الله للخطأ المزعوم من صوبه ورد
اعتباره إليه ، وقبض للعام المطرد من قيده
وحد من شموله الموصوف .

فهذا ثعلب — يرحمه الله — يقول عن
(ولاسيا) : من استعماله على خلاف
ما جاء فى قوله : ولاسيا يوم فهو مخطئ ،
يريد أن من الخطأ ألا تذكر الواو ولاقبل
سيا ، لتكون كما وردت فى قول امرئ
القيس :

ألارب يوم كان منهن صالح

ولاسيا يوم بدارة جاعل

ثم جاء الرضى فتوسع فى أوجه استعمالها
ماشاء^(١) ، ولم يسلم كتاب (ليس فى كلام

(١) انظر شرح الأشموني وحاشية الصبان فى آخر باب الاستثناء .

العرب (لابن خالويه ، ولا كتاب درة
الغواص للحريرى من النقد والتعقيب
بما ينقض بعض ما جاء فيهما من قضايا
وأحكام .

وينطلق أبو على هنا على العهد به في
الحجة ، فلا يتابع القول على وتيرة واحدة
ولا يأخذ بالقارىء إلى الغاية التي يريد من
وجه واحد ولا من طريق قاصدة ، ولكنه
ينهج به إليها مناهج شتى ، ويعبر له عنها
بأساليب متنوعة ، فبينما هو ماض به قدما -
إذا هو يميل به ذات اليمين مرة وذات
الشمال أخرى ، وبينما هو معه في سهل
مؤنس إذا هو ينحو به إلى صعب موحش
أو يعاو به شرفا ثم يهبط غورا .

ولا يزال في أثناء ذلك يتنقل به من علة
فلسفية ، إلى قياس منطقي ، إلى سرمكون
من أسرار العربية ، إلى طرفة نادرة من
النحو أو الصرف أو الأصوات حتى يدركه
البهر ، ويمسه اللغوب ، ولا يجد بدا من
الإمساك عن المتابعة والانقياد ، إما إلى
عودة قريبة أو بعيدة ، وإما لتعجل النهاية
والنظر إلى مكانه منها ، وسيتبين في كثير
من الأحيان أنه لا يزال بعرض المزيد من
الصبر والاحتمال .

وهو يستكثر من الاستشهاد بالقرآن
ملا يستكثر من غيره إلا كتاب سيبويه ،
حتى ما يكاد القارىء يرتاب في أنه كان

يحفظه كما يحفظ القرآن : وأبو على إذا
يحفظ الكتاب لا يكون بدعا من العلماء
ولا آتيا بما لم يسبقه إليه أو يشاركه أحد
فيه ، فقد مر بالناس زمان كاد كثير
من طلاب العلم يجمعون فيه بين حفظ
القرآن وحفظ الكتاب ، وخاصة في بلاد
الأندلس (١) ، ولكن الذي يشير العجب
حقا أن يكون الرجل على هذه الدرجة من
الاستحضار له ، وإحكام الاستشهاد به
على هذا النحو النادر المثال . ويزيد من
العجب والاستغراب أن كثيرا مما ينقله
عن كتاب سيبويه ليس مما يذكر في بابه
الذي عقد له ، ولكن مما يذكر عرضا فيه
أو استطرادا إليه .

وبعد ، فسأورد هنا فقارا متفرقة من
المسألة الثامنة والأربعين من الإغفال ،
وأرجو أن تكون كافية في تصوير شخصية
الفارسي وتبيين منهجه في الكتاب على نحو
إلا يكن كاملا فمقارب ، إن شاء الله .

يستهل الفارسي المسألة الثامنة والأربعين
على عادته بنقل كلام شيخه فيها ، فيقول :

« قال في قوله عز وجل : (وقالت
اليهود يد الله مغلولة فغلت أيديهم ولعنوا
بما قالوا) : أي يده ممسكة عن الإنفاق ،
ومثل ذلك قوله تعالى : (ولا تجعل يدك
مغلولة إلى عنقك) أي لا تمسكها عن

(١) انظر سيبويه إمام النحاة لكاتب المقال : ١٨٨ .

الإتفاق . وقال بعضهم : يد الله مغاولة :
نعمته مقبوضة عنا ، وهذا القول خطأ .
ينقضه (بل يدها مبسوطتان) ، فيكون
المعنى : بل نعمته مبسوطتان ، ونعم
الله أكثر من أن تحصى . . . »

وقال أبو علي بعد كلام له : وقوله —
عز وجل (بل يدها مبسوطتان)
لا يدل على تقليل النعمة ، وعلى أن نعمته
نعمتان ثنتان ليس غيرهما ، ولكنه يدل
على الكثرة والمبالغة ، وقد جاءت
التثنية يراد بها الكثرة والمبالغة ، وتعداد
المثنى ، لا المعنى الذى يشفع الواحد المفرد .

ولا ترى أن قولهم : لبيك إنما هو إقامة
على طاعتك بعد إقامة ، وكذلك سعديك ،
إنما هو مساعدة بعد مساعدة ، وليس
المراد بذلك طاعتين ثنتين ، ولا مساعدتين
فكذلك الآية ، المعنى فيها أن نعمه ظاهرة
[متتابعة] ، ليست كما ادعى من أنها مقبوضة
[ممتنعة] . وهذا الذى ذكرناه فى لبيك وسعديك
وأن المراد به الكثرة — قول الخليل وسيبويه
ومن وراءهما ، فهذا وجه :

وإن شئت حملت الآية على وجه آخر
قريب من هذا فى أن التثنية يراد بها الكثرة
وهو أن تجعل المثنى تثنية جنس لا واحد
مفرد ، ويكون أحد جنسى النعمة نعمة
الدنيا ، والآخرة نعمة الآخرة ، أو نعمة الدين ،
فلا تكون التثنية على هذا مراداً بها اثنتين .

(١) نسبة فى اللسان (يدى) إلى الأعشى وذكر
صناعة الإعراب : ١ : ٢٤٥ .

فإن قلت : كيف جاز أن يثنى اسم
الجنس ، وهل جاء لهذا نظير فى كلامهم ؟
قيل : نعم قد جاء هذا فى كلامهم مطرداً
ألا ترى أن النحويين لا يجيزون إعمال
نعم وبئس فى فاعل مخصوص ، ولا
يسندونها إلا إلى أسماء الأجناس المعرفة
بالألّف واللام ، أو المضافة إلى الألف
واللام ، وأجازوا نعم الرجال أخواك ونعم
الفتيان صاحبك ، فثنوا اسم الجنس ؟
فكذلك يثنى هذا الاسم فى الآية تثنية الجنس
وإن لم تكن فيه لام التعريف . ألا ترى
أنهم قالوا : هما خير اثنين فى الناس ،
وأوقعوا التثنية على العموم ، وعلى غير
ضم مفرد إلى مفرد ؟ وعلى هذا قول
الفرزدق :

وكل رفيقى كل رحل وإن هما
تعاطى القنا قوماهما أخوان

فتأويل الرفيقين فى البيت العموم والإشاعة
ألا ترى . أنه لا يجوز أن يكون رفيقان اثنان
لكل رجل ؟

ثم قال : فأما كون اليد بمعنى النعمة فليس
بمنكر ولا مدفوع ، ومما يدل على ذلك
ما أنشده أبو زيد :

فإن أذكر النعمان إلا بصالح
فإن له عندى يدياً وأنعماً^(١)
جمع يد على يدي كالكلب . . والعبيد .
فقوله : « يديا وأنعم » ، فاليدى هى الأنعم

ابن برى أنه لضمرة بن ضمرة النهشلى ، وانظر سر

في المعنى ، وحسن التكرير لاختلاف اللفظتين
كقوله :

أقوى وأفقر بعد أم الهيثم ^(١)

وكقوله — تعالى — : (شديد القوى ذو مرة) ،
ونحو ذلك . واليد قد تستعمل في القوة ،
وتعنى بها . وعلى هذا ما أنشده الأصمعي
لعلى بن الغدير الغنوى :

اعمد لما تعلو فما لك بالــــــذى

لا تستطيع من الأمــــو يدان

يريد : ليس لك قوة . ألا ترى أنه لا يذهب
للجراحة ولا للنعمة هنا ؟ وعلى هذا ما ذكره
سيبويه من قوله : لا يدين لك ، فعنى هذه
التثنية عندي المبالغة أيضا في نفى الاقتدار
والقوة على الشيء ، كأنه يصف الشيء الذي
قد اعتاص عليه واشتد امتناعه بأنه يبالغ في
انتفاء اقتداره عليه . فليس المراد بالتثنية
الاثني الناقص عن ثلاثة ، إنما هو الكثرة
وتجمع يد النعمة على أيدي في العدد القليل !
وفي الكثير أياد ، مثل كلب وأكلب وأكالب .

ثم قال : واعلم أن يدا كلمة نادرة وزنها
فَعَمَل ، يدل على ذلك قولهم : أيدي ، وجمعهم

لما عى أفعل ، فدل ذلك على أنه فعل ، كما
دل آباء وآباء على أن وزن أب وأخ : فَعَمَل
واللام منه ياء ، فهو من باب ساس وقاق ^(٢) ،
ولا نعلم لذلك في الكلام نظيرا . والذي يدل
على ذلك قولهم : يدبت إليه يدا ، وهو ينبغي
أن يكون مثل : شعر ^(٣) الجنين ، واستحجر
الطين . . . ألا ترى أنه لم يجئ مثل وعوت
وقد جاء عندي في الأسماء ذلك ، وهو قولهم
واو ثم قال : وقول ذى الرمة :

فيا لك من دار تحمل أهلها

أيادي سبا بعدى فطال احتياها ^(٤)

فقال أبو العباس : من قال : أيادي سبا ،
فأضاف أيادي إلى سبا كان واضعا الكلمة
في غير موضعها . والقول في ذلك لما قال ،
لأنه في موضع حال . ألا ترى أن قولك :
ذهبوا أيادي سبا كقولك : ذهبوا متفرقين ؟
فاذا كان كذلك لم تصاح إضافته ، لأنك إذا
أضفت إلى سبا — وهو معرفة — كان المضاف
معرفة ، وإذا كان المضاف معرفة وجب ألا
يكون حالا :

(١) البيت بتمامه : حيث من ضلل تقادم عهده أقوى وأفقر بعد أم الهيثم . وهو من معلقة عنتره .

(٢) كل من سلس وقلق فأوّه ولامه من جنس واحد ، ويد مثلهما ، إلا أن القاء واللام ياءان ، ولا نظير لهما
لذلك فيما يعلم من الأفعال .

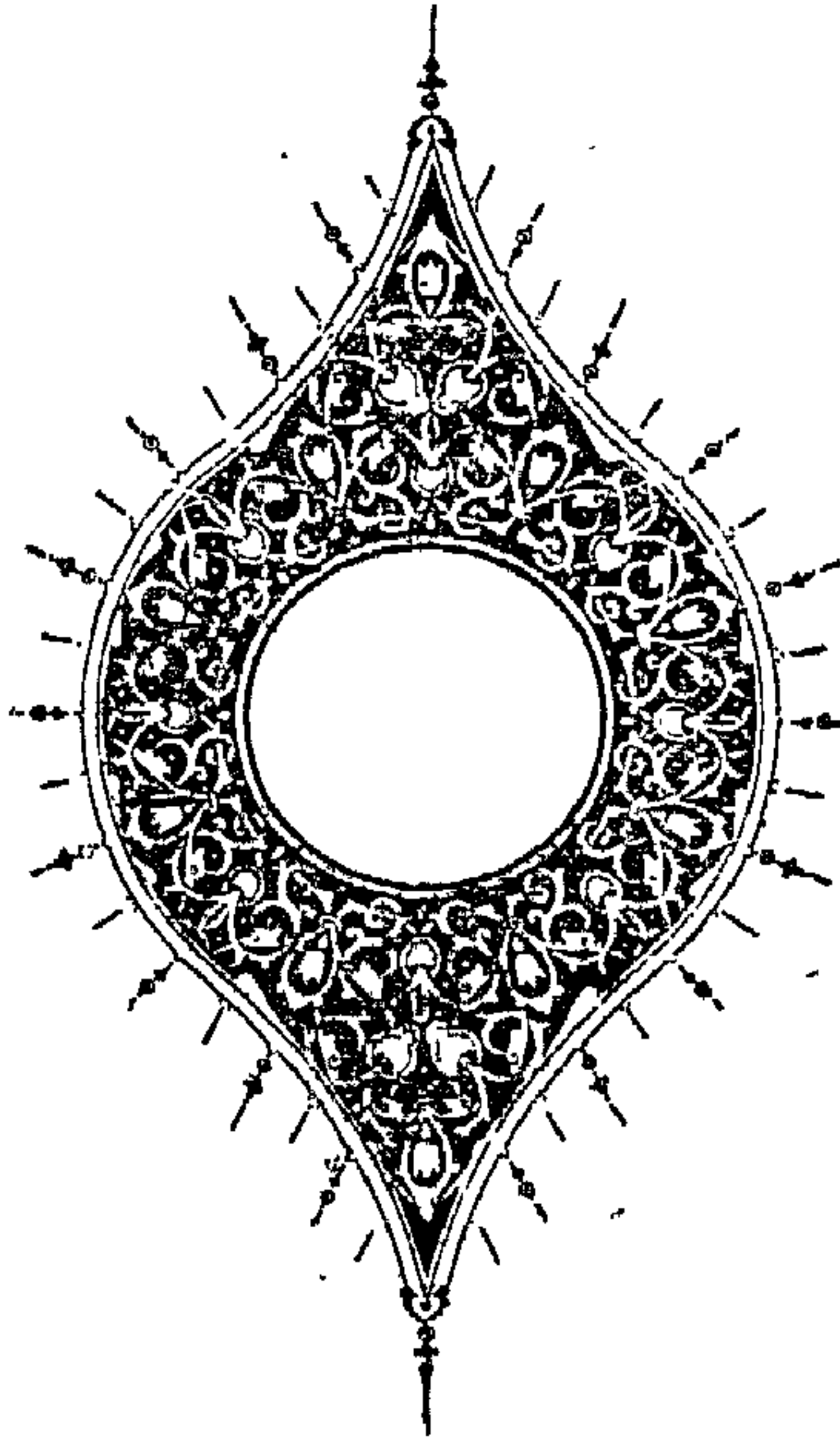
(٣) شعر الجنين كثر شعره ، يريد أن يدبت من اليد ، وهى اسم ذات كشعر من الشعر ، واستحجر من الحجر .

(٤) احتياها : خلوها من أهلها حولا ، وأنها لم يصيبها المطر . يقال : أرض محتالة : إذا لم يصيبها المطر .

فإن قالت : فلم لا تجعل سبا معرفة وتقدر
فيه الانفصال كما تقدر فيها ، فتتصب على
الحال إذا كان مضافاً إلى معرفة ، كقيد الأوابد
وعبر^(١) الهواجر، وضارب زيد ونحوه؟ فإن
هذا التقدير لا يصح في أيادي. ألا ترى أنه
ليس بصفة كما ذكرت من الصفات، فيسوغ
تقدير الانفصال فيه كما جاز في الصفة ؟ .

على النجدي ناصف
عضو المجمع

وحكم الكلمة في قول من أضافه ، فجعل
أيادي مضافاً إلى سبا — أن يكون سبا قد زال
عن تعريفه ، فصارت الكلمة لكثرة استعمالها
جارية مجرى ما ذكرنا من النكرة ، فيكون
بمثلة علم نكّر بعد تعريفه : والوجه
فيها عندي ألا تقدر فيها الإضافة ، ولكن
تجعل اسمين بمنزلة اسم واحد ، مثل حضر
مت فيمن لم يصف وجعل نكرة .



(١) يقال : هو عبر أسنار : أى قوى عليها مطبق لها .

خصائص اللغة العربية في التعبير العلمي

للدكتور عبد الحليم منتصر

وزين ملكة نقلوا روائع أبقرات وفيثاغورس
وأفلاطون وأرسطو وبطليموس وجالينوس
وديسقوريدوس وإقليدس وأ. شميدس وغيرهم
من علماء أثينا والإسكندرية .

وعرفت الأمة العربية طب أبقرات وفلك
بطليموس وهندسة إقليدس وقرأوا مجسطى
بطليموس ، وأصول إقليدس وجامع أوريباسوس
ومئات بل ألوف من كتب أرسطو وجالينوس
وثاؤن وهيرون وغيرهم من رواد العلم
العصرين الإغريقي والإسكندري ووسعت
العربية الجومطريا والاسطرونوميا والميتافيزيقا
والأريثماتيكا والمائماطيقا ومصطلحات التشريح
والهندسة والفلك والطب والرياضيات وما
إليها ، واستمرت الحركة العلمية في النمو والازدهار
وشملت الحواضر العربية كلها من بغداد إلى
دمشق إلى القاهرة إلى مراکش إلى الأندلس
في الجامع المنصور والجامع الأموي والجامع
الأزهرى وجامع القيروان وجامع قرطبة
وفي بيت الحكمة ودار الحكمة ودار العلم فكانت
هذه ، وتلك تؤدي ما تؤديه الجامعات ومعاهد
العلم في الوقت الحاضر وكانت منازل العلماء

أكثر من أحد عشر
قرنا من الزمان وفي
عهد الخليفة المأمون
على التحديد تقاطر



الترجمون على بيت الحكمة في بغداد ، يتقاون
الذخائر العلمية التي تركها الإغريق والفرس
والهنود والسرّيان والقبط وغيرهم إلى اللغة
العربية وشجع الخليفة العالم هذه الحركة العلمية
العارمة ، فكان يولى العلماء عطفه ورعايته كما
فتح لهم خزائن المال ، يغدق عليهم منها ،
استحثاثا منه لهم على نقل هذا التراث إلى
اللغة العربية . وكذلك تم نقل هذا التراث
في الطب والفلسفة والمنطق والأخلاق والسياسة
والفلك والرياضيات والتشريح والنبات والحيوان
وما إليها من علوم لم يكن للعرب بها عهد .

وليس من شك في أن تلك كانت نقطة
بدء رائعة للانطلاق وغدت بغداد مركز
إشعاع علمي حضارى تاهت به على حواضر
ذلك العصر ودانت الحضارة الانسانية لبغداد
المأمون وغدا الخليفة المأمون رمزا للملك العالم
وجمع حوله جمهرة من العلماء علمى بهم بلاطه

وقصور الخلفاء والأمر أعمو المساجد ودور الكتب
تزدان بمجالس العلم والأدب . وامتدت
الامبراطورية العربية الإسلامية من حدود
الصين شرقا إلى حدود فرنسا غربا وأكبر
علماء المسلمين على التأليف بلغة عربية سليمة
[حتى كانت أعمال العالم منهم تعد لا بالآحاد
ولا بالعشرات ولكن بالآلاف ، وتاه هذا
العصر بعشرات ومئات من العلماء العرب
يقرنون إلى أعظم العلماء في كل عصر وآن .
وهاهي ذى تأليفهم ومخطوطاتهم تزدان بها
دور الكتب والمتاحف ، مما يعد بمئات الألوف
مما يحتاج تحقيقه وعرضه إلى جهود عصبة
من أولى العزم من العلماء يعكفون على دراستها
وتحقيقها وعرضها ملخصة ومختصرة . وقد
أنصفنا بعض مؤرخي العلم حين قالوا : إن
الحضارة الانسانية مدينة للعلماء العرب في
كل فروع المعرفة وأنه كان لابد من ظهور
ابن الهيثم والصوفي والبيروني والكندي لكي
يتسنى ظهور جاليليو وكبلر وكوبرنيك ، وأنه
لولا أعمال العلماء العرب لا ضطر علماء النهضة
الأوروبية أن يبدأوا من حيث بدأ هؤلاء ولتأخر
سير المدنية عدة قرون ، وأنه لو لم يعوقنا المغول
والتتار والترك والاستعمار لكانت هذه النهضة
التي تنماخر بها أوروبا تكون من نصيب الأمة
العربية وتكون لغتها هي العربية وتتقدم عليها
في التاريخ عدة قرون .

ولاشك أن القارئ لمؤلفات ابن سينا وابن
الهيثم والبيروني وجابر والخوارزمي والرازي
وابن النفيس والزهرراوى والصوفي وابن يونس

وابن العوام وغيرهم ليتماكة الإعجاب والإكبار
بأسلوبهم العلمى الأخاذ ولغتهم العربية السليمة
التي كتبوا بها في الفلك والرياضات والضوء
والهندسة والجبر والطب والكيمياء . لقد طوعوا
العربية لمصطاحات هذه العلوم الطبيعية المختلفة
حتى قال المنصفون إن ينبوع الأول للعلوم
الطبيعية إنما تفجر في العصر العربى الإسلامى
الذى ازدان بأمثال من ذكرنا .

ولكن الأيام دول كما يقولون ، فضعف أمر
الأمة العربية بعد أن قدمت لأوروبا زادن نهضتها
العلمية عن طريق الأندلس التي سطعت فيها
الحضارة العربية الإسلامية عدة قرون ، وعن
طريق صقلية التي دانت لحكم العرب بضعة
قرون وعن طريق الحروب الصليبية ثم عن
طريق الامبراطورية العثمانية في شرق أوروبا .
وظلت كتب من ذكرنا من العلماء العرب هي
المراجع المعتمدة في جامعات أوروبا طيلة
قرون وأنشئت الجامعات الأوروبية على غرار
جامعة الأزهر العتيدة وترجمت الكتب العربية
إلى اللغة اللاتينية واللغات الأجنبية الأخرى
وسطعت شمس الحضارة العلمية على أوروبا
في حين انحسرت عن الأمة العربية .

وفي أوائل القرن الماضى بدأت
[الاتصالات بين بعض الدول الأوروبية
وبعض البلدان العربية كان هدفها الأول
حربيا استعماريا لم يكتب لها فيها نصر ولم
تتحقق أغراضها منه ، ولكنها تحققت اتصالات

علمية كان من نتائجها نقل العلوم الحديثة إلى البلدان العربية، وإنشاء بعض المدارس وإرسال البعثات العلمية إلى أوروبا. وعاد هؤلاء المبعوثون ليقودوا نهضة علمية حديثة. ومنذ أوائل القرن التاسع عشر أنشئت في مصر مدارس الطب والهندسة والمعلمين وغيرها من مدارس. وشارك علماء من أساتذة هذه المدارس من الأجانب والمصريين في ترجمة الكتب العلمية إلى اللغة العربية، إن في الطب أو الهندسة أو الزراعة أو الصيدلة أو الكيمياء وما إليها من علوم وفنون. وكان الحكام يلزمون طلاب البعثات بنقل هذه العلوم إلى اللغة العربية وأن تكون اللغة العربية لغة التدريس في هذه المعاهد.

وفي أخريات القرن الماضي عاد الاحتلال ينشر ظله الثقيل مرة أخرى، وشيئا فشيئا جعل لغة التدريس هي الأجنبية ولم يكتف بأن يكون ذلك في المعاهد العليا وحدها ولكن عمم ذلك في المدارس الابتدائية والثانوية فاستقر في أذهان الكثيرين أن هذه العلوم مستوردة هي الأخرى من الخارج وأنه لم يكن لنا بها عهد، وتناسى الكثيرون أنها بضاعتنا ترد إلينا، وأن العلماء العرب هم واضعو أسس هذه العلوم وهم مبتكرو كثير من أجهزتها وأدواتها بل ومصطلحاتها أيضا.

ومنذ أوائل القرن العشرين عادت اللغة العربية مكانتها في التدريس في المدارس

الابتدائية والثانوية، كما أنشئت في مصر الجامعة الأهلية وكانت مقصورة على كلية الآداب، كما أنشئت معاهد عليا كبيرة: وفي أواسط عشرينيات هذا القرن أنشئت الجامعة المصرية الأميرية، وكانت تتكون آنذاك من أربع كليات هي الآداب والحقوق والطب والعلوم، وكانت العلوم هي وحدها التي أنشئت إنشاء في ذلك التاريخ ولم تكن متحولة عن معهد أو مدرسة أخرى، وضمت إليها بعد ذلك كليات أخرى: ثم أنشئت في أوائل الأربعينيات جامعة الإسكندرية ثم جامعة عين شمس في سنة ١٩٥٠ وتتابع الجامعات في مصر بعد ذلك في أسبوط وطنطا والمنصورة والزقازيق، كما تتابع إنشاء الجامعات في كثير من البلدان العربية في العراق في بغداد والموصل وفي سوريا وفي دمشق - حلب وفي الأردن وعمان وليبيا وتونس والجزائر والمغرب والكويت والرياض وغيرها، كما أنشئت الجامعات اللغوية في القاهرة وبغداد ودمشق للمحافظة على سلامة اللغة العربية وجعلها مسيرة للنهضة العلمية.

ومن أسف أن اللغة العربية ماتزال وثيدة الخطو لتكون لغة التدريس في الكليات العملية خاصة باستثناء جامعة دمشق:

وقد آمن الكثيرون أن التدريس إنما كان بلغة أجنبية ضرورة مؤقتة لم يكن معدى عنها، وإنهم ليرقبون اليوم الذي يعم

فيه اتخذ العربية لغة العلم : فالعربية لم
تقصر عن اللحاق بركب العلم وإنما قصر
أبنائها .

وطنا كريما يشعر أبنائه ويشرفون
بالانتساب إليه :

وفي أوائل الثلاثينيات صدرت في مصر
مجلة علمية باللغة العربية وفيها دعوة صريحة
لتحقيق هذا الهدف، وكان العدد الأول
يحمل استفتاء بين كبار أعضاء هيئة التدريس
وكلهم يجمع على تحقيق ذلك الهدف ،
وتكونت جماعة أطلقت على نفسها اسم
جماعة أنصار اللغة العربية كان هدفها
تحقيق هذا العلم وتدريب أعضاء هيئة التدريس
والطلاب على معالجة الموضوعات العلمية
بلغة عربية سليمة . يتناولون في محاضراتهم
ومقالاتهم أحدث الموضوعات العلمية من
كيمائية وجيولوجية وطبية وصيدلية ونباتية
وحيوانية ورياضية وهندسية وطبيعية بلغة
عربية لاعجمة فيها . لقد حدث كل ذلك
آنئذ في كلية العلوم بالجامعة المصرية، وكان
للإنجليز في ذلك الوقت سلطان ودولة
لأى السياسة فحسب بل في العلم والتعليم
كذلك ومع ذلك فقد توافر لدى الكثيرين
من أبناء العربية من القوة والشجاعة ما جعلهم
ينادون بتعريب العلم : وإني لأسجد لله
شكرا أن عشت حتى أرى فجر هذا اليوم
يبزع وما أشك في أن ضحاه قريب مادمننا
نحمل هذه القلوب القوية والعزمات الفتية
ومادام أبناء العربية في أرجاء الوطن العربي
يستهدفون وحدته ورقيه وقوته ومنعته ليكون

وهاهم العلماء العرب يتزايد عددهم يوما
بعد يوم يحاولون أن يعيدوا مجد أسلافهم
من أمثال من ذكرنا ، وهاهم أولاء يعقدون
المؤتمرات الطبية والصيدلية والهندسية
والعلمية العربية في كل رجا من أرجاء
الوطن العربي من أقصى شرقه إلى أقصى
غربه تحت راية لغة الضاد - ليعلن عن حيويته
الكامنة وليقود الإنسانية مرة أخرى إلى
رحاب العلم والرفاهية والسلام، وأنه على
ذلك لتقدير ما اتخذ من العلم هاديا وإماما
ومارفع راية الضاد بجعلها من مقومات
ثقافته وحضارته بل وكيانه. ولا مرأ في
أن أولى مراتب الثقافة الرفيعة علم المرء بلغته
وقدرته على التعبير والإبداع العلمى فيها
في كل مرفق من مرافق الحياة .

ولا مرأ في أن مجمع اللغة العربية بالقاهرة
وقد عاصرته زهاء ثلاثين عاما ، قد أدى هذا
المجمع أعظم خدمة لتعريب العلم إذ خصص
جانبا غير يسير من وقته وجهده لترجمة
المصطلحات العلمية إلى اللغة العربية بعد أن جند
لها الخبراء من الأساتذة المتخصصين كان
يجتمع بهم أعضاء المجمع في لجان واجتماعات
تعقد بصفة منتظمة لهذا الغرض ثم يعرض
ما تقرره اللجان على أعضاء المجمع مجتمعين
في صورة مجلس، ثم تعرض مرة أخرى على

هيئة المجمع في صورة مؤتمر حين يعقد المجمع مؤتمره السنوى ليناقدش ويقر ما انجزه المجلس من أعمال طيلة العام ، فكان مرور المصطلح والتعبير العلمى بهذه الخطوات جميعا كفيلا بصقله وحسن صوغه .

وقد أقر مجمع اللغة العربية ألو المصطلحات والتعبيرات العلمية فى مختلف فروع العلم نشر منها حتى الآن خمس عشرة مجموعة تضم بضع عشرات من ألو المصطلحات فضلا عن عدد غير قليل منها يتضمنه المصطلحان اللذان يصدرهما المجمع وهما الوسيط والكبير .

وقد ذهب فريق من المشتغلين بهذه المسألة إلى أنه لا بد من إيجاد جذور عربية للكلمات والمصطلحات المراد ترجمتها والتعبير عنها ، وأنه لا ينبغي أن تدنس العربية بعجمة أو لكنة وإنما تبقى مصفاة مطهرة وقد يبدو هذا الرأى وجيها لولا أن - هناك استحالة فى تنفيذه أو الأخذ به على أية صورة . فالمصطلحات العلمية فى تزايد مستمر بل إنها لتكاثر كما يتكاثر الإنسان والنبات والحيوان ، فيزيد عددها يوما بعد يوم وسنة بعد أخرى حتى أصبح مجرد حصرها مشكلا تعترض الفئتين والمتخصصين - وأضحت دور النشر تخرج علينا بين حين وآخر بمعاجم تتفاوت حجوما وأشكالا وتختلف فى لغاتها وطرائقها ، فمنها ما يصور بلغة واحدة ومنها ما يصور بلغتين ومنها ما يجمع بين ست لغات أو أكثر . فلاحقة هذا التكاثر بلغة عربية أصيلة يبدو ومستحيلا لأسباب ليس أقلها شأننا أن العرب لم تكن

تعرف هذه الموضوعات وأن هذه العلوم جديدة حتى على الغربيين ، وأن الكثير منها إنما رأى النور وعرفته الإنسانية فى مطالع هذا القرن بل وبعد أن تنصف ، فمن أين تأتى الجذور العربية لهذه المستحدثات والمستعدنات والنظريات التى لم يكن للعرب بها علم ؟ إنما نكلف العربية شططا ونكلف أنفسنا جهدا لا طائل تحته إن نحن صممنا على التنقيب فى بطون المعاجم عن أصول عربية للميكروسكوب والترمومتر والالكترن والنيترون والميزون وما إليها مما يعد بعشرات الألوف ، وإذا نحن وجدنا جذرا عربيا لهذه الكلمة أو تلك علينا أن نجد لعشرات الألوف ، فما علينا إلا أن نبحث وندقق فإن أسعفتنا المراجع ببغيتنا ، فيها ونعمت ، وإلا فى التعريب متسع لهذه الألوف المؤلفة من المصطلحات والتعبيرات العلمية فى كل علم وفن . ويسعنا ماوسع الأقدمين من استعمال أريثماتيكا وميتافيزيكا وجو مطريا وأسطرو نوميا وغيرها .

وإذا نحن اتفقنا على الترجمة العربية لكلمة فلعله من الواجب توحيدها وتعميم استعمالها فى الأقطار العربية بل التزام هذا الاستعمال ، وإذا ترجمنا ميكروسكوب فهل نستعمل مجهر بصيغة اسم الفاعل أو مجهر بصيغة اسم الآلة أو نقول مجهر على وزن مفعال ؟

وإذا نحن ترجمنا كلمة ترمومتر فهل نقول ميزان الحرارة أو نستعمل اسم الآلة فنقول محرار على وزن مفعال أو نبقى

على ترمومتر تقريبا؟ فهذا كما نرى أمر
محير تختلف فيه الآراء وتباين فيه الأذواق :

توحيد الترجمة العربية للمصطلحات :

وهناك أوجه خلاف بين الدول العربية
والمتقنين العرب بشأن هذه المصطلحات
فالعراق والأردن ومصر لو أنهم الثقافة
الإنجليزية حينما فتأثروا بها، وسوريا ولبنان
وتونس والجزائر ثقافتها فرنسية فتأثرت
مصطلحاتهم العلمية بالأصول الفرنسية
للكلمات ، فلا بد لنا اذن من الترجمة ثم
توحيد هذه الترجمة: ولنضرب بعض الأمثلة
لهذا التباين في التعبير العلمى في بعض البلاد
فعلم الطبيعة كما نعرفه في مصر يسمى في
سوريا والعراق والأردن ولبنان «فيزياء»
والأولى ترجمة والثانية تعريب ، على أن
التعريب ليس كاملا فالصحيح هو «فيزيقا»
كذلك استعمله العلماء الأقدمون كما استعملوا
أرثما طبقا للحساب ، وماثيا طبقا للرياضيات
وجو مطريا للهندسة، وهكذا، فكلمة فيزياء
لم تلتزم فيها العربية الفصحى ولا التعريب
السليم ولا عيب في كلمة طبيعة الا احتمال
الشبهة مع (nature) التى تترجم بنفس
الكلمة « طبيعة » :

ونحن نقول في مصر كما يقول أهل
العراق بؤرة العدسة، ولكن الأقطار الأخرى
تقول « المحرقة » ونحن في مصر نقول
بندول الساعة تعريبا لكلمة pendulum وفي
العراق يقولون رقاص وفي سوريا « نواس »

وفي الأردن «خطار»، فينبغى أن تختار الدول
العربية ترجمة واحدة للمصطلح الواحد :
أ وفي مصر والعراق تطلق كلمة « طحلب »
لتدل على alga على حين أنهم في سوريا
ولبنان يقولون « أشنة » أما أشنة فنستعملها
في مصر لكلمة lichen، على حين تقول
الأقطار الأخرى طحلب .

وكلمة endosperm عربت في مصر
إلى اندوسبرم وترجمت في بعض البلاد
العربية الأخرى إلى سويداء .

وكلمة ecology ترجمت في مصر إلى
علم البيئة وفي أقطار أخرى إلى « علم المحيط
» وفصيلة Rutaceae ترجمت في مصر
إلى سدبية نسبة إلى اسم النبات الذى اشتق منه
اسم الفصيلة واستعملت الأقطار الأخرى
ليمونية نسبة إلى أشهر نباتاتها :

وكلمة nucellus ترجمت إلى
« جويزة » في البلاد العربية وعربت في مصر
إلى « لويصلة » .

وكلمة micropyle ترجمت إلى نفير
في مصر وفي البلاد العربية العربية إلى
« بويب » :

ونحن في مصر نقول « جرام » تعريبا
لكلمة gram الإفرنجية وغيرنا يقول غرام :
ونقول مغنطيسية تعريبا الكلمة magnetism
فعرينا الخاف بالجيم حينما وبالغين حينما آخر
ونحن نقول ابجروسكوبى وآخرون يقولون
ابغيروسكوبى . . . وهكذا :

وليست الترجمة العربية للمصطلح جامدة أبداً، فما أيسر أن تبين ان هناك ترجمة أو تعبيراً أفضل أن نعدل عن الأول إليه. فلم تكن الترجمة جامدة أبداً، فقد كانت الترجمة تعرض في المقالات والبحوث وللدراسات فيصقلها ويصححها الذوق العام والاستعمال ومن أمثلة ذلك ترجمة المصطلح الذي يدل على درجة تركيز ايون الأيدروجين ويرمز له بالإفرنجية بالرمز pH ، فقد سمي أولاً - الجهد - الأيدروجيني ثم الأس الأيدروجيني ثم عدل أخيراً إلى « الرقم الأيدروجيني » .

وكذلك تلك الظاهرة التي سميت حيناً « ادمصاص » ثم عدل عنها إلى التجمع السطحي، وهاهي ذى يقرها المجمع اللغوي والذوق العام بين المشتغلين بالعلم إلى « امتزاز » ترجمة لكلمة adsorption .

ومصطلح غروى اتخذ ترجمة لكلمة colloid ثم عدل عنها إلى شبه غروى ثم إلى غراوانى .

وكذلك كلمة alkaloid عربت حيناً إلى قلويد ثم ترجمت إلى شبه قلوى ثم إلى « قلوانى » وهكذا .

مصطلحات في علم الطبيعة :

وهناك مصطلحات متقاربة المعنى متفاوتة المدلول لا بد من تعريفها تعريفاً دقيقاً ولا بد من وضع الترجمة الصحيحة لكل مصطلح يتميز بها عن المصطلح الآخر فالممانعة ،

والمعاوقة ، والمقاومة ، قريبة في معناها ولكن مدلولاتها متفاوتة فوضعت :

الممانعة ترجمة ال Reluctance

والمقاومة » ال Resistance

والمعاوقة » ال Impedance

ثم تجاوزه والمهاودة والمسايرة قريبة في معناها ولكن مدلولاتها متفاوتة فوضعت :

التجاوزة ترجمة ال Permittance

المهاودة » ال Susceptance

والمسايرة » ال admittance

ثم المفاعلة ، والمنافذة ، والمواصلة ، والحاجثة قريبة في معناها ولكن مدلولاتها متباينة فوضعت :

المفاعلة ترجمة ال Reactance

والمنافذة » ال Permeance

والمواصلة » ال Conductance

والحاجثة » ال Inductance

ثم ابتكرت صيغ جديدة لم تكن تستعمل كثيراً كالمصدر الصنعاى فنقول :

الممانعية ترجمة ال Reluctivity

وهي مقدار قابلية المادة المغنطيسية لتوصيل الفيض المغنطيسى وهي مقلوب المنفذية

والمنفذية ترجمة ال Permeability

مصطلحات طبية :

وابتكرت صيغ قياسية كثيرة في
المصطلحات الطبية

كأن نقول عصاب ترجمة للمصطلح
Neurosis وهو مرض عصبي وظيفي لا تصحبه
علامات عضوية ومن أنواعه :

- (أ) عصاب القلق anxiety neurosis
- (ب) عصاب أصابي Teumatic neurosis
- (ج) عصاب قلبي Cardiac neurosis
- (د) عصاب كلالي Fatigue neurosis
- (هـ) عصاب متأخر Neurosis tarda
- (و) عصاب انحصارى قسرى
Obsessive compulsive
- (ز) عصاب مهني Occupational neurosis

وكذلك نقول عن المرض الجلدى -جلاد
Dermatosis

- وعن مرض الصدفية، صدف Psoriasis
- ونقول بواغ الشعر Sporotrichosis
- والوزام الدهمى Stratomatosi
- وفطار الشعر Trichomiyris
- وعقاد الشعر Trichonosdis
- والعراق المصن Asmidiosis
- والعراق الفسفورى Phospheriodrosis
- والطعام Cehunosis

وترجم إلى العمه الحسى مصطلح Agnesis
وهو القصور عن تمييز الاشياء وانواعه

- (أ) عمه سمعى Auditory agnosis
- (ب) عمه بصرى Optic agnosis
- (ج) عمه لمسى Tactile agnosis

وهى النسبة بين كثافة الفيض المغنطيسى المنتج
فى وسط ما إلى القوة الممغنطة المنتجة له ،

والمجازية ترجمة ل Permittivity

وهى النسبة بين الإزاحة الكهربائية لوسط ما
إلى القوة الكهربائية المنتجة له

والمقاومية ترجمة ل Resistivity

وتعنى المقاومة الحجمية للمادة ، ويقصد
بذلك مقاومة جرم من تلك المادة طوله
الوحدة ومساحة مقطعه الوحدة تسمى أيضا
المقاومة النوعية

والتأثرية ترجمة ل Susceptibility

وهى النسبة بين شدة التمغنط إلى شدة المجال
المغنطيسى فى الدائرة المغنطيسية

والمفاعلية ترجمة ل Reactivity

والمعاوقية ترجمة ل Impedivity

والموصلية ترجمة ل Conductiunity

وهى خاصية للمادة بفضلها تسمح للتيار الكهربائى
بالمرور خلالها إذا كان هناك فرق جهد وهى
مقلوب المقاومة .

وكذلك تتقارب معانى الانحلال والتدهور
والفساد والتفتت والتخلل وقد ترجمت على
هذا النحو :

انحلال — Degeneration

تدهور — Deterioration

هدم — Destruction

تفتت — Disintegration

تحلل — analysis

فساد — Decay

وترجم إلى العمه الحرثي المصطلح Apratia وهو عدم القدرة على الاتيان بحركة ذات قصد .

وهناك عشرات من الأمثلة لهذه المجاميع من الكلمات أو المصطلحات التي تتقارب في معانيها وتفاوت في دلالتها ومن أسف أن المراجع الأجنبية كثيرا ما تستعمل الكلمة الواحدة لأكثر من معنى ومدلول . فكان على المترجم أن يحتاط كذلك. ومن حسن حظ العربية أنها غنية جدا بالترادفات، وأن فقهها من أغنى لغات الأرض بالمدلولات والألفاظ والأقبيسة، وكانت الطريقة الوحيدة هي جمع هذه الأشياء وتبسيط الأضراء عليها واستنباط المدلولات الحقيقية لها، والغوص في المعاجم لاستخراج الكلمة الملائمة، وتعميم الاستعمال والتزامه .

الوحدات والرموز والثوابت :

وهناك صعوبة الوحدات والمواصفات والمقاييس واستعمال الرموز المناسبة لكل وحدة. وتميزت اللغات الأجنبية بالخطوط المتغيرة فالروماني والإغريقي والإيطالي والخفيف والثقيل والكبير والصغير لكل صورة مما جعلنا نحصل على مئات الصور - للحروف الأجنبية ومن حسن الحظ أن الخط العربي هو أيضا متعدد الصور فهناك النسخ والرقعة والثلاث وما إلى ذلك فنيجد مثلا هذه الصور :

الكاف - ك لك ،

الميم - م م م

النون - ن ن ن ن

السيم - ج ج ج ج ج

السين - س س س س س

القاف - ق ق ق ق ق

الياء - ي ي ي ي ي

الراء - ر ر ر ر ر

فكان علينا أن نؤلف بين هذه الحروف لنجد الرموز الكافية لمئات الوحدات والمقاييس والعناصر. فهناك رموز للثوابت مثل ثابت سرعة الضوء ثابت افوجادرو ، ثابت فراداي ، ثابت شحنة الإلكترونات ، ثابت الجاذبية وثابت لكتلة الإلكترون .

وهناك وحدات المقاييس من طول وعرض وارتفاع ونصف القطر والزاوية والمساحة والحجم .

ووحدات الوقت والزمن والتردد والسرعة وطول الموجة والتسارع والكثافة والعزم والشغل والقوة والوزن والضغط والطاقة والقدرة والكفاءة والشد والثني والانحراف والالتواء والاحتكاك واللزوجة والولاء والتوتر والتيار والمقاومة والحث والسعة والفيض والجهد والمقاومة والممانعة والمجازة والمواصلة والإضاءة .

ثم معاملات الانكسار والانحراف ودرجات الحرارة والتمدد والموصلية والعدد الذري والوزن الذري والتكافؤ والتحلل والتأين :

ثم المتر والمليمتر والسنتيمتر والميكرون
والميلتر والثانية والدقيقة والساعة والسيكل
والكيلو سيكل والجرام والمليجرام والكيلو
جرام .

والسعر والكيلو سعر والواط والفولط
والأمبير والجول والقنديلة والكيلومب
والفولط كولومب والفولط أمبير والهنري
والفاراد والكوري والميكروكوري ، والبوصة
والقدم والياردة والخالون والحبة والأوقية
والباوند والباوندال والحصان : الخ .

هذه أمثلة لوحدات لا تتجاوز المائة وهناك
ثوابت غيرها لا يتسع المقام لذكرها عدا أن
من مائة من العناصر الكيميائية ينبغي أن
يتفق على رموز من حروف عربية لها وقد
قال قوم بالإبقاء على الوحدات والرموز
الأجنبية إلا أن هذا الرأي قد رفض وروى
الزام العربية والمعادلات الكيميائية روى
تعريبها هي الأخرى مادامت الرموز قد عربت
جميعها .

وتبين الصعوبة إذا عرفنا أن القدرة والقطر
وقوة المجال المغنطيسي والقوة الدافعة الكهربائية
والطاقة والدقيقة كل هذا وغيره كثير يرمز
إليه بالحرف ق ولا بد من التمييز بينها فقد
يقع اثنان أو أكثر في معادلة واحدة . كذلك
المساحة والسعة وستوكس وغيرها يرمز لها
بالحرف س . والشدة والشغل والشحنة ومعامل
الانتشار وغيرها يرمز لها بالحرف ش والتردد
والتيار والتورك (عزم الدوران) والوقت

ومعامل الانتقال وثابت سرعة التفاعل يرمز
لها بالحرف ت .

وعدد أفوجا درو والزمن وثابت الدوران
وعدد اللغات وعدد الجزيئات والسعة الحرارية
للجزيء وعدد الانتقال ووحدة نيوتن كل
ذلك يرمز له بالحرف ن .

وهكذا من عشرات الأمثلة التي يرمز
فيها الحرف الواحد لعدد كبير من الأحداث
والثوابت والمعاملات وما إليها من وحدات
ومقاييس عالمية مغيرة ينبغي أن توجد لها
مقابلات بالأحرف العربية فضلاً عن أن
الحرف الواحد قد يرمز إلى أكثر من عنصر
كيميائي واحد فالزئبق والأزوت والزرنيخ
قد يكون رموزها جميعاً فضلاً عن أن حرف
ز نفسه يرمز به لعدد آخر من الوحدات
مثل وحدة إزاحة التيار ومعامل الاسموز
وما أشبه .

لذلك كان لا بد من اختيار صور
مختلفة للحرف الواحد فضلاً عن ضرورة
الجمع بين حرفين أو أكثر منعاً للبس
وكذلك الإبقاء في بعض الحالات على الحروف
الإغريقية كرموز بعض الوحدات العالمية
المعبرة أو الرموز الرياضية حيث بدأ صعباً
أحياناً إيجاد رموز من حروف عربية موحدة
ولا بد أن يمضي بعض الوقت حتى تتكامل
طريقة سوية مبرأة من المأخذ بعد أن يصقلها
ويصححها ويسبغها الرأي العلمي العام
والذوق العام وبعد أن تعيننا المطابع والمسابك

Sub-Family	فصيلة	على إيجاد الصور المطلوبة للحروف وقد
Tribe	قبيلة	جربت صور مختلفة لخطوط النسخ والرقعة
Sub-Tribe	قبيلة	والثلث والفارسي والكوفي بل وحروف
Genus	جنس	التاج التي ابتدعت حيناً ثم عدل عنها .
Sub Genus	جنيس	وعلى الذين يقولون بالإبقاء على الرموز
Species	نوع	والمعادلات والحروف الافرنجية ويضربون
Sub-Species	نوع	أمثلة على ذلك باللغات الأوروبية المختلفة
Variety	ضرب	التي اتفقت على الرموز نفسها في هذه اللغات
Race	سلالة	فاتهم أن الحروف في هذه اللغات جميعاً متشابهة
Strain	عرة	إلى حد كبير، فضلاً عن أنها تكتب جميعاً
Individual	فرد	من اليسار إلى اليمين فإذا فرضناها في كتاباتنا
		وبين سطورنا العربية جاءت نشازا .

وفي علوم الحياة أقر مجمع اللغة العربية قاعدة موحدة للتصنيف كما وضع قواعد لترجمة وتعريب أسماء المواليد والأعيان من نبات وحيوان فأقر حلقات التصنيف الآتية :

Kingdom	عالم
Sub-Kingdom	عويلم
Phylum	شعبة
Sub Phylum	شعبية
Class	طائفة
Sub-Class	طويضة
Order	رتبة
Sub-Order	رتيبة
Family	فصيلة

وقد أزلت هذه الأسماء التي اتفق عليها وأقرها مجمعنا الموقر أزلت حيرة كانت شائعة لدى مؤلفي كتب المواليد، وأصبح اليوم كل اسم عربي يدل اصطلاحياً على حلقة واحدة من حلقات التصنيف على غرار الأسماء الأعجمية المقابلة لها، وأوضح أن أسماء حلقات التصنيف هذه تعد من أسماء المعاني، وأنها تترجمت إلى العربية ولم تكن الصعوبة في الترجمة، ولكن في تخصيص كل حلقة باسم عربي واحد راجح وهذا ما أقره المجمع : وهو قرار خلاق بان يتبع مهما يكن للبعض من آراء أخرى في هذه المسميات وذلك لأن فيه خلاصاً من فوضى تعدد الأسماء لكل حلقة واحدة من حلقات تصنيف المواليد :

وقد أقر المجمع القواعد الآتية في ترجمة وتعريب أسماء المواليد والأعيان :

الأولى: ترجمة الألفاظ العلمية بمعانيها هو المجال الأوسع في حلقات التصنيف العليا وهى الشعب والطوائف والرتب :

الثانية: أسماء القبائل والفصائل النباتية أو الحيوانية تكون عربية أو معربة على حسب اسم النبات أو الحيوان الذى تنسب إليه :

الثالثة: اجناس المواليد التى ليس لها اسماء عربية تعرب اسمائها العلمية اذا - كانت منسوبة إلى الأعلام وترجم بمعانيها إذا أمكن ترجمتها في كلمة عربية واحدة سائغة وإن لم يكن ذلك ممكنا رجع تعريبها .

الرابعة: لا مجال للتعريب في الألفاظ العلمية الدالة على أنواع النبات لأن جميع ألفاظها أو معظمها نعوت أو صفات تترجم ترجمة في جميع اللغات الحية :

الخامسة: يوجد مجال للترجمة أو التعريب جميعا في الألفاظ الدالة على السلالات والأصناف أو الضروب :

السادسة : لا مجال للنحت ولا للتركيب المزجى في تصنيف المواليد ولا حاجة إليهما وفي اللجوء إليهما تشويه للغة العربية :

ومع ذلك فقد رأى المجمع ضرورة الازدواج أى ذكر الأسماء العلمية اللاتينية في الدراسات العليا وفي حالة احتمال أى لبس .

فمثلا لا مجال للتعريب في الفقاريات والأسماك والبرمائيات والزواحف والطيور

والثدييات في رتب الحيوان : كذلك لا مجال للتعريب في غشائية الأجنحة وحرشفيات الأجنحة وذوات الجناحين ونصفيات الأجنحة وما إليها من رتب الحشرات وكذلك للنباتات الزهرية واللازهرية وذوات الفلقتين وذوات الفلقة الواحدة وكاسيات البذور وعاريات البذور وما إليها :

فهذه جميعا ترجمات معقولة مقبولة مستساغة فلا معنى للتعريب هنا مطلقا، وكذلك نقول في الفصائل النباتية النخيلية والنجيلية والزنبقية والرجسية والسحلبية والحبازية ، وكذلك أسماء الأجناس كالقمح والشعير والخردل والقطن والورد وما إليها .

أما النوع ، فينبغى إن دل على صفة بعينها أن نردف الاسم المتفق عليه باللغة العربية بالاسم العلمى كاملا، ويتعين ذلك خاصة في الحالات التى تختلف فيها المسميات. فالبطاطس في مصرهى البطاطا في سوريا والحوخ هو الدراق والكمثرى هى الإجاص . بل إن اللديس والبوط والبردى أسماء مختلفة لنبات واحد، ولكنه يعرف بأسماء مختلفة في الجهات المختلفة ففي كل هذه الحالات وفي مجال البحث العلمى والكتابات العلمية يتعين الازدواج وذكر الاسم العلمى باللغة اللاتينية .

في الجيولوجيا :

وفي المصطلحات الجيولوجية تسعفنا العربية بألفاظ تحدد الفروق الدقيقة بين درجات متفاوتة من النور والظلمة والعمق والضحالة والملوحة والعدوبة والبرى والتفتت والتشق

والانفصال والانفصام وما إلى ذلك، فإذا بها معطاء كأجزل ما يكون العطاء :		وفي باب ما يشبه :	
Colloid	غراواتي	Crystalloid	بلوراني
Metalloid	فلزاني	Saccharoid	سكراني
Spheroid	كرواني	Deltoid	دلتاني
فنجند النور والغسق والدغش والغبق والإظلام كما نجد الضحل والغائر والعميق والسحيق وفي مدى استجابة الصخور ورد الفعل فيها بالنسبة للحركات الأرضية :		وفي موضوع البرى والسحج والتحات والتآكل نقول :	
Joint, jointing	فاصل وتفصيل	Abrasion	البرى أو السحج
Fault, faulting	صدع وتصدع	Erosion	التحات
Fracture, fracturing	شق ، تشقق	Corrosion	التآكل
Thrust, thrusting	دسرة ، ودسر	ونقول	
Cleavage	تفلق	Stalagmites	صواعد
Slipping	إنزلاق	وهي أعمدة من كربونات الكالسيوم ترسبت في أرضية الكهف بسبب بخار الماء متجهة إلى أعلى :	
Sliding	تزحلق	Stalactites	وهوابط
Creeping	زحف	وهي أعمدة من كربونات الكالسيوم مدلاة من سقف الكهف بسبب بخار الماء متجهة إلى أسفل، وهي صيغ عربية سليمة ما أظن أن الأقدمين قد استعملوها :	
وفي باب الطي		وفي مراتب ومراحل الزمن الجيولوجي نقول ؛	
Fold, folding	طية وطي	الدهر والحين والحقب والعصر والبرهة واللحظة	
Pliating	ثنية وثني		
Corrugation	تعرج		
Dome, doming	قبة ، تقبب		
وفي درجات ملوحة الماء نقول ،			
Fresh water	ماء عذب		
Brackish water	ماء مسوس		
Saline	ماء ملح		
Hypersaline water	ماء زعاق		
Brine	ماء أجاج		

١ - الدهر Eon

أطول مرحلة من مراحل الزمن الجيولوجي لا يقل مداها عن عدة مئات قد تصل إلى ألف أو أكثر من ملايين السنين .

٢ - الحين Era

أطول مراحل العصر في الزمن الجيولوجي ويقاس مداها ببضعة ملايين من السنين (لا يتجاوز العشرة عادة)، ويتميز كل حين من الأحيان الجيولوجية بفصائل أجناس حيوانية ونباتية مميزة يبيد معظمها مع نهايته .

٣ - الحقب Period

المدة من الزمن ترسبت أثناءها صخور المجموعة ، وتقدر بمئات الملايين من السنين

٤ - العصر Age

أطول مرحلة من مراحل الحقب ويقاس مداها بعدد قليل من عشرات الملايين من السنين . ويتميز كل حقب برتب وفصائل حيوانية ونباتية تنقرض أغلبها أو تقل أهميتها الجيولوجية مع نهاية الحقب .

٥ - البرهة Hemera

مرحلة من الزمن الجيولوجي يقاس مداها بمئات الآلاف من السنين ويندر أن يباغ مداها أكثر من مليون سنة . وهي أطول مرحلة ينقسم إليها حين من الأحيان الجيولوجية ويتميز بازدهار نوع معين أو عدة أنواع معينة من الحيوانات أو النباتات تنقرض أو تقل في الأهمية الجيولوجية كثيرا مع نهايتها .

٦ - اللحظة Moment

أقصر مراحل الزمن الجيولوجي وأصغر وحداته ولا يتجاوز مداها بضع عشرات من آلاف السنين، ويتميز بسيادة نوع معين من الكائنات خلالها أو بمرحلة معينة من تاريخ هذا النوع .

ولم تسمح وسائل تقسيم الأحقاب إلى عصور إلا في الأحقاب الثلاثة الأخيرة فقط التي تتبع دهر الحياة الظاهرة .

جهود مجمع اللغة العربية :

وإذا نحن عرضنا للهيئات التي كان لها الفضل في هذه الحركة المباركة من تطويع اللغة العربية للاستعمال في التعبيرات والمصطلحات العلمية فإننا لنضع على رأسها مجمع اللغة العربية . فهو الذي يسر الأمر بجهود أعضائه وخبرائه من أساتذة الجامعات المتخصصين، فهم جميعا قوم عاكفون على صون اللغة وسلامتها وهي الضمان الوحيد للتفاهم الصحيح بين قطان الوطن العربي إذ أن العامية واللهجات المختلفة لا يستقيم بها تخاطب ولا تفاهم وإنما يكون ذلك باللغة العربية السليمة التي يحافظ عليها وينمى بها مجمع اللغة العربية بأعضائه ولجانه وخبرائه، وكانت حصيلة جهوده في هذا المجال خمس عشرة مجموعة تضم عشرات الألوف من المصطلحات في العاوم المختلفة .

المجمع المصرى للثقافة العالمية :

وأذكر بالتقدير المجمع المصرى للثقافة العلمية وقد عاصرته منذ إنشائه منذ نيف

وأربعين عاما لا أذكر أني تخلفت عن محاضرة من محاضراته أو مؤتمر من مؤتمراته الا لعذر قاهر طارئ، لقد جعل من أهم أغراضه تعريب العلم ونشر الثقافة العلمية باللغة العربية، وقد حقق هذا الغرض كاملا بما نشر وأذاع من كتب ومحاضرات، وبما ترجم وعرب وناقش من موضوعات هي من صميم الموضوعات العلمية نشرها على الناس بلغة عربية سليمة. لقد استحق أعضاؤه ومؤسسه كل تقدير أن أسهموا بأوفى نصيب في خدمة اللغة العربية وتطويعها للتعبير العلمي .

ولا ننسى المؤتمرات العلمية العربية التي نظمها الاتحاد العلمي العربي والمؤتمرات العلمية العربية والمؤتمرات الطبية العربية التي عقدت في العواصم العربية منذ عشرين عاما فقد عقد المؤتمر الأول في الإسكندرية سنة ٥٣هـ وكان الثاني في القاهرة سنة ٥٥ والثالث في بيروت سنة ٥٧ والرابع في القاهرة سنة ٦١ والخامس في بغداد سنة ٦٦ والسادس في دمشق سنة ٦٩ والسابع في القاهرة سنة ١٩٧٣. لقد عرضت من بين ما عرضت لموضوعات المصطلحات وأوصت من بين ما أوصت بضرورة الإسراع في وضع معجم علمي عربي موحد أعد له نحو مائة ألف مصطلح روجعت جزازات نحو ثلثها ومن أسف أن توقف العمل فيه، وكان ذلك في كنف وزارة البحث العلمي ثم أكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا .

وكذلك عقدت مؤتمرات طبية عربية كثيرة كونت هيئة لترجمة المصطلحات كانت نواة لتأليف لجنة المصطلحات الطبية بمجمع اللغة العربية .

وينبغي أن نذكر بالشكر جهود أخرى بذلتها جامعة الدول العربية حين جمعت الإدارة الثقافية بها - جمعت المصطلحات العلمية التي تستعمل في المدارس الثانوية وعمات على توحيد ترجمتها في الأقطار العربية، فجمعت مئات المصطلحات مما يستعمل في الرياضيات والكيمياء والطبيعة والنبات والحيوان وعرضتها على المختصين في البلاد العربية، وقد أقرت الترجمة العربية الموحدة في المؤتمرات العلمية .

خير أجنبي :

ولعلنا أن نذكر في هذا الصدد جهود خير أجنبي هو السيد « جيبالت » الذي استقدم بمعرفة اليونسكو إبان انعقاد المؤتمر العلمي العربي الثاني سنة ١٩٥٥ وأهضى بمصر ستة أشهر عكف فيها على جمع نحو ألف وأربعمئة مصطلح في علم الطبيعة جميعها وتعريفها من المعاجم المعيرة وفرقها في جذاذات وزعت على المختصين لترجمتها ثم جمعت في كتاب يقع في جزأين عرضت بعد ذلك في المؤتمر العلمي العربي الثالث في بيروت، وقد أشار الخبير بمعالجة المصطلحات خلة حسب الموضوعات لا فرادى حسب الترتيب الأبجدي، كما أشار بإنشاء مكتب خاص للمصطلحات وباستعمال النظام العشري العالمي في تنسيقها وتبويبها .

مكتب تنسيق التعريب :

وها هو ذا مكتب التعريب يقوم بدوره في هذا المجال وقد أخرج حتى الآن عددا من المجموعات التي تضم ألوف المصطلحات

ولعلنا أن نذكر كذلك عددا من المعاجم كان لها أثرها في تذليل الصعاب مثل معجم شرف للمصطلحات الطبية والعلمية ومعجم المعلوف للحيوان ومعجم عيسى للنبات ومعجم الألفاظ الزراعية للأمير مصطفى الشهابي ثم معجم المصطلحات الفنية الذي يضم نحواً من خمسة وثلاثين ألف مصطلح في العلوم الميكانيكية والهندسة والرياضة والطيران والبحرية وما إليها :

وهناك المعجم العسكري الموحد الذي أشرفت على إصداره جامعة الدول العربية ويضم نحو ثمانين ألف مصطلح .

ولعله قد آن الأوان لتنسيق هذه الجهود جميعاً والعمل على إصدار معجم علمي عربي موحد، وهو ما أوصت به المؤتمرات العلمية العربية المختلفة، وكذلك العمل على إصدار دورية علمية عربية تكون مدرسة لكبار المتخصصين لنشر الثقافة العلمية الرفيعة والموضوعات العلمية المتخصصة الدقيقة :

خاتمة :

وخلاصة القول أن اللغة العربية قد أثبتت قدرتها على التعبير العلمي وعلى نقل المصطلحات العلمية الدقيقة إليها، وأنها قادرة على ملاحقة

التقدم العلمي في مختلف مجالاته، لولا هذا التعويق الذي يأتي عن طريق نفر من أبنائها لا يصبرون على لأوائها، يستسهلون استعمال اللغات الأجنبية فيظن شبابنا أن هذه العلوم مستوردة من الخارج مع أنها بضاعتنا ترد إلينا، ومع أننا نحن العرب أهل أصالة وأثالة فيها :

ومن الحق أن نقول إن التعليم في كل بلاد العالم باللغات القومية لتلك البلاد ، فيما عدا قلة ضئيلة تلك التي تعددت فيها اللغات الإقليمية أو التي خضعت للاستعمار الأجنبي ردحا طويلا ، فاضطرت لاتخاذ لغة المستعمر لغة رسمية وتعليمية لها .

ونحن في وطننا العربي لانستطيع أن نحقق ديمقراطية التعليم ما لم يكن باللغة القومية، ولست أدري إذا لم تكن العربية هي لغة التدريس في الجامعات العربية، فلماذا يتعين أن تكون الإنجليزية أو الفرنسية إن استعمال اللغة العربية في التعليم الجامعي إنما هو وسيلة أكيدة للابداع العلمي وربط الجامعة بالمجتمع ورفع المستوى الثقافي والعلمي للأمة العربية ومنع الانفصال بين التفكير والتعبير . ولا مراء في أن الدعوة إلى بناء المجتمع العربي تبقى ناقصة إذا أغفلت التركيز على اللغة العربية باعتبارها المقوم الرئيسي للوجود العربي. وليس معنى اتخاذ العربية لغة للتدريس في الجامعات والمعاهد عدم العناية باللغات الأجنبية بل على النقيض ان ذلك ادعى لمضاعفة الجهد في سبيل تقوية الطلاب في اللغات الأجنبية

وذلك لتابعة الاطلاع على المنجزات العلمية بلغاتها الأصلية .

وإذا كان قد غدا من العسير ملاحقة التقدم العلمى الهائل حيث ينشر أكثر من مليونين من البحوث العلمية المبتكرة سنويا في أربعين لغة، فلا أقل من ملاحقة ما ينشر باللغات الأجنبية الأكثر شيوعا كالإنجليزية والفرنسية والروسية والألمانية إلى جانب ألوف الكتب العلمية التى تنشر بهذه اللغات وإنما يكون ذلك بتقليد مفعله الرشيد والمأمون من إنشاء ديوان للترجمة فى بيت الحكمة فى العصر الذهبى للحركة العلمية [فى العصر الإسلامى :

والآن وقد ثبتت قدرة اللغة العربية على التعبير العلمى، فحبذا أن يوصى مؤتمرا بالآتى :

١- أن تكون العربية لغة التدريس فى جميع الجامعات والمعاهد العربية .

٢- الإسراع فى إصدار معجم علمى عربى موحد .

٣- إنشاء ديوان للترجمة تحشد له أرقى الكفايات العلمية لنقل البحوث والكتب العلمية إلى اللغة العربية .

٤- تأكيد العناية بتدريس اللغة العربية واللغات الأجنبية فى المدارس والجامعات والمعاهد .

وبعد ، فإنه مما يشرف جيلنا أن ننقذ عن العربية تهمة الحمود والقصور، وأن نجعلها لغة العلم كما فعل أسلافنا فى الزمن الماضى ، حين جعلوا منها لغة للنشر العلمى العالمى، وعنها نقل أهل أوربا علوم العرب وفنونهم . . ولولا هذه الإغفاء التى طالت بضعة قرون لكان الحال غير الحال ، ولاستمر قصيب السبق فى أيدينا ، ندل به على من نشاء ، وهانحن ننضوئوب الحمول ونركض نحو المجد وثبا نريد أن نستعيد مجد السلف وأن نلحق بالركب ونشارك فى بناء صرح المدنية والحضارة ونحن الألى أسسنا بناءه وأقمنا دعائمه فى سالف الأزمان ونمد نهر المعرفة برافد من أعذب روافده وأغزرها مادة وأسلسها أسلوبا وأفصحها بيانا ، إنها معرفة علمية صيغت بلغة الضاد يقرؤها مائة مليون من الأنفس هم قطان الوطن العربى نريد لهم وحدة قوية عزيزة ، محاطة بسياج من العلم ، سداها العلم ولحمتها العلم ولغتها العربية الفصحى والله ولى التوفيق والسلام ، ، ،

عبد الحليم منتصر
عضو الجمع

معنى (كاد)

في الإثبات والنفي

للدكتور أحمد الحوفي



الفعل (كاد)

مشتقاً من تارة

ومنفياً تارة^١ ، فمادة معناه في الحالين ؟
أولاً نتعجل الجواب ، بل نستأنس
أولاً بآراء النحاة ، ثم نعتمد على القرآن
الكريم وعلى الشعر القديم في تعرف
الدلالة الحقيقية للفعل كاد في الإثبات
وفي النفي .

أولاً (في النحو) :

١- قال جمهور النحاة إن كاد
وكرب وأوشك وضعت للدلالة على قرب
الخبر ، وإن كان قربه لا يستلزم
وقوعه ، بل قد يستحيل وقوعه كما في
قوله تعالى : « يكاد زيتها يضيء ولو لم
تمسه نار » .

فإذا قال قائل : كاد زيد يبكي ،
فمعناه قارب زيد البكاء ، أي أن مقاربة
البكاء ثابتة ، ولكن البكاء نفسه منتف .

وقد عبّر الفراء والأزهري عن هذا
بأن إثبات كاد نفي ، أي نفي لوقوع
الخبر ، لأنك إذا قلت : كدت أبلغ
إليك ، فمعناه أنك قاربت البلوغ
ولم تبلغ .

٢- أما كاد المنفية تحو قولنا :
لم يكد الثمر ينضج ، فمعناه عند
الجمهور أنه لم يقارب النضج ، أي أن
المقاربة منفية ، والنضج نفسه منتف
انتفاءً أبعد من قولنا : كاد الثمر
ينضج ، وبهذا فسر الأخفش قوله
تعالى : « إذا أخرج يده لم يكد يراها »
بأنه لا يراها .

على حين أن الفراء والأزهري يذهبان إلى
أن نفيها إثبات ، فإذا قلت : ما كدت
أبلغ إليك ، فمعناه أنك قد بلغت^(١) .

(١) شرح الأشموني ١/ ٩١-١٠٣ وشرح ابن يعيش ٧/ ١٢٤ ولسان العرب مادة "كيد" .

ثانيا (كاد في الاثبات) :

(١) في القرآن الكريم

١- قال تعالى : « ولما رجع موسى إلى قومه غضبانَ أسفاً قال : بئس ما خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي ، أَعْجَلْتُمُ أَمْرَ رَبِّكُمْ ؟ وَأَلْقَى الْأَلْوَحَ ، وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ، قَالَ : ابْنَ لِمَ إِنْ الْقَوْمَ اسْتَضَعَفُونِي ، وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي ، فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ ، وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ^(١) » .

[فما معنى كاد هنا ؟]

المعنى أنني لم آل جهداً في معارضتهم ووعظهم وإنذارهم ، لكنهم غلبوني على أمري ، ولم يبق إلا أن يقتلوني ، وقد قاربوا ذلك .

٢- وقال سبحانه : « لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ، ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ^(٢) » .

فقد كان المسلمون في غزوة تبوك في ضيق شديد ، لأن رواحلهم قليلة ،

وأزوادهم ضئيلة ، وكان مأوئهم نَزْراً ، حتى إنهم نحروا الإبل واعتصروا فروشها ، وكان الحر شديداً ، ولهذا كادت قلوب بعضهم تنصرف عن ثباتها على الإيمان ، أو تنصرف عن اتباع رسول الله في الخروج معه في تلك الغزوة .

ومعنى هذا أن قلوب هذا الفريق لم تنزع ، بل قاربت أن تزيع .

٣- وقال تعالى : « وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ، وَإِذَا لَا تَأْخُذُكَ خَلِيلًا . وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً ^(٣) » .

وذلك أن ثقيفاً أو قريشياً عرضوا على النبي صلى الله عليه وسلم أن يسلموا لكنهم اشترطوا شروطاً ، ولولا أن الله تعالى ثَبَّتَ النبي وعصمه لقارب أن يميل إلى الرضا بشروطهم ، لشدة رغبته في إسلامهم .

٤- وقال سبحانه : « وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا ، تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ ، وَتَنْشَقُّ ^(٤) » .

(٢) سورة التوبة ١١٧

(١) سورة الأعراف ١٥٠

(٣) سورة الإسراء ٧٣-٧٤

الأرضُ ، وتَخِرُّ الجبالُ هُدًا ، أَنْ دَعَوْا
للرحمن ولدا « (١) .

أى أن نسبتهم ولدا إلى الله تعالى كلمة
شنيعة فظيعة ينكرها العقل السليم ،
وتبرأ منها الجمادات ، وتوشك أن
تنفطر وتنشق وتخر من هول هذه
الفرية وبطلانها .

٥- وقال تعالى : « الله نورُ السماوات
والأرض ، مثلُ نوره كمشكاة فيها
مصباح ، المصباح في زجاجة ، الزجاجَةُ
كأنها كوكبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ من شجرةٍ
مباركةٍ زيتونيةٍ لا شرقيةٍ ولا غربيةٍ
يكاد زيتها يضيء ، ولو لم تمسسه نار ،
نورٌ على نور ، يَهْدِي اللهُ لنوره من يشاء ،
وَيَضْرِبُ اللهُ الأمثالَ للناس ، والله بكل
شئ عليم » (٢) .

أى أن الزيت بسبب صفائه وبريقه
ولعانه يقارب أن يضيء من غير نار .

٦- وقال سبحانه : « ألم تر أن
الله يُزجى سحابا ، ثم يُؤلّفُ بينه ،
ثم يجعله ركاماً ، فترى الودقَ يخرج
من خلاله ، ويُنزلُ من السماء من جبال

فيها من بردٍ ، فيصيب به من يشاء ،
ويصرفه عن من يشاء ، يكاد سنا
برقه يذهبُ بالابصار » (٣) .

ومعنى هذا أن ضوء البرق يقرب من
أن يخطف الأبصار ، ولا يخطفها .

٧- وقال تعالى : « وإذا رأوك إن
يتخذونك إلا هُزواً . أهذا الذى بعثَ
اللهُ رسولا ؟ إن كاد ليضلُّنا عن آلهتنا
لولا أن صبرنا عليها ، وسوف يعلمون
حين يرون العذابَ مَنْ أَضَلُّ سبيلاً » (٤) .

ويتبين من الآية أن النبي عليه الصلاة
والسلام بذل أقصى جهده في دعوتهم إلى
الإسلام ، مع عرض المعجزات عليهم
حتى شارفوا أن يتركوا دينهم ويسلموا ،
لولا فرط لجاجهم واستمسكهم بعبادة
آلهتهم .

٨- وقال سبحانه : « وأصبح فؤادُ
أم موسى فارغاً ، إن كادت لتبدي به ،
لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من
المؤمنين » (٥) .

(٣) سورة النور ٤٣

(٢) سورة النور ٣٥

(٥) سورة القصص ١٠

(١) سورة مريم ٨٨-٩١

(٤) سورة الفرقان ٤١-٤٢

أى أن أم موسى لما سمعت بوقوع موسى في يد فرعون طار صوابها من شدة الجزع حتى قاربت أن تجهر بأن موسى ابنها ، لولا أن الله تعالى ألهمها الصبر لتكتم الخبر ، ولتكون من المصدقين بوعد الله لها في قوله « إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين » .

أو أنها حينما سمعت أن فرعون عطف عليه وتبناه كادت من شدة فرحها تبوح بأنه ابنها ، لولا أن الله ثبتها وألهمها الصبر .

(٢) في الشعر :

١ - قال أبو صخر الهذلي :

تكاد يدي تَنَدَى إذا ما لمستها
وينبت في أطرافها الورق النَّضْرُ (١)
فهو يصور معادته إذا لمستها يده
بهذه الصورة ، وهي أن يده تقرب من الإبراق الجميل .

٢ - وقال قيس بن ذريح :

وعذبه الهوى حتى براه
كَبْرِي الْقَيْنِ بالسَّفَنِ القِداحا
وكاد يذيقه جُرْعَ المنايا
ولو سَقَّاه ذلك لا ستراحا (٢)

أى أن الحب هزله وقارب أن يسقيه الجرع الموت ، وهو لم يسقه إياها ، لأنه لو شربها لاستراح ، وما قال ولو سقاه ذلك لاستراح .

٣ - وقال رجل من بني جعدة :

إذا دعا باسمها داعٍ لِيَحْزُنُنِي
كادت له شُعْبَةٌ من مهجتي تَقَعُ (٣)
أى أوشكت وقربت أن تقع .

٤ - وقال رجل من قيس :

وفيهن من بُخَّت النساء رِبْحَلَةً
تكاد على غُرِّ النساء تَرُوقُ (٤)

فهى في نظره لم تفق النساء الحسان ، بل قاربت أن تفوقهن ، وهو بهذا التعبير صادق ، لأنه يعلم أنها لم تفق النسوة الحسان جميعا .

ثالثا (كاد في النفي) :

(١) في القرآن الكريم

١ - قال تعالى : « قالوا الآن جئت

بالحق . فذبوها ، وما كادوا يفعلون » (٥) :

أى أن قوم موسى تباطأوا في ذبح البقرة ، وتلكأوا ، وأطالوا في أسئلتهم

(١) الأما ١/ ١٤٩

(٢) الأما ١/ ١٦٢ القين : الحداد . السفن جلد أو حجر ينحت به الشيء ويسحج القدح .

(٣) الأما ٢/ ٢٧٣ . (٤) الأما ١/ ١١٨ بخت وريحلة : المراد ضخمة ممتلئة . (٥) سورة البقرة ٧١

عن صفاتها ، وهم يقصدون التهرب من ذبحها ، حتى إن حالتهم كانت تدل على أنهم لم يقاربوا الاستجابة والطاعة ، ثم بعد هذا كله اضطروا إلى ذبحها .
ففي الآية الكريمة معنيان ، لكل منهما حاله وزمانه .

وأغلب الظن أن الذين ذهبوا إلى أن نفي كاد إثبات فهموا أن قوله تعالى « فذبحوها وما كادوا يفعلون » تصوير لحالة واحدة في زمان واحد ، أي أنهم ذبحوا البقرة فعلا ولكن بعسر ومشقة .

والحق أن الإثبات لم يفهم من قوله تعالى « وما كادوا يفعلون » بل فهم من قوله سبحانه « فذبحوها » فالنفي الداخِل على الفعل كاد ما زال نفيا ، ويحسن أن استأنس هنا بما قاله الطبري والزمخشري .

أما الطبري فإنه قال : وما كادوا يفعلون ، أي أنهم كادوا لا يفعلون ، لأنهم لم يكادوا يفعلون ما أمرهم الله به من ذبح البقرة ، لغلاء ثمنها ،

ولخوف الفضيحة على أنفسهم حينما يظهر قاتل القتل الذي اختصموا فيه^(١)

وأما الزمخشري فقال : وما كادوا يفعلون ، استثقال لاستقصائهم واستبطاء لهم ، وأنهم لتطويلهم المفرط وكثرة استكشافهم ما كادوا يذبحونها ، وما كادت تنتهي أسئلتهم ، وما كاد ينقطع خيط إسهابهم فيها وتعمقهم^(٢) .
٢ - وقال تعالى : « قل كل من عند الله ، فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا^(٣) » .

وذلك أنهم زعموا أن ما أصابهم من خير ونعمة منسوب إلى الله ، وما أصابهم من قحط وشر منسوب إلى رسول الله ، وهم مبطلون في زعمهم ، لأن الله تعالى هو الفعال ، وهو الذي يبسط الأرزاق ويقبضها ، فما بالهم لا يقاربون أن يفهموا فيعلموا هذه الحقيقة ؟ وليس المراد أنهم فهموها بعسر .

٣ - وقال سبحانه : « واستفتحوا ونخاب كل جبار عنيد ، من وراءه

(١) تفسير الطبري ١/ ٢٨١

(٢) سورة النساء ٧٨

(٣) تفسير الزمخشري ١/ ٧٥

جَهَنَّمَ ، وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ ، يَتَجَرَّعُهُ
وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ ، وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ
كُلِّ مَكَانٍ ، وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ، وَمِنْ وَرَائِهِ
عَذَابٌ غَلِيظٌ^(١) .

أَيُّ أَنَّهُ يَتَجَرَّعُ الصَّدِيدَ وَلَا يَقَارِبُ
أَنْ يُسِيغَهُ ، فَكَيْفَ تَكُونُ إِسَاغَتُهُ إِذَنْ ؟
وَيَفْهَمُ مِنَ الْآيَةِ أَنَّ الْإِسَاغَةَ لَمْ تَقَعْ
مَهْمَا يَكُنْ عَسَرَهَا .

٤ - وَقَالَ تَعَالَى : « حَتَّى إِذَا بَلَغَ
السَّيِّئُ وَجْدَ مَنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ
يَفْقَهُونَ قَوْلًا^(٢) » .

أَيُّ أَنَّ ذَا الْقَرْنَيْنِ لَمَّا بَلَغَ مَا بَيْنَ
السَّيِّئِ وَجْدَ مَنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَقَارِبُونَ
أَنْ يَفْهَمُوا الْكَلَامَ ، وَلِهَذَا يَتِمُّ التَّفَاهُمُ
مَعَهُمْ بِالْإِشَارَةِ وَنَحْوِهَا ، فَهُمْ مِثْلُ
الْبَكَمِ ، لِأَنَّ لُغَتَهُمْ غَرِيبَةٌ عَلَى ذِي
الْقَرْنَيْنِ ، وَلِأَنَّ لُغَتَهُ مَجْهُولَةٌ لَهُمْ .

٥ - وَقَالَ سُبْحَانَهُ : « وَالَّذِينَ كَفَرُوا
أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بَقِيْعَةٍ ، يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ
مَاءً ، حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ،
وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ، وَاللَّهُ

سَرِيعُ الْحِسَابِ ، أَوْ كظلمات في بحر
لجج يغشاه موج من فوقه موج من
فوقه سحب . ظلمات بَعْضُهَا فَوْقَ
بَعْضٍ ، إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكُنْ يَرَاهَا ،
وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ^(٣) .

فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ وَصَفَ لظلمات
متراكمة ، إِذَا أَحَاطَتْ بِإِنْسَانٍ وَأَخْرَجَ
فِيهَا يَدَهُ لَمْ يَقَارِبْ أَنْ يَرَاهَا .

وَهَذَا هُوَ الَّذِي يَتَنَاسَبُ وَالظُّلُمَاتِ
الْمُوصَوِّفَةِ ، وَهُوَ أَبْعَدُ فِي نَفْيِ الرُّؤْيَةِ ،
لِأَنَّ الَّذِي لَا يَرَى قَدْ يَقَارِبُ أَنْ يَرَى ،
أَوْ يَرَى رُؤْيَةً ضَعِيفَةً ، وَلَكِنْ الَّذِي
لَا يَقَارِبُ أَنْ يَرَى لَا يَرَى شَيْئًا مَا ،
وَهَذَا هُوَ الْمُرَادُ مِنَ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ، وَيَعَزِّزُهُ
تَشْبِيهُهُ أَعْمَالِ الْكَافِرِ بِالسَّرَابِ ، فَإِنَّ
السَّرَابَ لَا حَقِيقَةَ لَهُ ، ثُمَّ شَبِّهَتْ أَعْمَالَهُمْ
بِالظُّلُمَاتِ الْمُتْرَاكِمَةِ الَّتِي لَا تَهْدِي إِلَى
شَيْءٍ وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُرَى فِيهَا شَيْءٌ .

٦ - وَقَالَ سُبْحَانَهُ عَلَى لِسَانِ فِرْعَوْنَ :
« أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ ،
وَلَا يَكَادُ يُبِينُ^(٤) » .

(٢) سورة الكهف ٩٣

(٤) سورة الزخرف ٥٢

(١) سورة إبراهيم ١٥-١٧

(٣) سورة النور ٣٩-٤٠

فقد زعم فرعون لقومه أنه خير من
موسى عليه السلام ، ووصفه بالضعف
والحقارة وبالعجز عن الإبانة .

(٢) في الشعر :

١ - قال ذو الرمة :

إذا غيّر النّأى المحبين لم يكّد
رئيس الهوى من حب مية يبرح^(١)

يريد أنه إذا أضعف الفراق الحب
في قلوب المحبين فإن حبى لم يقارب
الضعف والتغير .

[وهذا أدل على ثبات حبه من أن يقول
لم يبرح حبها قلبى ، فقد يكون حبها
باقيا فى قلبه وهو ضعيف أو قريب
من الزوال ، ولا يطاوعنا الأسلوب إذا
أردنا أن نفهم البيت على أن الننى
إثبات ، لأن المعنى يصير حينئذ إذا
تغير المحبون جميعا تغيرت ، وهذا غير
ما قصده الشاعر .

(١) رئيس الهوى : ثابتة .

(٢) الأمل ١ / ١٦١

(٤) المفصليات ١ / ٨٩

٢ - وقال قيس بن ذريح أو قيس
المجنون :

وما كاد قلبى بعد أيام جاوزت
إلى بأجراع الثدى يريع^(٢)

أى أن عقله بعد رحيل محبوبته
لم يقارب العودة إليه ، وليس المراد
أنه عاد ، لأن عودته مهما تكن عسيرة
لا تتفق والصورة الغزلية التى يقصدها .

٣ - وقرأ أبو على القالى على أبى بكر
بن دريد :

وقد لان أيام اللوى ثم لم يكّد
من العيش شئ بعدهن يلين^(٣)

فهو يصف الحياة فى أيام اللوى
باللين ، ويصفها بعد أيام اللوى بالقسوة
والجفاف وبأنها لم تقارب اللين ،
ولا يريد أنها لانت مهما يكن لينها
ضعيفا ، وهذا هو الذى يلائم ضيقه
بالحياة بعد أيام اللوى .

٤ - وقال المرار بن منقذ :

وإذا تمشى إلى جاراتها
لم تكّد تبلى حتى تنبهز^(٤)

(٢) الأمل ١ / ١٣٦

أى أنها ذات جسد ممتلئ ، وذات
نعيم ، فإذا مشيت من دارها إلى دارجارتها
تلاحق نفسها سريعا ، وأدركها الإعياء
قبل أن تصل .

رابعا (النتائج) :

تبين من الآيات القرآنية الكريمة
ومن النصوص الشعرية ما يأتى :

١- (كاد) فعل يدل فى حالة
الإثبات على مقارنة الخبر ، ولا يدل
على وقوعه فى أية صورة من الصور .

٢- أما (كاد) الفعل المنفى فإنه ينفى
مقاربة الخبر ، ولهذا كان الخبر المنفى
بعده أبعد من المنفى بدونه ، فقولنا :
لا أكاد أصدق هذا الخبر أوغل فى نفي
التصديق من قولنا : أكاد أصدق هذا الخبر .

وهذا يخالف ما ذهب إليه الفراء
والأزهري فى قولهما إنك إذا قلت :
ما كدت أبلغ إليك ، فمعناه أنك قد
بلغت ، ويؤكد ما ذهب إليه الأنخفش
وغيره فى فهم ما بعد نفي كاد على أنه
أوغل فى نفي الخبر منه بغيرها .

٣- أما دخول النفي على خبر كاد
نحو قضيت أياما فى بلد كاد فيه المطر
لا ينقطع ، فإننى لم أجده فى نص موثوق
به ، ولكن النحاة أجازوه ، والقياس
لا يمنعه ، والمعنى حينئذ أن المطر قارب
ألا ينقطع ، فالنفي منصب على الانقطاع
لا على مقارنة الانقطاع .

وقد روى بيت زهير بن أبى سلمى :
صحا القلب عن سلمى وقد كان لايسلو
وأقفر من سلمى التعانيق فالثفل
بوضع كاد بدلا من كان .

وجاء فى تفسير الطبرى قوله :
عن ابن عباس فذبحوها وما كادوا
يفعلون ، يقول كادوا لا يفعلون^(١) .
والفرق بين قولنا : ما كاد المطر
ينقطع وقولنا : كاد المطر لا ينقطع ،
أن النفي فى الجملة الأولى منصب على
مقاربة الانقطاع ، أما النفي فى الجملة
الثانية فهو منصب على الانقطاع نفسه ،
ولهذا كان النفي فى الأولى أوغل من
النفي فى الثانية .

ومعنى هذا أن الخبر المنفى بنفى يسبق
كاد أبعد من الخبر المنفى بنفى .يجى بعدها

أحمد الحوفي
عضو الجمع

(١) تفسير الطبرى ١ / ٢٨١

ثلاث قصائد تاريخية

للدكتور إسحاق موسى الحسيني



العالم الإسلامي ، في
القرن الرابع الهجري ،

أحداثا جسما ضعفت كيانه ، وأذوت
البراعم الى تكوّنت في القرنين الثاني
والثالث . من هذه الأحداث اشتداد
نفوذ الأعاجم في الدولة العباسية ،
وعبثهم بالخلفاء ، والافتتات على سلطانهم ،
حتى أضحووا كالدّمى لا تضر ولا تنفع .
ومنها الانشقاق في المجتمع الإسلامي
بسبب تصارع النزعتين السنيّة والشيعية .
ومنها القتال الذي استعر أواره بين
الروم والمسلمين على الثغور ولا سيما
إمارة حلب .

ومن الطبيعي في مثل هذه الأحوال
أن ينعكس الصراع في الأدب العربي .
فقد كانت ألسنة القوم أشبه بسيوف
لا تقع معركة إلا خاضت فيها ، كما

تخوض الرماح والسيوف . وقتال
الأسنة لا يقلّ خطرا عن قتال السيوف ،
لأنها كانت تزيد نيران البغضاء اضطرابا ،
فيشتدّ الصراع عنفا .

وقد نشرت أخيرا ثلاث قصائد
تاريخية ذات لون خاص فريد . فهي
تصور المعركة التي احتدمت بين المسلمين
والروم في القرن الرابع الهجري ، وتكشف
النقاب عن أثر الدين في المعركة ، ومبلغ
ما وصل إليه الخلاف الديني من استحكام .

أولى القصائد ، وبداية الشر ، قصيدة
أرسلها نقفور بن الفقاس ، الملقب
بالدمستق ، المتوفى سنة ٣٥٢ هـ -
٩٦٣ م والذي تولى قتال المسلمين باسم
رومانوس بن قسطنطين ، ملك الروم ،
أرسلها إلى الخليفة العباسي المطيع لله
المتوفى سنة ٣٦٤ هـ - ٩٧٤ م . وفي أيامه

ثوئى الديلم زمام الحكم ، ولم يكن له من
رسم الملك سوى الخطبة .

والقصيدة تقع فى اثنين وخمسين
بيتا ، مطلعها :

من الملك الطهر المسيحى رسالة

إلى قائم بالملك من آل هاشم

وبعد المقدمة القصيرة يعبر نقفور
المسلمين بضعفهم وانكشاف ثغورهم .
ثم يعدد الثغور الى فتحها الروم مثل : جند
قنرين ، وملطة ، وسميساط ومرعش
والرها . . . إلخ . ثم ينتهى عند فتح
حلب ، وهنا يقف وقفة طويلة فيصف
سبيهم الحرائر من النساء المسلمات ،
وفتكهم بالمسلمين وسوقهم الأسرى سوق
البهائم . ثم يهدد بفتح أنطاك (أنطاكية)
ودمشق ومصر وبغداد والقدس ومكة
واليمن . وفى أثناء ذلك يعيرهم
باستسلامهم للحاكم الديلمى ووقوفهم
منه موقف العبيد ، ويأمرهم بالعودة
إلى منبت عودهم - بلاد الحجاز .

فعودوا إلى أهل الحجاز أذلة

وتخلو بلاد الروم أهل المكارم

ثم يُبين أسباب هزيمتهم ، فيذكر :

(١) جور السلطان .

(٢) التعامل بالمنكرات .

(٣) بيع القضاة القضاء .

(٤) شهادة الشيوخ بالزور .

(٥) شيوع البرطيل .

ثم يختم قصيدته بالتعهد بنشر دين
الصلب وذم الرسول صلوات الله عليه .

سأفتح أرض الشرق طرا ومغربا

وأنشر دين الصلب نشر العمائم

ومن البديهي أن القصيدة ليست
من نظم نقفور الأرمنى ، ولا من نظم
أحد من أهل القسطنطينية . ولكنها
من نظم أحد المسلمين المرتدين الذين
أسرهم الروم ونقلوهم من ديارهم إلى
القسطنطينية ، واستطاعوا أن يحملوهم
على نظم هذا الكلام . ولم يفت ابن كثير
فى البداية والنهاية الانتباه إلى هذه
الحقيقة ، فذم الناظم وقال : « إنه
ممن كان قد خذله الله وأذله وختم على
سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة
وصرفه عن الإسلام وأهله . وفى الوقت
نفسه لم تفته الإشارة إلى تمكن صاحبها

من النظم فقال : « ونفس ناظمها تدل
على أنه شيطان مارد » .

ونقفور هذا هو الذى قاتل سيف
الدولة فى حلب ، وهو الذى هزمه سيف
الدولة فى سمندو سنة ٣٣٩ هـ فقال
المتنبى :

رضينا والدمستق غير راض

بما حكم القواضب والوشيج

فإن يقدم فقد زرنا سمندو

وإن يحجم فمواعدنا الخليج

وهو الذى أسر أبا فراس الحمداني

سنة ٣٥١ هـ .

وانتهت حياة نقفور نهاية بشعة . فقد
عاد سنة ٣٥٢ هـ من حلب إلى القسطنطينية
فوجد ملكها رومانوس قد توفى عن
صبيين ، فحدثته نفسه بالاستيلاء
على الملك عن طريق الزواج من الملكة .
ولكن التاج لم يستقر على رأسه طويلا
إذ سرعان ما دبرت الملكة قتله فقتل
غيلة .

تصدى للرد على قصيدة نقفور عالمان
جليلان من علماء المسلمين ، أحدهما
شاعر معاصر لنقفور هو محمد بن على

ابن إسماعيل القفال الشافى المتوفى سنة
٣٣٦ هـ - ٩٤٧ م ، أى قبل وفاة نقفور
بنحو ستة عشر عاما . والثانى عالم
الأندلس فى عصر على بن أحمد بن سعيد
ابن حزم الظاهري المتوفى سنة ٤٥٦ هـ -
١٠٦٤ م ، أى بعد وفاة نقفور بنحو مائة
سنة .

تقع قصيدة القفال فى أربعة وسبعين
بيتا من القافية والبحر نفسيهما ، كال
فيها الصاع صاعين ، كما يقال ، وأجاد
إجادة استرعت نظر أخبار القسطنطينية
يومذاك فسألوا عن الشيخ القفال من
هو ؟ ومن أى بلد هو ؟ وتعجبوا من
قدرته على النظم .

بدأ القفال القصيدة بقوله :

أتانى مقال لامرئ غير عالم
بطرق مجارى القول عند التخاصم

ثم برا نقفور من طهر المسيحية فقال :

تسمى بطهر وهو أنجس مشرك
مدنسة أثوابه بالمداسم

وقال مسيحي ، وليس كذاكم
أخو. قسوة لا يَحْتَذَى فِعْلَ راحم

وليس مسيحياً جهولاً مثلثا
يقول لعيسى جلّ عن وصف آدم
وما المَلِك الطُّهْرُ المَسِيحِيُّ غادرا
ولا فاجرا رَكَّانَةً للمظالم

وفي هذا القول براءة ، فقد طعن
خصمه دون أن يقدح في دينه . فالمسيحية
في رأيه تبرأ مما يتصف به نقفور من غدر
وفجور . ثم يوازن بين حروب نقفور
المتسمة بالغدر وحروب المسلمين المتسمة
بالرحمة اتباعا لوصايا الرسول عليه
السلام .

ولكن كَرَّمْنَا إِذْ ظَفَرْنَا وَأَنْتُمْ
ظَفَرْتُمْ فَكُنْمْ قُدْوَةً لِلْأَلَاثِمِ

ثم يحاجه في قوله إن المسلمين هزموا
لتفشى الظلم وفساد القضاة بأن ذلك
إقرار بصحة الدين .

ثم يستخف بتهديده بفتح بلاد
المسلمين ، ويتطرق إلى عقيدة التثليث
فينقدها ، ويرى المسيح عليه السلام
رسولا كريما ، والله تعالى خالق المسيح
وغیره من الأنبياء . ثم يلمح إلى أن
ارتداد تفر من المسلمين عن الإسلام
لا يضير الإسلام في شيء ، فقد دخل
الإسلام هند وصين وأتراك .

أما التعيير بحكم الديلمي فجوابه أن
للحق أنصارا يذودون عنه مثل سيف
الدولة الحمداني ومنصور بن نوح :

هما أمنا الإسلام من كل هاضم
وصاننا بناء الدين عن كل هادم

ثم يتوعده بغزو الخراسانيين بخيول
مسمومة .

ويختم قصيدته بدعوته إما إلى حرب
تجر عليهم الويلات ، وإما إلى إسلام فيه
السلامة .

وإن تُسَلِّمُوا فَالسَّلَامُ فِيهِ سَلَامَةٌ
وَأَهَذَا عَيْشٌ لِلْفَتَى عَيْشٌ سَالِمٌ

أما قصيدة ابن حزم فطويلة تقع في
١٣٧ بيتا على غرار القصيدتين السابقتين
وزنا وقافية .

يردّ ابن حزم هزيمة المسلمين إلى ضعف
الخلافة . ولو كان الخليفة في صفات
جدوده لجرح الأعداء سموم الأرقام .
يضاف إلى ذلك انشغال الخلفاء بالقضاء
على فتن الأتراك والديلم الذين كفروا
بنعم المنعم عليهم . وانتهاز الروم انشغال
الخلفاء فوثبوا على ديار المسلمين .

ثم عذد ابن خزم البلاد التي فتحها
المسلمون كالشام ومصر والقيروان
والأندلس حتى لم يبق بأيدي الروم إلا
رومة وقسطنطينية . أما ما استردوه فيما
بعد فسيعود إلى المسلمين . ولابد من أن
تسترد الخلافة نورها ، وأن تعود إلى
المسلمين أيام الظفر كما حدث في ماضي
الأيام زمن هرقل وقيصير . أما التهديد
بفتح بلاد المسلمين مثل بغداد والرملة
ودمشق والحجاز فأمانى دونها ضرب
يلقى الروم كل مذلة . ويطيل ابن خزم
في وصف قوة المسلمين وشجاعتهم
وما سبب لقيه الروم من قتل ودمار وهزيمة ،
كما يطيل في ما بعده كل بلد من دفاع
واستبسال . ومن ذلك قوله :

وجسع كموج البحر ماض عرمرم
حمى سرّة البطحاء ذات المحارم

ومن دون قبر المصطفى وسط طيبة
جموع كمسود من الليل فاحم

يقودهم جيش الملائكة العلا
كفاحاً ودفعاً عن مصل وصائم

فلو قد لتقيناكم لعدتم ومائماً
بمن في أعالي نجدنا والحضارم

ثم يكرر عايتهم ويتوعددهم بفتح بلادهم
حتى يصل المسلمون أرض الصين والهند
إلى أن يرى الإسلام قد عم حكمه

جميع البلاد بالعجوش الصوارم

ثم يصل إلى الجدل الديني ويوازن بين
العقيدتين فيركّز على التثليث وانتحال
الأنجيل والصلب ، وما يقابلها من توحيد
وصدق رسالة وقوة برهان . ويعد آرائهم
افتراء وضلة بحق السيد المسيح عليه السلام .
ولكنه عبد بنى مكرم

ولكنه عبد نبي مكرم

من الناس مخلوق ولا قول زاعم

وبلغت أبيات هذا الجدل أكثر من
ثلاثين بيتاً . وهنا يصل إلى ختام
القصيدة وينتهي بالبيتين التاليين :

أتيتم بشعر بارد متخاذل

ضعيف مباني النظم جم البلاغم

فدونكها كالعقد فيه زمرد

زدرّ ويقرت بإحكام حاكم

ونلاحظ : أولاً أن هذه القصائد الثلاث

تكون موضوعاً جديداً في الشعر العربي ،

يمكن أن نسميه « الهجاء الدولي » .

ثانياً : أنها أقدم ما نعرف من شعر عربي في

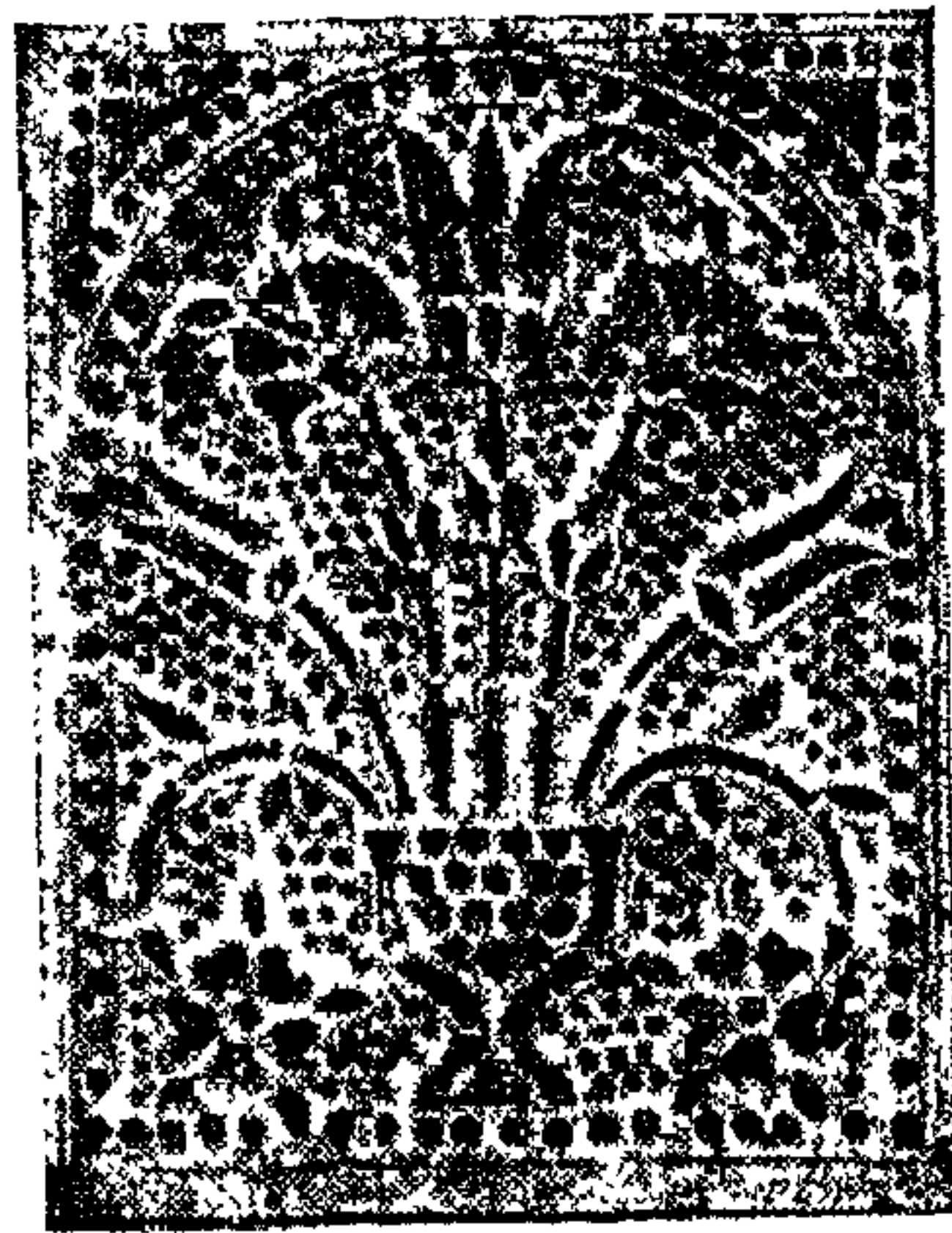
هذا الباب في العصر الإسلامي . ثالثا :
أن شاعر الروم أقذع في ختام قصيدته
حتى إن التاج السبكي ناشر القصائد
في طبقات الشافعية الكبرى - الجزء
الثالث ، الطبعة الأولى ١٩٦٥ ص ٢٠٩ -
لم يستجز إثبات الأبيات الثلاثة الأخيرة ،
واثبتها ابن كثير في البداية والنهاية .
وكان موقف الشاعر القفال معتدلا
فلم يطل الجدل الديني . أما ابن حزم فقد
أخذته الحمية الدينية فأطال في هذا
الموضوع الشائك .

رابعا : إن نفس ابن حزم الطويل
يدل على قدرة في النظم لا سبعا وقد

التزم البحر والتمافية فكان عليه أن يتقيد
بما فرض عليه من نظام . وحتى قدرة
لا نذكر أن أحدا من مؤرخيه نص عليها .
فقد برز الشيخ بنشره وعلمه حتى عد
عالم الأندلس في عصره وأحد أئمة
المسلمين .

|| وأخيرا كم في بطون المخطوطات نرى
آثار طواها عنا الزمن ! ولو كشفت لنا
جميعها لكان لنا أثار عرفتنا عن الحضارة
الإسلامية والأدب العربي شيئا وغابت
عنا أشياء .

استحاق موسى الحسيني
عضو المجمع من الأردن



الأصول حافلة بالشكل : وعلى هامش
النسخة دونت ملاحظات عديدة ، أكثرها
بخط الناسخ :

وليس بالمخطوطة تاريخ أو اسم الناسخ ،
وقد أرخها « ديرنبرج » في كتابه عن
المخطوطات العربية بالأسكوريال باريس
سنة ١٨٨٤ بالقرن السادس أو السابع الهجرى
(الثانى عشر أو الثالث عشر الميلادى) ،
وذهب « كرنكو » إلى أن المخطوطة أقدم
بكثير مما ذهب إليه « ديرنبرج » لأن قاعدة
الخط تدل على ذلك ، ففيها الحروف التى
تقرب من الكوفى وفيها تؤدى الألف الممدودة
بألفين متتابعين ، وفى الأفعال المضارعة
الواوية اللام يكتب ألف الوقاية فى آخر
الفعل المفرد ، ونرى صورة الألف فى الخط
تميل فى أسفلها ناحية اليمين وهذا معروف
فى الخط الكوفى . وفى الحملة فإن الاعتبار
التي ذكرناها ومقابلة خط المخطوطة بالمخطوطات
غير القرآنية يجعل تاريخها فى القرن الرابع
أو الخامس الهجرى (العاشر أو الحادى عشر
الميلادى) :

ملكية المخطوط :

كتب على صفحة العنوان ملكيات مختلفة
للكتاب : « لعبد الله بن يوسف بن هشام



مكتبة الأسكوريال
بأسبانيا تحت رقم

٥٧٢ بالمخطوطة الوحيدة لكتاب الجيم :
ويغلب على الظن أنه إلى أواخر القرن
الثامن عشر الميلادى كانت هناك بعض نسخ
أخرى من كتاب الجيم : وقد كان كتاب
الجيم مصدرا من مصادر مرتضى الزبيدى
(المتوفى سنة ١٧٩١ م) فى معجمه « تاج
العروس » الذى ألفه فى مصر :

وصف المخطوطة رقم ٥٧٢ بالأسكوريال وتاريخها :

تضم المخطوطة ٢٨٦ ورقة ، وهى على ورق ،
وعدد الأسطر فى الصفحة يتراوح بين ٢٠ ،
٢٥ سطراً . جرى النسخ على الاقتصاد فى
الإعجام أو الشكل فى الألفاظ الشائعة ،
وعلى العكس من ذلك حيث نجد كلمات

الأنصاري عفى الله عنه ، ثم صار لولديه محمد عفى الله عنه » :

« ملك على بن محمد القابوني الحنفي عامله الله بلطفه العالي والخافي في شهر ربيع الأول سنة أربع وأربعين وثمان مائة » .

« محمد بن أحمد خطيب داريا عفى الله عنه »

وواضح أن المخطوطة دخلت في ملكية النحوى ابن هشام (٧٠٨ - ٧٦١ هـ ١٣٠٨ - ١٣٦٠ م) الذي كان يعيش في مصر ، وورثه بعد وفاته ابنه محمد . وتملكها أيضاً بعده اللغوى محمد بن أحمد وهو خطيب داريا (٧٤٥ - ٨١٠ هـ ١٣٤٤ - ١٤٠٧ م) ومن مؤلفاته شرح لألفيته ابن مالك : ثم أصبحت المخطوطة ملكاً لعلى بن محمد القابوني الحنفي المتوفى سنة ٨٤٤ هـ (١٤٢٠ م) . ولما كانت داريا وقابون من القرى القريبة من دمشق ، فن المرجح أن المخطوطة وجدت في مصر وسورية مدة قرن أى من منتصف القرن الرابع عشر حتى منتصف الخامس عشر الميلادى :

وعلى صفحة العنوان في الهامش الأيسر كتب اسم ابن فضل الله واسم محمد بن محمد العماني ولم نتوصل إلى معرفتهما والكشف عن شخصيتهما :

وفي ورقة ٩٢ وورقة ٢٠٢ وكل من الصفحتين عنوان لجزء من الكتاب اسم محمد ابن عبد الرحمن بن أحمد العاصى وقد كتب

بالخط المغربى مما يدل على أن المخطوطة كانت في أسبانيا أو في شمال إفريقيا : ويذكر السيوطى في « بغية الدعاة في طبقات اللغويين والنحاة » عالماً نحويّاً ولغويّاً باسم محمد بن عبد الرحمن بن أحمد ، وذكره ابن الأبار في التكملة لكتاب الصلة ، والصفدى في الوافى بالوفيات : ولد في فلنسيا وعاش في أواخر حياته في ألميريا Almeria ، وتوفى بعد ابن أبار الذى توفى سنة ٥٢١ هـ (١١٢٧ م) ويقول السيوطى إن محمد ابن عبد الرحمن توفى بعد سنة ٥٣٠ هـ (١١٣٥ م) أى لسنتين قبل ابن هشام وهو الذى تلاه في امتلاك النسخة : ومما يستحق الذكر أن أبا عبيدى البكرى (٤٣٢ - ٤٨٧ هـ ١٠٤٠ - ١٠٩٤ م) وهو من علماء الأندلس ذكر في كتابه سمط اللآلى في شرح الأمالى للقالى ، موضعاً من كتاب الجيم (في باب الحاء) : وقد عاش البكرى بعض الوقت في ألميرا ، حيث عاش بعده محمد بن عبد الرحمن بن العاصى صاحب مخطوطة الأسكوريال :

وعلى هذا نرجح أن مخطوطة الأسكوريال وجدت في ألميرا منذ القرن الحادى عشر الميلادى ، استخدمها البكرى في كتابه السمط » ثم ظلت في ألميرا حيث دخلت في ملكية محمد بن عبد الرحمن بن العاصى :

وأنه من المحتمل أن المخطوطة نسخت حوالى سنة ١٥٠٠ ميلادية في العراق ، ثم وصلت الأندلس ، ونقلت في القرن الثانى عشر أو الثالث عشر الميلادى إلى شمال إفريقيا ثم مصر

ثم سورية ، وفي القرن السادس عشر أو السابع عشر الميلادي عادت إلى أسبانيا واستقرت في مكتبة الأسكوريال .

مقدمة المؤلف :

يذكر القفطي في « إنباه الرواة على أنباه النحاة » عبارة نتبين منها أنه كان لكتاب الجيم مقدمة « وصنف أبو عمرو كتاب الحروف في اللغة وسماه كتاب الجيم وأوله الحمزة ولم يذكر في مقدمة الكتاب لماذا أسماه الجيم » . ونسخة الأسكوريال تنقصها مقدمة الشيباني التي نتوقع أن يتحدث فيها عن مصادره ومنهجه ونقرأ في الصفحة الأولى (١١) بعد العنوان « هذا الجزء الأول من كتاب الجيم في اللغة بل الكتاب الكامل وفيه بقية الأجزاء أيضاً » مقدمة للناسخ الذي لم يذكر اسمه عن النسخة التي نقل عنها : « اقتفيت بهذه النسخة نسخة أبي موسى الحامضي فاستدركت بها أكثر شكوكي ووجدت فيها ما ذكر السكري أنه سقط عليه من ورقة ووجه ورقة ، فنقلته فكان زائداً على ما ذكر أنه سقط عليه بضعفه وقد بينت ذلك في موضعه وعلامتي على كل ما صححته « ضاد » لأنه المشهور من لقب الحامض ، وتبقى على شكوك في الزيادات فإن أبا موسى لم يكن في كتابه شيء منها والحمد لله كثيراً .

ووجدت في حرف الفاء ورقتين زائدتين على نسخة السكري فنقلتهما وبيّنت موضعهما »

ومن تعليقات الناسخ يتضح لنا أنه كان تحت يده نسختان من كتاب الجيم : نسخة بخط أبي موسى الحامض (المتوفى سنة ٣٠٥ هـ) وهو تلميذ ثعلب ونسخة أخرى من نسخ السكري (٢١٢ - ٢٧٥ هـ) . وإذا نظرنا في تاريخ حياة الناسخين ، تأكد لنا أنهما لم يعرفا كتاب الجيم في حياة الشيباني .

ومن حسن الصدف أن ناسخ كتاب الجيم قابل النسختين مقابلة دقيقة ، وأشار في الهامش إلى اختلاف القراءة ، وهذا يدل على أن كتاب الجيم كان شائعاً في أكثر من نسخة .

ونسخة الأسكوريال لها قيمة لا تعوض ، لأنه أتى بقراءة السكري بالرغم من سقوط بعض المواضع في نسخة السكري ، وأهمها تفوق نسخة الحامض :

وفي أكثر من باب كتب الناسخ ما ورد في نسخة الحامض وقابلها بنسخة السكري وفي مواضع أخرى ذكر ما جاء في نسخة السكري من زيادات :

ويخيل إلينا أن السكري أتى بزياداته من نسخة أخرى للشيباني لأن نسخة الحامض لم تذكرها . ويقول ناسخ كتاب الأسكوريال عبارة « كذا في النسختين » أو « لم أجده في النسخة الأخرى » :

ومما يذكر أن ناسخ مخطوطة الأسكوريال أشار إلى أنه وجد في نسخة الحامض المواضع

التي قال عنها السكري إنها سقطت . وقد صرح السكري في خمسة مواضع ما سقط في كتاب الجيم :

١ - في أوائل حرف الجيم قال : «سقط من هنا ورقة أو أكثر - ما وجدت شيئاً سقط » :

٢ - في نهاية حرف الجيم « هذا آخر ما وجد من حرف الجيم بخط السكري وذكر في آخر الجيم أنه قد بقي منه ، ولم يوجد » .

٣ - في أول حرف الفاء (ورقة) « قال أبو سعيد : سقطت الورقة الأولى » :

٤ - في أول حرف القاف (ورقتان) : ذكر السكري أنه من نسخة أبي عمرو كان قد بيض في أوله صفحتين ذهبتا » .

٥ - قبيل نهاية حرف الميم (صفحة) : « وجدت في كتاب الحامض في باب الميم شيئاً سقط على السكري من أصل كتاب أبي عمرو وذكر أنه صفح ورقة سليمان وهو الذي أثبتته وهو قريب ورقتين بعد قوله : « وكل شيء أحرقته فقد محشته » وروى الحامض « أمحشته » :

وواضح أن الناسح نقل ما سقط من الفاء والميم في الأصل من نسخة الحامض وهي في نسخة السكري ورقة ونصف ، وفي مخطوطة الأسكوريال بلغت ورقتين أما ما سقط من نسخة السكري في بابي الجيم والقاف فقد ضاع نهائياً . وأدرك ما سقط من باب الفاء فأضافه آخر باب القاف يقول

الناسخ : « وجدت هذه الزيادات في كتاب الحامض في أول باب الفاء فكتبته حتى اتصلت بأول باب الفاء من نسخة السكري :

ومن هذا نرى أن مخطوطة الأسكوريال لا تشمل كتاب الجيم ، أضف إلى ذلك أن الأبواب تختلف طولاً وقصراً فالصناد والضاد والطاء والظاء تقع في ٢٧ صفحة ، بينما نجد العين تقع في ٧٠ صفحة . ولو قدرنا أن الأبواب يجب أن تكون متناسبة ، وهذا يدل على أن الأبواب القصيرة مختصرة ، وذلك في نسخة الشيباني الأصلية التي نسخها السكري ، وليست من تصرف السكري .

ورقات من مخطوطة أخرى :

وتضم نسخة الأسكوريال بعض ورقات (١٤٥ - ١٥٠) من نسخة أخرى لكتاب الجيم أقل حجماً وبخط مخالف ونصها يوافق نص نسخة الأسكوريال من ورقة ١٣٥ إلى ١٣٨ . وعلى هامش ورقة ١٤٥ نقرأ عبارة من يد متأخرة نصها : « هذه الألفاظ التي استدركت وقعت في نفس الكتاب وقد أعلمت على مكانها بالحمرة » . ونلاحظ أن الورقات من المخطوطة الثانية أقل دقة من نسخة الأسكوريال ، وأن التمهيش الذي في النسخة الثانية ذكر على هامش نسخة الأسكوريال ، أما الهوامش التي على نسخة الأسكوريال فلم تدون في النسخة الثانية . ومن الملاحظ أن النسخة الثانية اتخذت قراءة واحدة في حين ذكرت نسخة الأسكوريال عدة قراءات

أحياناً للفظلة واحدة مثال ذلك ورقة ٣٦ ب « وقال المحراف الميل الذى تنقش به الشجعة » وجاء فى الهامش : حفظى : تنقش به : فى نسخة : تنقش كما فى الأصل - وقال : المحراف الميل الذى تقاس به الشجعة . وهذا يرجح أن النسخة الثانية اعتمدت على نسخة الأسكوريال أو على نسخة اعتمدت عليها نسخة الأسكوريال ، ثم ضمت النسخة الثانية إلى نسخة الأسكوريال متأخراً .

ترتيب كتاب الجيم وتسميته :

جمع الشيباني فى كتاب الجيم جميع الألفاظ التى تبدأ بفاء الفعل فى باب واحد : وفى مخطوطة الأسكوريال عشرة أجزاء متساوية تقريباً مرتبة على الأبجدية العربية : وليس بصحيح ما ذهب إليه « كرنكو » من أن كتاب الجيم انتهى عند حرف الجيم .

وبهذا الترتيب يقع كتاب الجيم فى المعاجم العربية القديمة موقعا خاصا : فهو لم يتأثر بترتيب كتاب العين ، وكان هو المثل الذى حذاه مؤلفو المعاجم الذين ألفوا على ترتيب الأبجدية للحرف الأول من الكلمة : ألف أبو حنيفة (المتوفى ٢٨٢ هـ) معجمه فى النبات على ترتيب الحرف الأول من أصول الكلمة وكذلك جمهرة ابن دريد (المتوفى ٣٢١ هـ) المحمل ومقاييس ابن فارس (المتوفى ٣٩٥ هـ) وكان الشيباني يترسل حين يعرض المادة فى مناسبات ، مثلاً يذكر فى باب الألف بيتاً من الطويل شاهداً على عبارة أرى بكفيه

ويشرحها ، أى أنشب كفيه فى الأرض يعنى الضرب ، وبمناسبة الضرب انتهر الفرصة فترك لقلمه الاسترسال فى أمثلة وقصص عن الضرب . وكان من طريقته أن يضيف أخباراً أثناء شرح المادة ويستشهد بالشعر شارحاً ومعلقاً للألفاظ الصعبة ويستشهد على الشرح بالشعر ، وقد يأتى فى الشرح بالمرادف أو الضد ؛ مثال ذلك فى مادة ب و ص : البوص ثمر الأرائين قد بوض فإذا حبب فهو القرزح قد قرزح ، وثمر القرظ البلت ثم السنف والقلقل حبه الذى يكون فيه .

وقد تنتج عن ذلك فقرات طويلة ، ويذكرنا ذلك بكتاب الغريب المصنف لأبى عبيد ، وقد استرعى نظرى كثرة الشواهد الشعرية فى كتاب الجيم ، تعدها ٤٣٠٠ بيت أو يزيد ، حتى خيل لى أن الشيباني إنما ألف كتاب الجيم ليكون بمثابة المعجم للألفاظ التى وردت فى دواوينه . أو عرض لمقتطفات من دواوينه .

ومن الملاحظ أن الفصول الطويلة تنقسم عادة فى كتاب الجيم إلى ثلاثة أجزاء متداخلة : فى الجزء الأول يأتى بنصوص معجمية وفيه شواهد لم يذكر قائلها ، ثم ترجع كفة الرجز فى الجزء الثانى ، وفى الجزء الأخير يأتى بشواهد شعرية يقل أو ينعدم فيها الشرح . أما الفصول القصيرة فينقصها هذا التقسيم .

وعند دراسة فصول الراء والعين والفاء والقاف ، وجدنا كثيراً من الشعر الذى

أتى به كشواهد من دواوين سبعة عشرة شاعراً كان يقدم منها شواهد على الترتيب الآتي تقريباً : كعب بن زهير ، زهير بن أبي سلمى ، لبيد ، تأبط شرأ ، أبو النجم ، أوس بن حجر ، عمرو بن شاس ، طفيل ، عمرو بن معد يكرب ، عدي بن زيد ، امرؤ القيس . النابغة الذبياني ، أبو دؤاد الإيادي ، عبيد ، أمية بن أبي الصلت ، بشر ، أبو ذؤيب . وقد يسقط أحياناً الاستشهاد بشاعر أو أكثر من هذا الترتيب ، ومرجع ذلك أن الشيباني لم يجد عند الشاعر ما يوافق المجال .

ولم يصل إلينا ما يبين كيفية التأليف عند العلماء وبخاصة عند أصحاب المعاجم . ولا يمكن أن نتخيل أن الشيباني دون هذه المادة الغزيرة في كتاب الجيم من الذكرة . وأغلب الظن كان تحت يده جزازات وكراريس وملاحظات دونها ، ثم رتبها أبجدياً واستعان بها في تأليف كتاب الجيم . ولعل أقدم ما ورد في الكتاب استقاه من الرواة ثم من دواوينه .

وإذا لاحظنا أن الشيباني في كتابه أتى باستطرادات وأقوال الرواة ومختارات من الشعر ، يعن لنا السؤال : هل نعد كتاب الجيم من المعاجم بالمفهوم الحقيقي للمعجم أي عرض مرتب للألفاظ ؟ وإذا لاحظنا مضمون الكتاب وقصر منهجه الذي اتبعه ، نخطر على ذهننا أن كتاب الجيم يشبه كتب النواذر الأولى وأخص بالذكر كتاب

نواذر أبي مسحل الأعرابي المتداول في عرضه دون تقسيم واضح :

فهل كان الشيباني ينوي أن يعيد كتابه الجيم ويرتبه ترتيباً أبجدياً دقيقاً ، وأن ما بين يدينا إنما هو مشروخ كتاب ؟ نحن نميل إلى أن كتابه كان تجميعاً للمادة يؤلف منها معجماً واضح المعالم ، ويدعونا إلى الأخذ بهذا الرأي ما نجده من نقص واضح في مواد الكتاب : فقد يختار من الدواوين بقوله : وقال طفيل في التفشغ : وقد سمعت حتى كن مخاضها — تفشغها ظلع وليست بظلع » وواضح أنه لم يفسر المثال ، وقد لا يأتي به ويخيل إلينا أن الشيباني إنما أراد أن يدون الشاهد الشعري المناسب أولاً ، ويؤجل شرحه وتكملة الكلام فيما بعد . ويعزز ما نذهب إليه ، أن الشيباني يأتي أحياناً ببعض مشتقات الكلمة في غير أصولها ، فنجد مثلاً في باب الألف : أنابيب (ن ب ب) ، إحرید (ح ر د) ، إحرنباء (ح ر ب) ، أشكلة (ش ك ل) ، الكنى إلى فلان (ل و ك) ، وفي باب التاء : توادي (و د ي) ، تری (و ت ر) . ونجده أحياناً يعالج ألفاظاً في غير أبوابها ، فهو يتكلم عن « بدح » في باب الألف مثلاً ، ولاحظ الناسخ هذا الخلط فكتب على الهامش في بدح : « هذا من باب الباء » .

هذه الأمثلة التي سقناها لا تدل على أن الشيباني لم يكن يعرف التصريف ، ولكنها تدل على أنه انزلق في بعض الهنات وأنه كان

يجمع مادته ليضبطها عند مراجعتها ويصلحها ويخرجها في شكل كتاب . ومما يؤكد لنا أن الشيباني لم يراجع كتاب الجيم ليخرجه كتابا للناس ، الحقيقة المعروفة أن الشيباني كتم كتاب الجيم عن الناس في حياته ، لأنه على ما يخیل إلینا وجدده غير ناضج أو لم يجد الفرصة لصياغته صياغة متكاملة . يقول أبو الطیب في مراتب النحویین « فأما كتاب الجيم فلا رواية له لأن أبا عمرو بخل به على الناس فلم يقرأه عليه أحد » ، وهذا يعلل ما نعرفه من أن الكتاب لم يتداول في التدريس ، لأن صاحبه لم يحزه .

ومن العسير أن نقرر الشكل النهائي لكتاب الجيم الذي أراده له الشيباني ، لأنه لم يفصح عنه :

الزمن الذي نشأ فيه كتاب الجيم :

كتب كتاب الجيم بطبيعة الحال قبل وفاة صاحبه الشيباني أي قبل سنة ٢١٣ هجرية . ولا نعرف متى بدأ الشيباني في تأليفه ، لأننا لم نجد أية إشارة إلى ذلك في كتابه ، ولم تصل إلینا أية رواية عن ذلك . ومادة الكتاب تدل على أن تدوينه حدث على مرحلتين : الأولى ما أخذ من الرواة وهي المرحلة الأقدم ، والثانية هي المختارات الشعرية ، أي أن الزمن الذي احتاجه الشيباني في تدوين هذا الكتاب لم يكن قصيراً . ولا يمكننا القول أيضاً إذا كان البدء في جمعه حدث قبل أو بعد منقولة الليث بن المظفر (المتوفى سنة ١٨٠

هجريه) لكتاب العين للخليل : ومما يستحق الذكر أن الشيباني ورد اسمه عدة مرات في نسخة العين للمظفر (بعد صفحة ٢٦٠ من نسخة برلين) ، وربما لا يدل ذلك على شيء لأننا نعرف أن هناك زيادات أدخلها النساخ على كتاب العين . ولم يذكر الشيباني اسم الخليل في كتاب الجيم . وهناك سؤال قد يتبادر إلى الذهن : هل كان كتاب العين حافزاً مباشراً لنشأة كتاب الجيم ؟ يختلف المستشرقون في الرد على هذا السؤال فذهب « كرنكو » و « هيود » إلى ترجيح أثر العين على الجيم ، وأنكر « ويلد » وقوع هذا التأثير : اعتمد كل من « كرنكو » و « هيود » على المنافسة الشديدة بين مدرسة البصرة ممثلة في الخليل ومدرسة الكوفة ممثلة في الشيباني :

والواقع أن كتاب الجيم هو تطور طبيعي لكتب النوادر التي لم تتبع ترتيباً دقيقاً ، وهو مرحلة من التطور للمعاجم العربية ، بخلاف كتاب العين الذي اتبع مؤلفه ترتيباً أجنبياً (قد يكون هندياً) .

حول تسمية كتاب الجيم :

كان عنوان كتاب الجيم هدفاً لكثير من تأويلات القدماء . وقد أرجعه العلماء في الأغلب إلى الترتيب . وقد ذهب البعض أن اسم كتاب الجيم أتى قياساً على كتاب العين الذي تبدأ بالعين وأن كتاب الجيم لا بد أنه كان يبدأ بحرف الجيم . وكان ذلك قبل أن

يصل الكتاب إلى أيدي العلماء . وكتاب
الجيم كما نعرفه يبدأ بالألف لا بالجيم .

وقد أشار المستشرق « ديرنبور » في كتابه
المخطوطات العربية الجزء الأول (صفحة ٣٩٦)
إلى أن اسم الكتاب يمكن أن يوضح من عبارة
وردت في المخطوطة « هذا آخر ما وجد
من حرف الجيم بخط السكرى وذكر في
آخر الجيم أنه قد بقي منه ولم يوجد » . وقد
فهم « ديرنبور » من هذه العبارة بخط الناسخ
أن النسخة التي وقعت للسكرى تنهى بحرف
الجيم ومن هذا أخذ الكتاب هذه التسمية .
وهذه العبارة المكتوبة في ورقة ٣٢ ب من
مخطوطة الأسكوريال ، لا تشمل الكتاب كله
ولكنها تشير إلى باب الجيم الذي ضاع منه
جزء عند السكرى ، وبالتالي لا يمكن الأخذ
بها في تفسير سبب التسمية . وكذلك لا يمكننا
أن نأخذ بمحاولة « هيود » في تفسيره لاسم
الكتاب : وهو القائل بأن الكتاب سمي في
الأصل من واقع ترتيبه : ألف باء جيم ، ثم
اختصر العنوان إلى جيم ، ولسنا نفهم كيف
جاء هذا الاختصار ، وهو غير مألوف
عند العرب .

وذهب الفيروزبادي في القاموس أن
الجيم عند الخليل : الجمل المعتلم ، وعند
الشيبياني : ديباج . ويقول الفيروزبادي في
« بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب
العزیز » : وله (أى الشيبياني) كتاب في

اللغة سماه بالجيم كأنه شبهه بالديباج لحسنه .
أما معنى الديباج فيقول صاحب القاموس :
جيم سمعته من بعض العلماء نقلا عن أبي
عمرو الشيباني . ولم ينص صاحب القاموس على
أن الشيبياني سمي كتابه بهذا الاسم ، وإنما
جاء ذلك في معنى الجيم فقط وهناك من العلماء
من ألف كتابا بهذا الاسم : النضر بن شميل
(توفي سنة ٢٠٣ هـ) وهو معاصر للشيبياني ،
ذكره الفهرست . وشمير بن حمدويه (توفي
سنة ٢٥٥ هـ) وهو من جيل لاحق للشيبياني . ولم
يصل إلينا من هذين الكتابين شيء . فكتاب
النضر لم نعرف عنه شيئا ، وكتاب شَمِير غرق
في فيضان ، وكان عند الأزهرى منه بعضه
من الأول ، ويصفه الأزهرى في تهذيب
اللغة بقوله : على غاية الكمال . وكان شَمِير
قد أتى بشواهد من الحديث والقرآن على
الأغلب .

ونحيل إلينا أن شَمِير أخذ عنوان كتابه من
كتاب الشيبياني وشميل لأنه تتلمذ على زملائهما
كما جاء في التهذيب . وكان كتاب الجيم
لشَمِير مرتبا ترتيباً أبجدياً ولم يبدأ بحرف
الجيم .

وعلى هذا فإن تسمية كتاب الشيبياني
بالجيم لا تزال معلقة للدرس والبحث .

مراد كامل
عضو المجمع

اللغة العربية

هل هي لغة عصرية؟

للأستاذ محمد بنشوق أمين

— ١ —

في الجزء الخامس والعشرين من مجلة «ديوجين - مصباح الفكر» التي تصدرها مجلة رسالة اليونسكو ومركز مطبوعاته ، وهو الجزء المؤرخ ٥ مايو سنة ١٩٧٤ - بحث الأستاذ «أنطوان مطر» مترجم بقلم الأستاذ «علي أدهم» ، عنوانه : «اللغة العربية والظروف الحاضرة ، وما ينتظر تحقيقه من آمال في مستقبل عالم المتكلمين بها» .

وقد عرض الباحث في بحثه لقضايا ومشكلات وثيقة الصلة باللغة العربية ومدى ثغاتها العلمية ، مستخلصا مما عرض نتائج وأحكاما تثير الانتباه ، وتقتضى المراجعة :

وإن الغيرة الراشدة ، والحفاظ المستنير على لغتنا العزيزة ، حقيقان أن يبعث كلاهما على الترحيب بالنقد والملاحظة أكثر من الترحيب بالتنويه والإعجاب :

٨٠

— ٢ —

قصارى البحث أن اللغة العربية ليست لغة حديثة ، وهي لا تستطيع بحالتها الراهنة أن تستخدم باعتبارها وسيلة صالحة لثقافة تقدمية ، إنسانية أو تقنية ، وأن الإعلام الجماهيري - مثل الإذاعة والصحافة - قد أنقذها في تردد وجزئيا من جمودها ، وذلك بأن أرغمها على قبول تطور إيجابي ، ولكنه ليس كافيا ، لأنه لا يؤثر إلا في القليل . نظم القضاء والأدب ، مع استبعاد المجالات العلمية والتقنية .

ويقدم البحث أسبابا لعدم إمكان استعمال العربية ، وهي أن لها طابعا دينيا ، وأن ليس للعرب لغة قومية علمانية ، وأن العربية مرتبطة بالقديم ، فكأنها للتعبير عن التاريخ ، وأن التطور الاجتماعي تجاوز العالم العربي . ويبين على هذا أن العربية محرومة المصطلحات الفنية اللازمة لتقدمها ، ويضيف إلى ذلك أن وسائل الاتصال بالتقدمية الحديثة لا تتأتى في مجتمع يكتب لغة لا يتحدث بها ، أو يتكلم بعدة لهجات ينشأ عنها لغات قومية لا تكتب .

ويمضى البحث ناعيا على اللغة العربية أن بها إمكانيات مثل أسماء الأسد البالغة تسعين اسما ، وأسماء الله الحسنى الزائدة على هذا

العدد ، في حين أنه لا يوجد بها مساعد لغوي لتصورات ومفاهيم أولية لا يستغنى عنها ، وأن الثغرة الخطيرة المكونة من نقص المصطلحات العلمية موضع إهمال :

ويتناول البحث منطق العربية ، فيذكر أن تطور معاني الكلمات فيها ضعيف ، وأن (نعم) و « لا » لهما قيمة تختلف عما لنظيريهما في اللغات ، وأن درجات التأكيد متعددة ، والصـور البلاغية البسيطة مفقودة ، وأن زمن الأنعال مختزل ، وأن الحروف ساكنة تتحرك أو آخرها تبعا لوظيفة الكلمة في الجملة ، ومعنى الجملة يتوقف على نطق الكلمة عليها حركتها ، وحروف الآلة الكاتبة أكثر منها في نظائرها اللاتينية ، والكلمات تكتب من اليمين إلى الشمال على عكس الأعداد :

ويقدم البحث إحصائية لليونسكو يبين جدولها أن نسبة الإنتاج العلمى فى إنجلترا ٢٢١ ٪/ وهى أعلى نسبة ، وفى فرنسا ٩ ٪/ ، وما انخفض عنها موزع فى الإيطالية والإسبانية والصينية والاسكندنافية . فأما الإنتاج العربى فليس بشئ تقريبا ، فالعربية ليست ذات إنتاج علمى له قيمة فى كل علم نظرى وتطبيقى وعلم اجتماعى ، بسبب بطء تقدمها :

ويطالب البحث بجعل التربية ملائمة للحياة الحديثة ، ويذكر أن ما يتلقاه الطالب من اللغة قد تنحى عن حاضره الحارى ، ويشير إلى أن تجديدات الاتصال الجماهيرى فى المصطلحات لا تقل نفاسة عما تقدمه مجامع اللغة العربية الثلاثة الرسمية :

ويرى الباحث أن العربى حفظ الكلاسيكى للوراثة الثقافية ، وحماية لغة المسلمين المقدسة . وهذا لا يمنع من دراسة لغة اختيارية علمانية سهلة التداول باتخاذ خطوات ، هى فصل العربى الأساسى عن العناصر التى تعوق تقدم اللغة ، وتعايم الطفل التعبير بالأساليب اللغوية الحديثة المتضمنة لمصطلحات العلم الحديث ، مع تحاشى التعدد اللغوى بين المتحدثين بالعربية وقيام الجماعات العلمية بإعداد معاجم تختار المصطلحات الموجودة المعبرة فكريا ومفهوما أو المنبثقة من الاشتقاق والتأليف ، أو المنقولة صوتيا من اللغات الأخرى .

— ٣ —

ولعل أول ما يلاحظ فى هذا البحث أنه بالغ الحساسة فى التصريح بتقريرات قطعية وإصدار أحكام حتمية ، لا تعبر عن حاضر ولا يشهد لها واقع . فهل العرب ليس لهم حقا لغة قومية علمانية ؟ وهل العربية ذات طابع دينى ، وصبغة مقدسة ، تعبر عن تاريخ الوراثة الثقافية ؟ وهل هى محرومة مصطلحات العلم ، فقيرة فى المساعدات اللغوية للمفاهيم العلمية الأولية ؟

لو أن هذه التقريرات والأحكام جرى بها قلم باحث عربى أو أجنبى منذ قرن أو أكثر من قرن ، لوجدت للمساغ قبولا أو شبه قبول . أما اليوم فإنها لا تمثل حقيقة اللغة العربية ونشاطها العلمى والحضارى فى بلاد العروبة :

العصرية إن لم يكن ذلك الواقع المشهود الذي
لا ترقى إليه شبهات الجدال ؟

— ٤ —

والملاحظة الثانية التي تبرز في البحث أنه
عرض لنظريات لغوية، واستخلص مشكلات
للعربية في النحو والكتابة وبعض الأوضاع
واقترح أخيراً ما اقترح من حلول وعلاجات،
وقد ساق البحث نظرياته ومشكلاته ومقترحاته
على نحو يشعر بأنه أنشأها لإنشاء، أو اكتشافها
اكتشافاً وهي لا جديد فيها، إذ أشار إليها باحثون
من قبل، من الوجهة العملية حيناً ومن الوجهة
النظرية أحياناً، ولكل منها مكانه من الدراسة
والتحليل والتعقيب. قبولاً أو رفضاً، فأجلها
البحث إجمالاً، ودفع بها لتكون قذيفة تنفجر
بها نتيجة حاسمة، هي أن العربية ليست لغة
عصرية، وأنها لا تصلح لثقافة تقدمية.

ومع أن المقدمات غير مسلمة على إطلاقها،
وبهذا لا تكون النتيجة منطقية مسلمة، فإننا
نفترض جدلاً أننا سلمنا بتلك المقدمات كل
التسليم، فرفعنا تلك المشكلات فوق المناقشة
والإنكار، فهل تكون مقدمات صالحة
لا ستنتاج ما يكرره البحث من عجز العربية
عن أن تكون لغة عصرية لثقافة تقدمية ؟

أثنا بقيت العربية على حالها بمشكلاتها
لا تكون لغة علمية ؟ فإذا نسمى إذن ما تجرى
به الأقلام وتنطق به الألسنة في النطاق العلمي
اليوم، وما عسى أن تجرى به وتنطق من بعد ؟

وما أحسب أن أجنبياً — بله العربي —
يستطلع من بعيد أفق الحياة الثقافية في بلاد
العروبة، يستطيع أن يجد إلى الاطمئنان بهذه
التقارير والأحكام سبيلاً. ففي البلاد
العربية العدد الكبير من الكليات والمعاهد
والجامع والمجالس والأندية التي تمارس
الحياة العلمية الطليقة في أدق مجالاتها، وأرفع
درجاتها، وصميم اختصاصاتها. واللسان
الذي ينطق بهذه الحياة العلمية ويعبر عنها في
معظم المجالات والدرجات هو اللسان العربي،
والمطبوعة العربية تخرج في كل يوم بل في كل
ساعة من الزاد العلمي والثقافي ما يتناول
ضروب المعرفة بنسب متدرجة، وفي العرب
الألوف من الدارسين العلميين المتخصصين
الذين جمعوا بين اللغات المتعددة والثقافات
المتنوعة، وقد فتحت أمامهم النوافذ على
الصعيد العالمي يحصاؤون ويعلمون ويؤلفون
ويترجمون بالعربية، وفي المعجمات الثنائية
للمختلف اللغات ما يؤكد احتواء العربية لأهميات
المصطلحات العلمية، وتعبرها عن أكثرها
من مادة الفصحى، ونقلها للأقل بأصواته
الأصلية. والصحافة العربية التي تزيد نشراتها
على المئات تخرج للأمة العربية صباح مساء
مصورة أحداث الحياة وشؤون الدنيا وما
يدور فيها من وجوه الأنشطة، وذلك بلسان
عربي ينتقل إلى أذهان القراء العرب في كل
مكان. فأين خصوصية الطابع الديني وخصوصية
التعبير التاريخي في ذلك كله ؟ وكيف يكون
مدلول اللغة القومية العلمية أو اللغة الحديثة

أذا خلت العربية من مشكلاتها المعروضة
في البحث تصبح لغة علمية صالحة لثقافة
تقدمية بمجرد هذا الخلاء المنشود ، وبسببه
وحده ؟

إن المشكلات التي عرضها البحث ،
كانت هي وغيرها مما لم يعرضه ، قائمة
بهذه الدرجة أو أشد ، يوم خرجت العربية
من عهد البداوة إلى حياة جديدة لا عهد لها
بها ، فواجهت على الرغم من تلك المشكلات
مستحدثات المعاني والمسميات في حكمة
الهند ، وفلسفة يونان ، وحضارة فارس ،
وتجلت عبقريتها وفراحتها في العواصم ، في
بغداد ودمشق ، وفي القاهرة وقرطبة ،
لاستيعاب المعرفة الإنسانية علما وفكرا بوجه
عام ، وحفظتها حتى نقلتها أمانة مزيدة نامية
إلى العالم المتعطش إليها في شرق وغرب :

— ٥ —

ومما يلاحظ في البحث أنه وصف العربية
بأوصاف مشوبة لا تنكب عن لبس وإبهام ،
فهى ذات طابع ديني ، لغة كلاسيكية للوراثة
الثقافية ، لغة للمسلمين مقدسة . والذي
يسبغ على هذه الأوصاف اللبس والإبهام
أن البحث يجعلها في مقابل : لغة الحياة ، اللغة
العصرية ، اللغة العلمانية :

لقد كانت اللغة العربية ، خلال أربعة
عشر قرنا ، موصولة بالدين كصلتها اليوم أو
أقوى ، وبخاصة في عصور الازدهار الأولى :

ولم تكن مع ذلك إلا لغة قومية عصرية علمانية
حية بالنسبة لتلك العصور الخوالي ،
وبالنسبة لعصرنا الراهن :

إن الناطقين بالعربية يأبون هذه الأوصاف
التي يراد بها الفصل بين لغة ولغة ، أو التمييز
بين أولى وأخرى ، فهم لا يتقبلون القول
بأن هناك تفرقة بين لغة كلاسيكية ولغة عصرية
أو أن هناك لغة يفهم بها التراث الثقافي ولغة
يفهم بها العلم الحديث ، أو أن هناك لغة ذات
طابع ديني ولغة بعيدة عن المجال الروحي :
ولعل لا أغلو إذا قلت بأن هذه التفرقة
والتمييز فيهما ما يحدو — بحق أو بغير حق —
على التشكك وإساءة الظن بمن ياجئون إليها ،
وربما أوحى إلى النفوس القول بأن ثمة
خبيئة نفس عند من ينادون بها ، وأن وراء
السطور من النعرات الطائفية ما وراءها :

لا يرى الناطقون بالعربية إلا أن هناك لغة
عربية واحدة ، يرجع كيانها لفظا وتركيبا
وأسلوبا إلى معجم واحد ، وإن اختلفت
مدلولات اللفظ حقيقة ومجازا ، وتطورت
معانيه في عصور متعاقبة ، وتعددت
تعريفاته في مجالات متعددة ، ولكنهم إلى
جانب ذلك مؤمنون بأن هنالك أساليب
تنوع بين علمية وأدبية ، وصحفية وإذاعية ،
وأن بينها درجات من يسر التعبير وسهولته ،
أو جودته والتأنق فيه ، طوعا لبلاغة الأداء ،
وما يحتويه من عناصر الدقة المنطقية ، أو
الوضوح العلمي ، أو سعة الخيال وما يستتبعه

من صور بيانية موحية . بيد أن تنوع الأساليب ، وتفاوت التراكيب ، هو عند العرب لغة عربية واحدة ، لغة للدين وللحياة ، لغة للمسلم وغير المسلم ، لغة للكتابي وغير أهل الكتاب ، لغة لمطالب العقل والجسد والروح ، لغة للعلم والفن والأدب والحضارة على السواء .

لا تفرقة في العربية بين لغة عصرية ولغة غير عصرية ، بهذا المفهوم الانفصالي القاطع ، فهي أداة ألفاظها متعددة الدلالات ، وعباراتها متفاوتة التراكيب ، وفي أساليبها تنوع بحسب مجالات التعبير ومقتضياته . لغة نفهم بها تراثنا الثقافي ، ونعبر بها عن حاضرنا العصري ، ونعمل على تنميتها وتطويعها لمقاصد الحياة في ركبها العالمي مع الأيام إلى أمام .

— ٦ —

وفيما يلاحظ أن البحث يردد ما لا كتبه الألسن من الإشارة إلى سعة اللغة في بعض موضوعات وضيقها في بعض ، ويضرب لذلك ما ضربته تلك الألسن من مثل الأسد الذي قاربت أسماؤه الأصلية أو الوصفية المائة ، ويقابل ذلك يفقد المساعد على التصورات الأولية ونقص المصطلحات العلمية . فهل يعد ذلك — على فرض وجوده — ضعفا في طبيعة اللغة وأصالتها وما لها من مرونة وقدرة على سد الحاجة إلى التصور أو الاصطلاح العلمي ؟

إن اللغة التي سميت الأسد بأوصافه عشرات الأسماء لا تعجز أن تسمى غير الأسد من التصورات أو المصطلحات . وليس أدل على قدرتها من أن المصطلح العلمي الواحد ، يجد اليوم على أقلام الباحثين والمترجمين العلميين ألفاظا شتى تدل عليه ، منها ما يترجم أصله ، ومنها ما يترجم معناه ، ومنها ما يتخذ فنونا من الوسائل بإحياء لفظ قديم أو اشتقاق صيغة جديدة ، ومنها ما يلجأ في الوضع سمة ظاهرة ، أو وظيفة عاملة . وهذا كله برهان طوعية اللغة للتشجير ، وليانها لضروب التعبير .

ونحن حين ننوه بهذا الدليل لا نباهي به ، فما أحوجنا إلى الحرص على توحيد اللفظ العربي للمصطلح العلمي ، وإنما نقدمه في مواجهة النعنى على العربية بأنها فقيرة في هذا الجانب من المواضعة والاصطلاح ، لنلجأ على أن غنى العربية ونخصها كفايل أن ينفق على من يستثمر مادتها وأوضاعها في الوفاء بمصالب الحياة العصرية والحضارة الحديثة في تقدمهما العلمي والإنساني .

— ٧ —

وفيما يلاحظ أن البحث يكرر موقف العربية من الاصطلاح العلمي ، ولا يبالى أن يصرح بأن العربية محرومة المصطلحات العلمية اللازمة لتقدمها . وهذا الإطلاق يجافي ما هو قائم فعلا في الحياة العربية . فإن عصر النهضة الذي نيف على مائة سنة قد

تتابعت فيه الجهود لتنمية المصطلح العلمى ،
 فترجم الطب والهندسة وغيرهما فى مطالع
 العصر ، بل لقد كان تدريسها بالعربية
 أول الأمر ، وأذكر أن الدكتور « فارس
 نمر » الصحفى اللبنانى الأصل ، المولود فى
 منتصف القرن الماضى ، كان يحدثنا أنه
 درس الطبيعة والرياضة وغيرهما بمصطلحات
 عربية ، وكان يذكر فى هذا الصدد اسم
 « فاندياك » واسم « وارتبات » من الأساتذة
 والمؤلفين . وفى هذا العصر ترجمت شوامخ
 العلم والفلسفة والفن والأدب ، من أمثال
 أرسطو وداروين وفرويد وشكسبير ،
 وألفت كتب فى الفروع العلمية كافة ،
 وتولى تدريسها بالعربية علميون مختصون .
 وما كان ذلك ليتسق لو كانت العربية
 قد نخلت من كلمات عربية تقوم مقام
 المصطلحات الأجنبية على تعدد لغاتها .

إن العربية العريقة ذات تجارب فى
 الأداء العلمى أصيلة ، وقد أعانتها تلك
 التجارب على أن تطاوع ما تراد عليه من
 تأدية المعانى الاصطلاحية ، ولم تكن المشكلة
 عندها نقل المعانى المجردة والأوصاف
 والشروح ، بل نقل أسماء الجواهر والذوات
 والأعيان وبعض المسميات ، وعلى الرغم
 من ذلك اتسعت لها بالوضع فى الأكثر ،
 وبالتعريب فى الأقل .

ولسنا نقول ذلك من فراغ ، فبين
 أيدي قراء العربية ما يتابع خلال المائة سنة
 الماضية من معجمات ثنائية ، حافلة بالألوف

من مصطلحات المعرفة الحديثة عامة ،
 نذكر منها تمثيلا لاحصرا : معجم شرف
 الطبى ، ومعجم عيسى النبائى ، ومعجم
 مظهر العلمى ، ومعجم الشهابى الزراعى ،
 ومعجم المعلوف الحيوانى ، ومعجم الجامعة
 العربية العسكرى ، ومعجم إلياس العصرى ،
 وكذلك المورد والمنهل وغيرهما من عشرات
 المعجمات .

— ٨ —

ومما يلاحظ أن البحث قد شاء أن
 يغفل — لاعتن غفلة — جهد الجامع اللغوى
 فى القاهرة ودمشق وبغداد ، إلا حين أشار
 إلى إسهام الاتصال الجماهيرى فى التطور
 اللغوى وتجديداته فى المصطلحات ، فقد
 ذكر أن هذه التجديدات لاتقل نفاسة عما
 تقدمه تلك الجامع .

يهذا يتجاهل البحث أن هذه الجامع قد
 جعلت لغة العلم أساسا لعملها ، ولم تكن جهودها
 فى نشر التراث العربى أو تيسير أوضاع اللغة
 وتوسيع أقيستها ووسائل الاشتقاق فيها ، أو
 التخطيط لدراسة الكلمات وقبولها ، لإلراكائز
 ودعائم لتنمية لغة العلم وتزكيتها .

إن أنظار قراء العربية ترتفع فى نحو عشرين
 مجلدا أخرجها مجمع القاهرة ، ولا محتوى لها
 إلا مصطلحات العلوم والفنون والآداب ،
 مقرونة بمقابلها الأجنبى ، مدروسة مخصصة
 بفضل من قاموا عليها من أعضاء وخبراء تسنموا
 فى كل فرع من الفروع العلمية أعلى مستويات

الاختصاص . وهذه المجالات التي هي ثمرة الكفاح في عشرات من السنين تشمل ألوفاً من المواضع العلمية الحديثة ، وقد بادر إليها مؤلفو المعجمات الثنائية فتناهبوها - مشكورين - لتضمها معجماتهم التي تتوالى طبعتها ، وكذلك بادر إليها المؤلفون والمترجمون والمدرسون لتكوين سندهم في التأليف والترجمة والتأليف وفي سيرة صاحب البحث أنه أسهم في وضع معجم عربي فرنسي موحد ، وقد حوى من المصطلح العلمي العربي ما حوى ، واليقين أن صاحب البحث هو ومن معه من مؤلفي المعجم رجعوا إلى من سبقوهم إلى التأليف المعجمي ، وما أحسب أنهم قد زهدوا في الرجوع إلى الجهد المعجمي .

ولا بد لنا من أن نراجع البحث فيما عمد إليه من الفصل بين الاتصال الجماهيري أو الإعلام الجماهيري من : إذاعة وصحافة ونشر وبين المجالس اللغوية . فأى فاصل بين وجوه النشاط الإعلامي ووجود النشاط المعجمي ، وكلها أنشطة متداخلة متعاملة ، يستقى بعضها من بعض ، ويتدامج فيها بعض وبعض ، وهي تتجاوب أصداؤها فيما تقترح من الكلمات وما تشيع : ذا الصلح أو الإذاعي أو الكاتب بوجه عام إذا أراد التعبير عن المسميات العلمية والحضارية رجع إلى المتخصصين العلميين أو اللغويين يستعينهم عليها ، أو استخبر المعجمات الثنائية لتهديه إلى ما يعبر به عند الحاجة :

وليس مهمة المجالس خلق الكلمات وافتعالها ، وإنما يخلق الكلمة أو يرتضيها من يختصون

بموضوعها من العلماء والفنانين وصناع الحضارة في بيئاتهم العلمية والفنية والصناعية : وغاية ما تقوم به المجالس هو الإعداد والتنظيم وجوهر عملها المراقبة والإشراف ، فهي أداة تسجيل أو ترشيح ، وهي جهاز تنقية وتزكية وتوثيق : فعلاقتها بالإعلام الجماهيري أنها منه وإليه ، بينهما تبادل وتعامل ومؤازرة ، لا تباعد بينهما ولا انفصام .

وعلى رأس ما تعنى به المجالس العمل على توحيد المصطلح العلمي أو الحضاري ، لتعميم استعماله في العربية على ترأسي أصقاع الناطقين بها ، تفادياً من التعدد والفرقة اللذين ينتهيان إلى بلبلة على طريق التواصل والتفاهم الثقافي بين الكاتبين والقراء .

ولا أظني أعدو الصواب حين أعد المجالس اللغوية قبلة الذين يرجون للعربية أن تتعمق صلتها بالتعبير العلمي الحضاري ، رعيًا لما يتوافر في هذه المجالس من أدوات التحري والترجيح ، ومن عوامل التأثير الإيجابي في البيئات العلمية المختلفة .

— ٩ —

يضاف إلى ما يلاحظ أن البحث يتحدث في مشكلة الفرقة بين لغة الكتابة والتدوين ، ولغة المشافهة والحديث . وعرج من ذلك على تعدد العاميات بين المتحدثين بالعربية ، وتساءل ما هي فرص البقاء للغة مكتوبة لا يتحدث بها كاتبوها ؟

وليس منا من لا يعرف أن العاميات والفصحى في صراع موصول ، وأن لهذا الصراع وشائج

من غلبة الجهل بالقراءة والكتابة بالنسبة لمجموع أهل العربية . وليس منا من لا يلمس الجهود التي تبذل لعلاج ذلك بنشر الوعي الثقافي وتقوية وسائل الاتصال الجماهيري بين العرب لتدوين الفوارق بين العاميات من ناحية وبينها وبين الفصحى من ناحية أخرى ، وذلك إلى جانب الجهود الحادة لخفض نسبة الجهل بالقراءة والكتابة . ولكننا لا نعرف لماذا يعرض البحث لهذه المشكلة في صدد ما يندد به من فقر العربية في المصطلحات الفنية ، وحرمانها أن تكون لغة العلم العصري ، وأنها ليست لغة حديثة ؟ فهل يتوقف الخلاص من ذلك على الخلاص من تلك المشكلة المتعددة الجوانب ؟ وهل نقف مكتوفي الأيدي على مضمض الانتظار حتى تمحي العاميات وتتوحد الفصحى لكي تكون لنا لغة علم ؟ وهل يرفع توحيد اللغة نسبة قابليتها لاستيعاب الإنتاج العلمي ؟ أليس الملايين ممن يعلمون العربية قدرا كافيا لجعلها أداة عامية إن لم تكن ؟ إن هؤلاء الملايين لهم لغتان متقاربتان إحداهما الفصحى الموحدة والأخرى العامية الخاصة ، وهم يتبادلون الثقافة بالأولى . ومن الميسور أن نفترض البعد كل البعد بين لغة الخطاب ولغة الكتابة ، دون أن يستتبع ذلك عجز اللغة الكتابية عن الاستيعاب العلمي ، وليس بمستنكر أن تتعدد في المثقف لغاته ، ولكل لغة مجالها في حياته . فلتكن الفصحى لغة الكتابة عند العربي ، وإن كانت العامية لغته المستعملة في غير النطاق الكتابي .

ولولا مخالفة التطويل لأفضت في القول بأن الفروق بين الفصحى والعامية وبخاصة المصرية مغالى فيها ، فهما لغة واحدة في الجملة ، يفارق الإعراب وبعض الأوضاع التعبيرية في الألفاظ والتراكيب ، وفيما من سمى لغة الحديث والخطاب : العامية الفصحى .

ولئن قلنا ذلك إننا لا نقوله غافلين عن سوء أثر التعدد اللغوي ، وعن ضرورة مواصلة السعي لتدوين العاميات ومكافحة الجهل بالقراءة والكتابة . وإن كنا نرفض الذهاب إلى أن هذه المشكلة عامل أساسي في نقص المصطلحات الفنية وضعف الإنتاج العلمي ، وأنها عقبة كثود تعوق العربية عن أن تكون لغة علم حديث وحضارة تقدمية .

وإذا ألقينا نظرة على الماضي في موضوع الفصحى والعامية : أطللنا على التاريخ وهو يرينا أن العامية ليست حديث العهد ، ومن الباحثين من يرجع بنشأتها إلى العصر الجاهلي . أما الثابت الذي لا يحتمل نزاعا فهو أن العامية عاشت في أزهى عصور العربية : علما وفكرا وثقافة ، وكان أهل العربية في تلك العصور أقل منهم الآن عددا وأوفر تأليفا وأغزر إنتاجا ، مع عصر الوسائل والملابس وطرق المواصلات . ففي الوقت الذي كانت فيه تترجم روائع الفكر العالمي في القرن الهجري الثاني وما يليه ، كان للعامية وجودها في المجتمع العربي بين المثقفين خاصة وغير المثقفين عامة . ويخضرن الساعة ما عزاه صاحب «الأغاني» إلى «الموصل»

من شعر ملحون هو أقرب إلى ما نعرف
باسم « الزجل » ، ومنه قوله :

أنا جيت من بلاد موصل
أسقى قلى خمريا

وكذلك بحضرتي مانقله « الجاحظ » في
بخلائه من قول « النظام » : « إن كنت
سبع » دون إعراب ، وتنبيه الجاحظ « في
غير موضع إلى أن حكاية النوادر والنكات
والأفاكية يجب أن يراعى فيها لفظها ولهجتها ،
فإن ردها إلخاكي إلى الفصاحة وألزمها الإعراب
خرجت باردة لا طلاوة عليها ولا تأثير لها :

ويخلص لنا من ذلك أن اللغة وتعليمها
أو تعصيرها وتحديثها ، لا يتوقف على أن
تكون لغة كتابة وحديث معا ، ويكفى في
مساومتها لركب العلم والحضارة أن يستطيع
أهلها إجرائها على أقلامهم في سهواة ويسر

— ١٠ —

وفيما يلاحظ أن البحث تناول موضوع
الحروف العربية وتعدد صورها وعلامات
ضبطها ، وذكر أن الفهم مطلوب لإمكان
القراءة ، وأن الخطأ في النطق يغير معنى
الجملة ، ولذلك خطره في التفاهم الجماهيري .

والبحث في هذا كله يتلقت ما أفاض
فيه الباحثون وأهل الرأي من قبيل ،
ومنه ما عولج بطريقة أو بأخرى ، ومنه
ماتبين الغلو في تقدير أثره :

فأما تعدد صور الحروف في الطباعة
العربية فقد كثرت المقترحات في حل
مشكلاته ، وانتهى العمل إلى اصطناع
مادعا إليه « مجمع اللغة العربية » في القاهرة
من اختصار الصور إلى أقل عدد ، مع
الاحتفاظ بطبيعة الخط العربي وفتح الجمانى .
وفي الصحف اليومية السائرة نماذج من
هذا الاختصار .

وأما علامات الضبط فهي مغفلة حقا في
معظم ما ينشر ، وإغفالها لا يقوم سدا في
سبيل التفاهم إلا فيما ندر من كلمة أو
كلمات : على أن الكاتب العلمي
وغير العلمي يكتب ما يكتب وإن
كان غير محسن لقواعد العربية وضوابطها ،
وما يكتبه في شهور يستطيع مراجع وراءه
أن يسد خلله ، في يوم وليلة ، والناس
يقرءون الصحف والكتب عارية عن الضبط
والإعراب ، وربما كان فيها من الخطأ
ما فيها ، فيفهمون في الأغلب الأعم لا يتعثرون .
ولقد أصبح من المبالغ فيه القول بأن
الإعراب شرط المعنى ، ففي سياق
الجملة غنية وكفاية في معظم الأحوال :
وبين اللغويين المحدثين من يتكهن بأن
العامة صائرة إلى عربية غير معربة ، وفي
القدامى من العلماء الأثبات من يرى أن
البناء وترك الإعراب لا يخل بمعانى الكلام ،
والدارسون للهجات العربية يعلمون أن
الوقف بالسكون مطلقا لغة لبعض العرب ،
وأن إسكان المنصوب لغة لبعض من العرب

آخرين ، وفي المأثور من الكلام العربي ما هو موقوف غير معرب ، لإجراء الوصل مجرى الوقف ، أو لإعطائه حكمه .

وما نبغى بما نبسط من ذلك أن ندعو إلى ترك لإعراب ، أو نجنح إلى الاستخفاف به ، بل نقصد بذلك أن الأمر الواقع في ترك الضبط بالحركات لا يمثل مشكلة تباعد بين العربية وبين مواتها لحاجات الحياة العلمية والحضارية ، وفي ذلك رد كاف على ما يعنيه البحث من وراء ترديد تلك الظواهر في ضبط الكتابة ، للقول بأنها هي الحاجز عن أن تكون العربية لغة علم حديث .

- ١١ -

وفيما يلاحظ أن البحث تكلم في موضوع النفي والإيجاب بنعم ولا ، وفي موضوع زمن الأفعال للماضي والحاضر والمستقبل ، مقارنة بين العربية واللغات الأخرى ، والبحث يجرى في هذا على شاكلته من التعرض لمسائل نظرية سبق إليها بعض المستشرقين ، ودارت حولها مناقشات وردود ، فالبحث يبتغيها من مرقدها ليتخذ منها تكأة لما يقرر من أن العربية ليست لغة علمية حديثة .

ولا أنسى أن ما تكلم فيه البحث كان مدار حوار خصيب منذ عشرين سنة أو نحوها في مجلس علمي لغوي ، حاضر فيه « عباس محمود العقاد » وناقش فيه

دارسون ذوو اختصاص بفقهاء اللغات وعلم الأصوات ، منهم الدكاترة إبراهيم أنيس وتام حسان وكمال بشرو عبد الله درويش ، وفيما قيل يومئذ أن العربية تستطيع التعبير عن الأزمنة السبعة جميعا ، وإن لم تكن بها صيغ اصطلاحية لها . وهل تعاب العربية بأنها منطقية في تحديد الزمن والتعبير عنه بأفعال معينة ، توافق ما قاله أحد النحاة الإنجليز في كتابه « أصول الأجرومية » إذ يقول : « الزمن ينقسم إلى جزئين : ماض ومستقبل ، وبينهما حد الانفصال وقت حاضر كأنه النقطة الهندسية التي لا طول لها ولا عرض ولا ارتفاع ، ولكنها على الدوام منسوبة للمستقبل » .

ومهما يكن الرأي ، فالنقاش نظري لمقارنة اللغات ، فما هو بمشكلة عملية في ترجمة أو تأليف . وفقدان الأداة في بعض مداولات النفي والإيجاب أو بعض أزمان الأفعال لا يلزم منه فقدان القدرة على التعبير العامي المرضي . والسؤال هو : فيم الخصومة والشقاق ، والعربية تتعوض بما فيها من أفاين التعبير عما ليس فيها من أدوات تقابل ما في سواها من بعض اللغات ؟ وهل في مكنة البحث إثبات أن الكاتبين أو المترجمين قد تطاعوا إلى التعبير عن معاني النفي والإيجاب أو درجات الزمن فوقفت الأداة غصة في أقلامهم فلم يستطيعوا أن يعتصروا بشيء من أساليب العربية كما يعتصر الغصان بالماء ؟

في المائة : أليست النسبة إذن نسبة جهد وعمل ونشاط ، لا نسبة يسر وسهولة ومرانة واقتدار ؟

وفي ظني - بدرجة ما - أن الإحصاء كى عددى ، لانوعى كينى ، أعنى أنه يقوم على تعداد وحساب للمؤلفات والمترجمات قلة وكثرة . فإن العربية - بين أيدينا - فيها نماذج كثيرة من أنواع المعارف والعلوم تأليفا وترجمة ، يدرسها أو يقرؤها الملايين من أهل العربية ، ولكنها في غلبة الظن لا تبلغ في العدد والحساب ما بلغت اللغات التي سما بها الإحصاء إلى الصفوف الأولى .

ويسعنا فوق ما تقدم أن نرد السر في الإحصاء الذي تخلف بالعربية دون النسب العالمية للغات إلى أسباب شتى ، نشير منها هنا إلى أن ثمة اتجاهها بين العلميين العرب يتحسس له بعض منهم ، وهذا الاتجاه يرى أن الوقت لم يحن بعد للعدول عن تدريس العلوم باللغات الأجنبية ، ومن الخير العمل على تقوية المتعلمين في تلك اللغات ، لكي يتابعوا تحصيلهم للعلوم بها ، ولكي يتسنى لهم أن يلاحقوا التقدم العلمى السريع فيها ، بالاطلاع الدائب على ما يجد من البحوث والدراسات . وفيما يستند إليه أصحاب هذا الاتجاه أن الانصياع إلى التدريس بالعربية في المجال العلمى التقنى يحرم الدارس العربى هذه المتابعة والملاحقة التي تحقق المشاركة الإيجابية

وفيما يلاحظ أن البحث ، حين جعل هذه المشكلات التي عرضها ذريعة للقول بأن اللغة في حاجة إلى تزويدها بأدوات التفكير العلمى ، استندت ذلك إلى حقيقة جاء بها إحصاء « اليونسكو » الذى قدم جدولاً بان منه أن العربية لم تعد بين اللغات التي لها إنتاج علمى . ونسبته في إنجلترا أعلى نسبة وهي ٢٢ مم وفي فرنسا أدناها وهي ٩ . ومن اللغات التي انخفضت عن ذلك الإيطالية ، أما الإنتاج العربى فليس بشئ تقريبا .

ويبدو أن البحث قد استشاط غضبا لهذا الإحصاء الأليم ، فأثار غبار تلك المشكلات ليوجه إليها الاتهام ، وليس من شك في أن ذلك الإحصاء يكشف عن حقيقة مؤسفة ، ويدق أجراس التحذير من استمرار الحال على هذا المنوال ، وينبه القوام على الثقافة إلى ضرورة تنمية التأليف والترجمة في المجال العلمى .

ونحن إذ نلتزم جانب الأناة والروية في الفهم والتحليل لما كشف عنه الإحصاء اليونسكى ، يتضح لنا أن السر فيه لا يرجع بقدر يذكر إلى صعوبة العربية أو قصورها ، وأمانا الإيطالية التي أخرجها الإحصاء من جدول النسب ، وما ذلك عن صعوبة أو [قصور في بنيتها اللغوية بالإضافة إلى لغة إنجلترا التي زادت النسبة فيها على العشرين

على نحو مقبول : ولكن هذا الاتجاه -
على وجاهته - لا يدعونا إلى الاستسلام له ،
دون أن نمضي قدما في تزويد العربية
بالمؤلفات والمترجمات العلمية ، حتى
نتداني إلى المستويات العليا من التقدم العلمي
العالمي :

بيد أن هذا كله لا يتصل باللغة من حيث
اقتدارها على استيعاب الفكر الحديث ، فإن
لها من الطاقة والدربة والطواعية حظا غير
منقوص ، وهي لا تعيا بالترجمة عما يدور في
العقل الإنساني العصري . وفي ميدان التعليم العربي
كليات للغات ، ومعاهد للترجمة الفورية ،
تمارس نشاطها مستعينة بالجهد الفردي
والجماعي والجمعية لإثراء اللغة بالمواضيع
والمصطلحات : وها نحن أولاء الآن نناقش
من نافذة العربية هذا البحث الذي يصطنع
المهيج العلمي العصري ، ويأنس بالمعطيات
الحديثة من الآراء والدراسات ، وقد حرره
صاحبه بغير العربية ، فاستطاع الناقل أن
يترجمه إليها دون حائل ، والعربية على حالها
بمشكلاتها التي لم يدخر البحث جهدا في
تجميعها ، والإغراق في استعظام تأثيرها .

حقيقة المشكلة التي كشف عنها إحصاء
اليونسكو أنها مشكلة تعام وتقويم ؛ لا مشكلة
عجز أو صعوبة في اللغة ، مشكلة جرد واجتهاد
مادى أو طباعى أو فنى ، مشكلة تنشيط وحفز
للبيئة العلمية في التأليف والترجمة والنشر .
مشكلة جزاء مضى عنه للتفرغ للعمل بأيدي
المتخصصين من ذوى الجدارة والامتياز ، في

كل فرع من فروع العلوم والفنون . وليس
من ينكر أن التأليف العلمي بجهد رهبانى ،
وأن الترجمة العلمية ليس لها من الجزاء المقدور
ما يفي بما يبذل فيها من كد وعنت ، وأن النشر
العلمي مغامرة سوقية لا يؤمن فيها الخسارة .
وتلك هي المشكلة الحقيقية حقا بالبحث والدرس
والمواجهة ، ومتى ظفرت بالمساعي الحادة
لتدليل مصاعبها كان ذلك خطوات فاسحا
على طريق التقدمية والعصرية دون جدال :

- ١٤ -

بقى مما يلاحظ في البحث أنه يضع خطة
لترقية العربية الحديثة : ويدعو إلى اتخاذ
إحدى طرق ثلاث للتنفيذ ، وهي استعمال
اللفظ العربي إن وجد ، أو اللجوء إلى الاشتقاق
والتأليف ، أو النقل صوتيا من اللغات الأخرى .
وليطمئن صاحب البحث إلى أن هذه الطرق
الثلاث هي بأعيانها الأسس التي نادى بها
البصرياء من العلماء اللغويين والمصلحين من
المفكرين منذ استهلال القرن الحاضر ، وقد
صاغها «مجمع اللغة العربية» القاهري في
قرارات محددة منذ أربعين سنة ، فإن
منهج العمل المنصوص عليه هو :

أولا - تفضيل الاصطلاح العربي القديم
على الجديد إلا إذا شاع .

ثانيا - قبول ما استعمله المولدون مما جرى
على الأقيسة من مجاز أو اشتقاق ، مع إجازة
الاشتقاق من أسماء الأعيان في لغة العلوم :

ثالثاً - إجازة استعمال بعض الألفاظ
الأعجمية للضرورة .

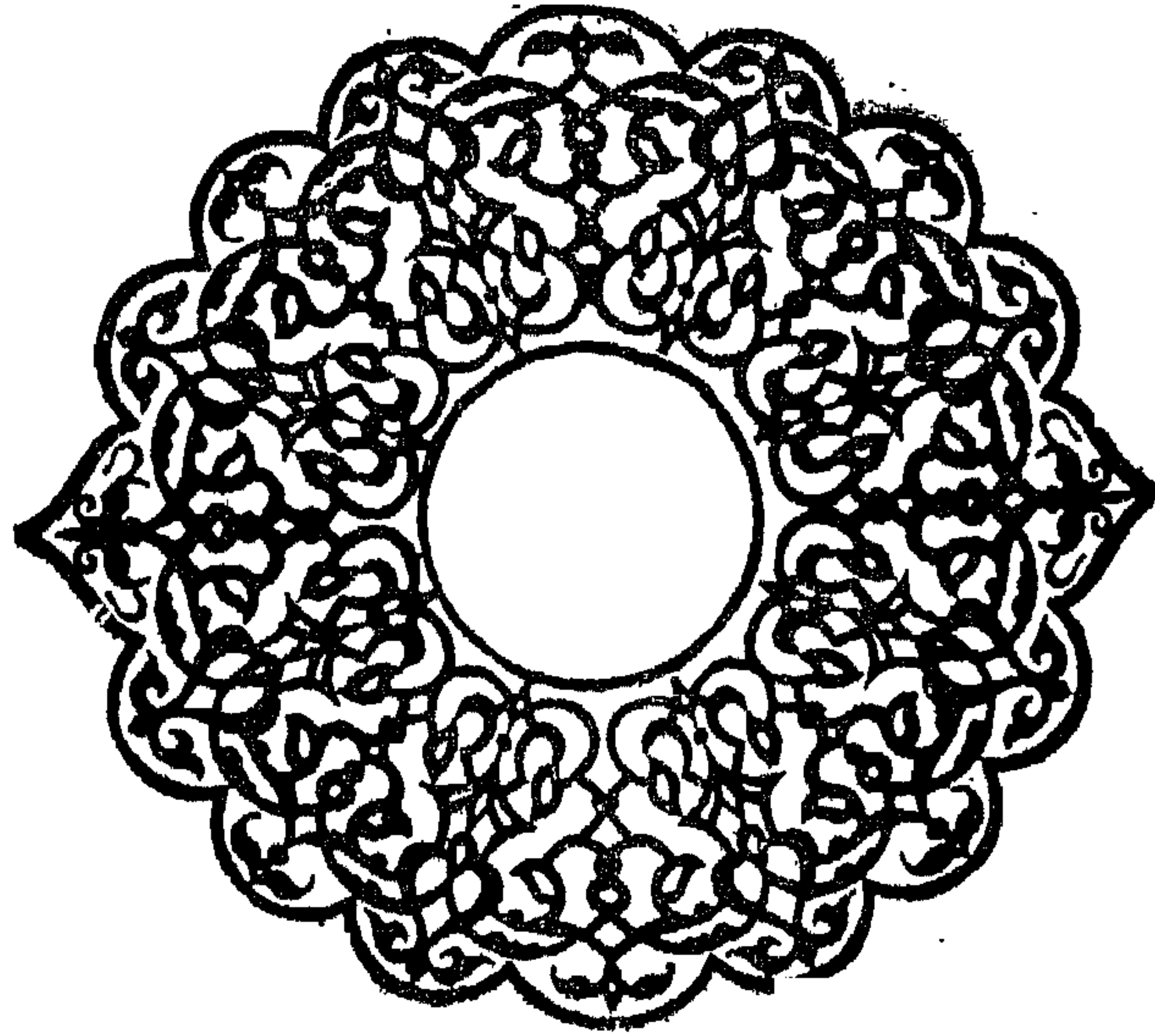
وعلى هذه الأسس جرى عمله في وضع
المصطلح العلمي على مدى تلك السنين الأربعين
وما زال :

- ١٥ -

وهكذا ينقش غبار البحث عن جو
مصفى، تلتقي فيه النتائج التنفيذية بأراء عملية

مطبقة، وحسينا من ترديد هذه النتائج أنها
تذكير بضرورة العمل على تزكية لغة العلم
العربية ، والقصد إلى تنمية الإنتاج العلمي
فيها . وهذا فضل للبحث وصاحبه يذكر فلا
ينكر، ويشكر فلا يكفر . ومن ثم يطيب لي
أن تكون خاتمة النقد والرد تحية للكاتب وما
كتب :

محمد شوقي أمين
عضو المجمع



ثراء اللغة العربية بأصول المصطلحات الجيولوجية

للدكتور محمد يوسف حسن



في بحث سابق^(١)

كيف بزَّ العرب

في عصر النهضة^(٢)

العلمية الإسلامية من سبقوهم من

يونان ورومان، في سلك المصطلحات

الجيولوجية من أصول لغتهم

الزاخرة بها ، وكيف أن هذا يرجع إلى

طبيعة البيئة التي عاش فيها المجتمع

العربي قبل ظهور الإسلام وإبان ظهوره .

وقد كان العربي، بتأثير تلك البيئة ،

يعنى بابتكار الألفاظ واشتقاق المعاني

لوصف معالمها المتباينة الممتازة بالمظاهر

الطبيعية الأرضية من جبال ووهاد ،

ومن مفاصل^(٣) وتلاع ، ومن شعاب

وجُدَد بيض وحمَر مختلف ألوانها ،

ومن حصى ورمال ، ومن جِروْل^(٤) و

وحصيم^(٥) ، ومن فُهور^(٦) وجلاميد .

وكان يميّز من الصخر المختلف : المرو

والأعبل^(٧) والغريب^(٨) والظّر^(٩)

والصّوان والمرمر والبلنط^(١٠) والرخام .

ومن المعادن والجوهر : الدر والياقوت^(١١)

والطّلق^(١٢) . والجَزَع والعقيق .

(١) مجلة مجمع الله العربية ، الجزء (٣٢) سنة ١٩٧٣ .

(٢) المفصل : ما بين الجبلين من رمل وحصى صغار .

(٣) الأرض ذات الحجارة .

(٤) الفهر : القطعة من الحجر ملء الكف .

(٥) الشديد السواد ، توصف به خاصة الحجارة والجبال .

(٦) الحجر كالرّخام ، إلا أنه دونه في الهشاشة واللين والرخاوة .

(٧) سيد المعادن بعد الماس ، وهو من الألفاظ القرآنية ، ورد في سورة الرحمن : « كأنهن الياقوت والمرجان .

وقيل إنها فارسية أو يونانية معربة ، ولكن العرب تكلمت بها قبل الإسلام ، ويقول أحمد محمد شاكر في شرح

« المعرب للجواليق » : « الظاهر أنه عربي من مادة أميتت كما أميت كثير من المواد » ص ٤٠٤ ، سنة ١٩٦٩ .

(٨) حجر براق شفاف ذو أطباق يطحن فيكون مسحوقاً أبيض .

ومن الأرض : الهرشم^(١) والمرمريس^(٢)
والرواهص^(٣) والخبار^(٤) . ومن الماء : الجارى
والخرنار^(٥) والحسوى والحشرج^(٦)
ومن العيون : البارد والحثيد^(٧) . ومن
غير ذلك كثير كثير .

ولما انتشر الإسلام واتسعت رقعة
الأرض العربية من حدود الهند والصين
شرقا ، إلى أسبانيا وحدود فرنسا غربا ،
ازدادت هذه الألفاظ وتلك الاشتقاقات
تشكلا وخصبا في هذا المجال بفضل
مانغص به تلك المنطقة من العالم من
ظواهر جيولوجية شتى ، ومن جبال
أنهار وأودية ، ومن معادن بلور وخامات
وأحجار .

وغنى عن التأكيد والبيان ما قام به
مشاهير الجغرافيين والمعدنين العرب
في تلك العصور من أسفار طويلة في أرجاء

تلك الأرض الواسعة سطروا من نتائجها
أسفارا ضخمة ، تعج بالمصطلحات الفنية
العربية الخالصة في تقويم البلدان ،
ووصف الأماكن والمياه ، وفي البحث
عن المعادن والأحجار والجواهر .

أما الفرنجة في غرب أوروبا إبان
عصر النهضة وإحياء العلوم فإنهم لما
نهلوا من علوم الشرق ، جعلوا اللغة
اللاتينية لغة العلم عندهم . ولما بدأوا
ممارسون لغاتهم الأصلية بعد ذلك في هذا
المجال ، اضطروا إلى الإسراف في
الاستعارة من الأصول اللاتينية واليونانية
وحتى من الأصول العربية^(٨) لسك
المصطلحات العلمية ، وذلك لقصور
لغاتهم عن استيعاب المعانى العلمية
الجديدة ، وتقديم الأصول المناسبة
للمتغيرات اللانهائية فيها .

(١) الرشم والنخر من الجبال .

(٢) الأرض الصلبة لا تنبت شيئا لصلابتها .

(٣) الصخور المترابطة الثابتة .

(٤) مالان واسترخى من الأرض وساخت فيه قوائم الدواب .

(٥) الماء الجارى جريا سريعا .

(٦) الماء في الأباطح لا يفتن له فاذا حفر عنه مقدار ذراع جاش . (٧) الماء الساخن .

(٨) في الرياضيات قالوا : Algebra للجبر ، وفي الفلك والمساحة قالوا Azimuth للسموت ، وفي الجيولوجيا

قالوا : Erg للمراق و Seif dunes للكشبان السيفية ، وقالوا : Gravel الجراول ، وقالوا Adobe للطوب .. إلخ .

أما كتابات العرب في عصور النهضة العلمية الإسلامية ، ككتابات الجاحظ والكندي والبیرونی والقزوينی وابن سینا والسکتي « الوطواط » وابن الأکثانی وإخوان الصفا والتيفاشي وغيرهم ، فتضم زائراً من المصطلحات الجيولوجية في أوصاف الجبال والطبقات والعيون والأحجار والمعادن والجواهر وفي نظريات قيام الجبال وتآكلها ، وتحركات البر والبحر ، ومن مصطلحات الصناعة الجيولوجية والاستكشاف في تخليص المعادن من خاماتها وقطع الجواهر والبلّور وصقلها وفي تمييز الحر والزائف منها ، وغير ذلك مما يشهد بأن اللغة العربية لم تقصر عن استيعاب طموحهم والإحاطة بآفاق كشوفهم بتقديم المادة الصالحة لكل ما ابتكروه أو نقلوه .

وفي عصر النهضة العلمية العربية الحديثة ، وبفضل جهود مجمع اللغة ، ودأب القائمين عليه في التشجيع على البحث والاستنباط في نقل المصطلحات ، مازالت اللغة العربية تثبت جدارتها في تحقيق المهمة ، ومازلنا نلمس

ثراءها التليد ونبعها الفياض في تزويد الاصطلاحيين بكل ما يطلبون من أصول ، حتى بلغ ما نقله أعضاء المجمع وخبرائه في مجال المصطلحات الجيولوجية ما ينيف على الخمسة آلاف من المصطلحات : جلّها من أصول واشتقاقات عربية أصيلة .

ويهدف هذا البحث إلى التدليل على أن بحر اللغة العربية مازال زائراً بالأصول البكر الصالحة للاستعمال [والاشتقاق الجيولوجي ، والتي تفي بكل حاجات المشتغلين بهذا العلم من نقل مصطلحات أجنبية إلى العربية أو ابتكار مصطلحات جيولوجية جديدة أصلاً ، وأنه سيظل يواقينا بمدد فياض من هذه الأصول .

وقد ضربت في بحث سابق^(١) بعض الأمثلة على قدرة اللغة العربية على الإحاطة بكثير من المتسلسلات الاصطلاحية الجيولوجية في الموضوع الواحد . وهذا مثال جديد من أروع الأمثلة في هذا

(١) مجلة مجمع اللغة العربية ، (الجزء ٣٢) سنة ١٩٧٣ .

الباب : سلسلة من خمسة عشر لفظاً
ليس بينها إلا لفظ واحد معرب ،
غير أنه دخل معاجم العربية من
قديم وليس عن طريق التعريب العلمي
على أى حال . أما المقابلات الإنجليزية
لهذه السلسلة فإنها تضم ستة ألفاظ غير
إنجليزية ، ولكن من أصول لاتينية
أو إغريقية ، - أى أنك إذا
اطلعت على معجم عربى متوسط
لوجدت فيه ضالتك فى كل معانى هذه
السلسلة من الألفاظ العربية الأصلية ،
ولكنك تفتقد ستة منها فى المعجم
الإنجليزى ، ولابد لك من البحث عنها
فى المعاجم الإنجليزية الكبرى التى تهتم
بالمصطلحات العلمية وتعنى بذكر
الأصول اللاتينية والإغريقية .
وهذه السلسلة المشار إليها ،
وهى فى الأنواع المختلفة من المواد
الطينية ، مرتبة حسب الترتيب الهجائى
العربى : -

المصطلح العربى	أصله	معناه	المصطلح الإنجليزى
١ - البَصْر - البَصْرَة	بصر	الطين العلك الجيد فيه حصى .	Boulder clay
٢ - البَصْرَة	بصر	الأرض الطيبة الحمراء	Laterite *
٣ - الجُلَاهِق ^(١)	—	الطين المدور الأملس	Mudstone - Slate
٤ - الجَنْد	جند	حجارة تشبه الطين	Saprolite *
٥ - الحَمَاء	حَمَىء	الطين الأسود المنتن	Peat
٦ - الخُثْ	خث	غثاء السيل إذا خلفه ونضب عنه حتى جفّ .	

(*) كلمات غير انجليزية .

(١) فارسى معرب قديم .

تابع جدول المصطلحات

المصطلح الإنجليزي	معناه	أصله	المصطلح العربي
Ooze	الطين المبتل لا يسيل	ردغ - رزغ	٧ - الرَّدْغ - الرَزْغ
Clay	الطين اليابس يصلصل	صلصل	٨ - الصَّلْصَل
Shale	طين يابس فيه مادة الطفل الرخص الناعم الدقيق	طفل	٩ - الطُّفَال
Alluvium *	ما يحمله السيل ويستقر على الأرض	طَمَا	١٠ - الطَّمَى
Varve *	الطين الرقيق (يترسب في موسم أو في مدة قصيرة)	طمل	١١ - الطَّمْلَة
Loess *	دِقاق التراب	طاس	١٢ - الطَّيْس
Mud	التراب المختلط بالماء	طان	١٣ - الطَّيْن
Silt	الطين يحمله السيل	غَرِن	١٤ - الغَرِين
Kaolin	الطين اللزج الأخضر الحر (ومادة الخزف عموما)	غَضُر	١٥ - الغَضَار

أو الماء أو الحركات الأرضية أو الصخور
وما تحوى من معادن وخامات وبنيات
هندسية وغير ذلك .

ومن يراجع المعاجم العربية لا يعدم
أن يجد في كل مادة تقريبا أصلا أو
أكثر يصلح للتعبيرات الجيولوجية
أو لاشتقاق المصطلحات الخاصة بالأرض

(*) كلمات غير انجليزية

وليس من سبيل في مقال أو سلسلة قصيرة من مقالات أن يحاط بكل ما تقدمه لغة الضاد من مادة صالحة للاستعمال في مصطلحات الجيولوجيا . لكننا في هذا البحث سنقدم عينات من هذه الأصول ومشتقاتها في الأحرف السبعة الأولى فقط من المعجم على سبيل المثال لا الحصر ، لنذكر بها على ثراء هذه اللغة بأصول تلك المصطلحات .

ورب قائل يقول : هذا نبش عن الخبء في أجداث الألفاظ البائدة ، واستحاثه لما ضاع منها في رغام المعاجم القديمة .

لكن هذا قول مردود ، فمأ تقدمه هنا من ألفاظ تكلمت بها العرب ، وهي مدونة في معاجمهم الآن . وغرابة الكلام تنشأ من عدم استعماله ، وما زالت اللغة العربية حية والحمد لله ، بل لها مكان في الصدارة بين اللغات العالمية . وهل في استعمال المصطلحات اللاتينية والإغريقية بأحرفنا العربية ونطقنا العربي سهولة أو بعداً عن الغرابة وهي مستقاة من هاتين اللغتين البائدتين ، اللتين تشتق منهما معظم المصطلحات في اللغات الأوروبية الحية ؟ فلماذا نأثي نحن اليوم لنستعير ألفاظها كما هي أو نعربها تعريباً ، وعربيتنا أولى بإحياء أصولها العريقة ؟ !

وهذه مختارات من الأصول الصالحة للاستعمال الجيولوجي في الأحرف السبعة الأولى من المعجم :

حرف الهمزة :

الأصل	الاشتقاق	الغرض الاصطلاحي	المقابل الانجليزي
أَبْن	إِبَان الشيء : أوانه	أزمنة الحفريات وأعمار الحوادث الجيولوجية الصغيرة .	Chron
أَبَد	الأبد : الدهر آبدة وجمعها أوابد : بقيت زمنا طويلا .	الزمن الجيولوجي كله .	Geological time
أَثَر	الأثارة : العلامة وبقيت الشيء	الحفريات التي لم يطرأ عليها تغير يذكر أزمانا جيولوجية طويلة .	Conservative Fossils
أَثَل	الأثلة : الأصل	الحفريات تذهب وتبقى آثارها في الصخور ، العلم المختص بدراساتها (علم الآثارات ، وهو غير علم الآثار المعروف) .	Trace fossils Ichnology
أَجَج	الأجاج : ماء ياندغ الفم بهمارته أو ملوخته .	الموارد الإقليمية القديمة للصهارة . أصول السلاسل الحفرية .	Stocks
أَجُن	ماء أجين : فسد وتغير لونه وطعمه ورائحته	لوصف البيئة البحرية الزائدة الملوحة .	Hypersaline
أَدَم	الأديم من الأرض مايلي وجهها . الإيدامة	وصف للمياه المحتبسة غير المهواة وصف للبيئة المائية غير الصالحة للحياة	Foeted waters Euxinic enoironment
		الصخور المتفككة البالية فوق صخر الأساس .	Regolith Mantle rock
		أرض صلبة بلا حجارة ، جمعها أياديم .	Stoney desert Hamada

الأصل	الاشتقاق	الغرض الاصطلاحي	المقابل الانجليزي
أَسِيَّ	الآسية : الدَّعامة والأسطوانة والبناء المحكم أساسه	لوصف العمود الوسطى في المرجان والحلزون وأعمدة التقوية في درقات بعض القنافذ البحرية .	Collumella Buttrusses
أَفَك	المؤتفكات : الريح تختلف مهايبها . أثتفكت الأرض : انقلبت بمن عليها .	لوصف الطيات والصدوع المقلوبة	Reverse faults Recumbent folds
أَكَّرَ	أَكَّرَ الأرض حرثها ، وأرض أكيرة (قياس) . الأكرة : حفرة تعمق ليتجمع فيها الماء .	أكير : لأرض المثالج بعد زوال الجليد عنها . لمصارف المناجم .	Till Tillite
أَمَت	الأمّت : المكان المرتفع وصغار التلال والاختلاف في المكان ارتفاعا وانخفاضا ورقة وصلابة .	لنوع من الطوبوغرافية السيئة تنشأ من فعل العوامل الطبيعية على جيولوجية غير متجانسة .	Badlands
أَنِفَ	الآنّف : الماضي القريب	يصلح اسما لآخر الأزمنة الجيولوجية فهو قد انقضى وليس جزءا من الحاضر وبعضهم يسميه الزمن الحديث أو الحاضر (خطأ) .	Recent period
أَهَبَ	الإهاب : الجلد المغلف لجسم الحيوان قبل أن يدبغ .	لوصف الطبقات الخارجية من هياكل المراجين وما شابهها	Theca

حرف الباء :

الأصل	الاشتقاق	الغرض الاصطلاحي	المقابل الانجليزي
بَتَكَ	بتكة : قطعة وهو بَتَكَ والقطعة منه بتكة	للأرض المقطعة بالسيول أو التصدع الشديد أو غيره	Disected land Highly faulted
بَتَل	البتيل : المسيل في أسفل الوادي .	يصلح لوصف درجات الأنهار ومراتبها ومواقعها	
بَشَر	الباشر : الماء البادي من غير حفر .	في الجيولوجيا المائية ويجوز استعماله في جيولوجيا النفط.	
بَشَن	البشنة : الأرض السهلة المدينة .		
بَجَبَج	البججاج من الرمل ؛ المجتمع الضخم منه	التجمعات الرملية العظمى	Sand sheets Sand seas
بَرَض	البراض : البئر القليلة الماء .		
بَرَق	البرقاء : أرض غليظة فيها حجارة ورمل وطين	لرواسب الأنهار القوية القديمة البائدة وتكون أحيانا معادن للعناصر الثمينة كالذهب والألماس	Placers Placer deposits
بَرَقَش	نقش بالألوان شتى وزين .	لوصف الزخارف اللونية والتركيبية في أصداف الحيوان ، ولوصف الصخور ذات المساحات المختلفة الألوان	Ornamentation Mottled rocks

(تابع) حرف الباء :

الأصل	الاشتقاق	الغرض الاصطلاحي	المقابل الانجليزي
بَرَّة	البرهة : مدة من الزمان .	يمكن أن يطلق على ما بهى معين من الزمن الجيولوجى (*) .	
بَسَق	البسقة : الأرض ذات الحجارة السود .	يمكن استعماله لوصف الأصقاع المكونة في أساسها من الصخور البركانية القاعدية .	Trappes
	بساقه القمر : معدن أبيض صاف يتلألأ		Moonstone
بَصْر	البُصْر والبُصْرَة : البَصْرَة :	الأرض الطيبة الحمراء .	Laterite
	البَصْرَة :	الطين العلك الجيد فيه حصى .	Boulderclay
بَلَنْطُ	حجر كالرخام	إلا أنه دونه في الهشاشة واللين والرخاوة	Semicrystalline Limestone
بَلَوْر	بلور : جوهـر أبيض شفاف وقيل هو نوع من الزجاج .	السليكا المتبلورة - بلورات المرو	Crystalline Quartz
باح	الباحة : الساحة	معالم جيومورفولوجية مستديرة تحدثها المشالج عند منابعها . ومساحات محددة فارغة في أصداف بعض الرخويات !!	Circus
		يصلح في علم الجيولوجيا المائية و جيولوجيا البترول .	Hinge area Cardinal area etc
بَيِّن	البَيِّن : البئر الواسعة العميقة !!		

(*) يلزم الاصطلاح في تحديد المدى الزمني الجيولوجي لكل من الأصول المختلفة الخاصة بالإمتدادات الزمنية في اللغة .

حرف التاء :

الأصل	الاشتقاق	الغرض الاصطلاحي	المقابل الإنجليزي
حَبَبٌ	التَّحْبَاب: عرق الفضة وفحوها في حجر المعدن		
تَخَّ	تَخَّ العجين ونحوه : لان واسترخى لكثرة الماء فيه .	يصلح لوصف ما ينتاب أنواع الطين بالاختلاط بالماء .	يصلح في الجيولوجيا الهندسية وجيولوجيا المناجم
تَرُصَ	تَرِيصٌ : محكم ومضبوط .	لوصف الصخور ذات الحبيبات الشديدة الانضغاط ؛ فلا تترك بينها مسافات يمر فيها الماء .	Compact grains
تَلَعَ	التلعة : ما ارتفع من الأرض ومسيل الماء من أعلى إلى أسفل وماء اتسع من فم الوادي .	يصلح لرواسب الطمي في السيول الشديدة الانحدار عن سفح الجبل	alluvial fans
تلف	التلفة : الهضبة المنيعه يخشى التلف على من علاها .	يصلح في وصف معالم النحت في مجال الجيومورفولوجيا	Precipitous Scarps
التيهور	جرف الرمل .		
تَهَمٌ	التهامة : أرض منخفضة بين ساحل البحر وسلسلة جبلية على امتداده .	لتسمية هذا المَعْلَم في علم الجيومورفولوجيا	

حرف الثاء :

الأصل	الاشتقاق	الغرض الاصطلاحي	المقابل الانجليزي
ثَبَقَ	النهر امتلاً وأسرع ماؤه	في الفيضان وتجدد شباب الأنهار بالرفع عند المنبع .	Rejuvenation
ثَلَّ	الثَّلَّة : الجماعة من الناس	يستعار للحيوان والحفريات	Association
ثَلَمَ	الثُّلْمَة : والثَّلَم : الانكسار أو الشق أو إزالة جزء من الشيء	يستعار للمراحل الضائعة من السجل الجيولوجي .	Diastem

حرف الجيم :

الأصل	الاشتقاق	الغرض الاصطلاحي	المقابل الانجليزي
جَدَد	الجَدَدُ : الأرض المستوية		Peneplain
جَدَّ	الجُدَاذَة : الحَجَرَةُ من حجارة الذهب	كسارة المرو لحامل الذهب .	Gold-bearing Quartz
	الجُدَاذ : المقطع أو المكسر	الصخور الرسوبية المهشمة المكونة أصلاً من كسارة صخور سابقة .	Breccia
جَرَشَ	الجَرِيش : الشيء يدق ولا ينعم دقه .	طحن الصخر في أعمال المناجم .	
جَسَّ	جَسَّ الأرض : وطوها وبحثها وفحص ما فيها .	أعمال الاستكشاف الجيولوجية المختلفة .	Exploration

(تابع) حرف الجيم :

الأصل	الاشتقاق	الغرض الاصطلاحي	المقابل الانجليزي
جفر	الجُفْرَة : الحفرة الواسعة المستديرة .	الحفر الواسعة الناشئة من فوهات البراكين الخامدة .	Caldera
جند	الجَنْدُ : حجارة تشبه الطين .	اسم للطين المتحجر أو المتحول .	Mudstone-Slate?
جَمَّ	المَجَمُّ : مستقر الماء	في الطبقات الحاملة للماء الجوفي .	Aquifer

حرف الحاء :

الأصل	الاشتقاق	الغرض الاصطلاحي	المقابل الانجليزي
حبس	وعاء حابس للماء	البحر خزر الجالبة للماء	Water retaining
حث	الْحُثُّ : المذقوق من كل شيء .	الصخور المهشمة تهشبا شديدا بطرق التحول الحركي العنيف .	Pulverised rocks
حثل	الحثالة : الردىء من كل شيء والنفاية .	المعادن غير ذات القيمة الاقتصادية في الخامات والتي لا يستعمل الخام من أجلها .	Gangue minerals
حدّ	المَحَادَدَة : المشاركة في الحدود .	لوصف التكاوين والطبقات المشاركة في الحدود .	Boundary Contacts
حتى	الحصى وجمعها أحساء	السهل من الأرض يستنقع فيه الماء ؛ ورمل تحته صلابة يحجز الماء .	

(تابع) حرف الحاء :

الأصل	الاشتقاق	الغرض الاصطلاحي	المقابل الانجليزي
حَشْرَج	الحَشْرَج : الماء في أباطح الأرض لا يفطن له فإذا حفر عنه مقدار ذراع جاش .		Vadose water
حصل	المُحَصِّل : الذي يخرج تراب الفضة من حجارة المعدن والذي يخرج تراب المعدن - التحصيل : هذا الفن .		Ore dressing
حصم	الحَصِيم : صغار الحصى للصخور المكونة من الحصى الدقيق		Grit
حقب	الحقَب : المدة الطويلة لمصطلحات الجيولوجيا التاريخية من الدهر ، جمعها حقَبٌ وأحقاب . الحقبة المدة لا وقت لها أو السنة ، جمعها حقَب وحقوب .		Era
حكك	الحَكَاكَة : ما تساقط من الشيء عند الحك .	في مجال اختبار المعادن والكشف عنها .	Streak
	المَحَكُّ : ما يحك به من حبيبر وغيره .	لوح للكشف عن المعادن بالحك	Streak plate
	الحَكَكُ : حجارة رخوة بيض تحك بها الأرجل .	بعض الصخور البركانية الفقاعية الخفيفة الحمضية .	Pumice
حمأ	الحمأ : الطين الأسود المنتن	الصخور الطينية الناشئة في قعور المستنقعات .	Saprobolic Saproliite

(تابع) حرف الحاء :

الأصل	الاشتقاق	الغرض الاصطلاحي	المقابل الانجليزي
حمم	الحمّة : عين ماء حارة تنبع من الأرض . حممة وجمعها حمم . كل ما احترق من النار	صفة للصخور الرسوبية الناشئة من أصل بركاني .	Hot spring Pyroclastic rocks
حند	الحند : الماء الساخن واللحم المشوي يقطر منه الدهن	يستعار للمياه الجوفية الحارة والصخور التي تعرضت للحرق أو الحرارة العالية فكادت أن تتحول .	Hydrothermal waters Baked rocks
حنو	الحنو : منحرج الوادي		Meander
حاث	أحاث الأرض : آثارها وطلب ما فيها .	البحث بالطرق المختلفة عن مكامن الثروات المعدنية (علم الاستحاثات) .	Prospecting

حرف الخاء :

الأصل	الاشتقاق	الغرض الاصطلاحي	المقابل الانجليزي
خبب	الخبُّ : سهل بين جنتين :	مادة لمصطلجات علم الجيومورفولوجيا	
خبير	الخبّار : مالان من الأرض واستخرجي وساخت فيه قوائم الدواب .		

(تابع) حرف الخاء :

الأصل	الاشتقاق	الغرض الاصطلاحي	المقابل الانجليزي
خث :	الخُثُّ : غطاء السيل إذا خلفه ونضب عنه حتى جف .	يستعار للرواسب النباتية الأصل التي لم تتفحم بعد أو أصابها تفحم بسيط .	Peat
خثر	الخَثَار : فضلة الشيء وبقيته .	تستعمل في التحاليل الكيميائية للمصخور الرسوبية وفي وصف الرواسب المتبقية من غيرها .	Insoluble residue Residual deposits
خذب	الخاذبة : الشجة الشديدة جمعها خوادب .	لوصف الشقوق الكبرى بالجليد وبعض الصخور الطباشيرية .	Crevasses
خرب	الخربة : الثقب الواسعة المستديرة .	لوصف ما تحدثه رواسب الملح المنضغطة في الصخور الرسوبية التي تعلوها فتثقبها ؛ ولوصف اختراق طبقات اللب للطبقات المطوية الضعيفة .	Diapir structures
خرخر	الخرخار : صفة للماء الجاري جريا سريعا .	يستعار لوصف مجارى الأنهار الشابة عندما تتقدم مراحل تأكل المساقط المائية .	Rapids

فيها أو استعارتها ، لتأدية معناها .
فاللغة بخير ، والعلم العربي بخير ، مع
الاجتهاد ، والتوفيق من عند الله .

محمد يوسف حسن

والبحث الدقيق المستأنى في المعاجم
العربية يمكن أن يزود الباحث الجيولوجي
بمعجم وافٍ من الأصول العربية
والأغراض الجيولوجية التي يمكن استعمالها

التطور اللغوي بين القوانين الصوتية والقياس

للدكتور رمضان عبد التواب



أفى بداية حديثى ،
مضطرا إلى تأكيد

أمر ، فرغ منها المحدثون من علماء
اللغات ، منذ فترة طويلة ، وهى تعدّ
عندهم الآن من البديهيات ، على حين
يجادلنا فيها بعض الدارسين العرب ، ممن
بقى فى الكهوف القديمة ، يرددون قولتهم
المشهورة : ليس فى الإمكان أبدع مما كان .

وأول هذه الأمور أن اللغة كائن حى ،
لأنها تحيا على ألسنة المتكلمين بها ، وهم
من الأحياء ، وهى لذلك تتطور وتتغير
بفعل الزمن ، كما يتطور الكائن الحى
ويتغير . واللغة العربية الجاهلية ، ليست
بدعا بين اللغات ، فهى حلقة فى سلسلة
حلقات طويلة ، من التطور والتغير ،

أى أنها لم تكن كما يتخيل بعض الناس ،
بصورتها الى رويت لنا ، منذ أن خلق
الله الأرض ومن عليها .

وإننا لنبتسم لسذاجة من روى لنا
شعرا عربياً ، على لسان قحطان بن هود
عليه السلام ، يسلى به بعض ما كان
بأبيه هود - من الكآبة والعجز والغم
والحزن ، على قومه عاد ، فقال :

إنى رأيت أبى هودا يؤرّقه
حزن دخيل وبلبال وإسهاد

لا يحزننك أن طاحت بداهية
عاد بن لاوى فعاد بشما عاد^(١)

بل لقد رووا لنا أن آدم عليه السلام ،
قال شعرا عربيا فى رثاء ابنه « هابيل »
حين قتله « قابيل » وقالوا : إن أول

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام للأصمعى ص ٤

من أقوى في الشعر ، هو آدم عليه السلام ،
وهو يقول في قصيدته تلك :

تغيّرت البلاد ومن عليها
فوجه الأرض مغبرٌ قبيحٌ

تغيّر كلُّ ذى حسن وطيب
وقل بشاشة الوجه المليح^(١)

والحقيقة الثانية أن مانسميه نحن
بالعربية الفصحى ، يشتمل في الكثير
من ظواهره ، على بعض حلقات التطور ،
أى أننا نلاحظ في هذه اللغة أحيانا ،
صورتين أو أكثر لظاهرة لغوية واحدة ،
وبعض هذه الصور يمثل فترة تاريخية ،
أقدم من الصور الأخرى . وسأضرب هنا
بعض الأمثلة ، لكى تتضح هذه القضية :

يظن بعض الناس أن السنين وشيوف ،
أداتان مختلفتان للدلالة على الاستقبال ،
وضعا هكذا وضعا ، منذ أن خلق الله
العربية . وقد خُدع بذلك نحاة البصرة ،
وحكّموا المنطق العقلى ، فى أن زيادة
المبنى تدل على زيادة المعنى ؛ فقالوا :
إن سوف تدل على الاستقبال البعيد ،
والسين تدل على الاستقبال القريب .

(١) الدرر اللوامع على معجم الهوامع ٢ - ٢٠٩ .

وليس فى نصوص اللغة ما يشهد لتكلفتهم
هذا ؛ فقولته تعالى مثلا « فسيكفّيكهم » ،
ليس معناه تحقق هذه الكفاية فى الغد ،
كما أن قوله تعالى : « ولسوف يعطيك
ربك فترضى » ، ليس معناه تأخر
الإعطاء عاما أو عامين .

بل إن الحقيقة أن سوف أقدم من
السين ، والسين جزء مقتطع منها . ومن
الحقائق المقررة عند المحدثين من علماء
اللغات ، أن كثرة الاستعمال تبلى
الألفاظ ، وتجعلها عرضة لقص أطرافها ،
تماما كما تبلى العملات المعدنية والورقية ،
التي تقيدها أيدي البشر .

ومن الألفاظ التى تعانى هذا القصر ،
وذلك البلى ، هى الأدوات التى تدور
كثيرا فى الكلام ، وكذلك كلمات
التحية التى يرددونها الناس صباح
مساء . ويكفى أن نتذكر هنا عبارة
« عم صباحا » المتطورة عن : « أنعم
صباحا » و « م الله » المأخوذة من :
« أيمن الله » ، وقولنا مثلا : « سلخير »
بدلا من : « مساء الخير » ، بل إن

كلمة : « للساعة » بمعنى « الآن » ،
 أصبحت في مصر : « لِسَه » وفي شامالي
 إفريقيا : « لِسْع » وفي السودان :
 « للسائي » ، وعبارة : « رايح أعمل
 كذا » تطورت إلى « حاعمل كذا » .
 والناس في نجد يقولون : « سَم »
 بمعنى : « نعم » ، وهي مقتطعة فيما
 نعتقد من : « سمعا وطاعة » ، كما
 يقولون : « أبي كذا » وهي متطورة عن :
 « أبغى » . وغير ذلك من الكلمات الكثيرة .

وهذا هو ما حدث بالضبط لكلمة :
 « سوف » القديمة ، التي توجد في بعض
 اللغات السامية الأخرى ، كالآرامية فهي
 فيها : (Sawpā) ، وهي اسم معناه
 فيها الغاية والنهاية . هذه الأداة التي
 أصبحت تدل في العربية القديمة ، على
 الاستقبال في الأفعال ، كانت قد بدأت
 تعاني قصا لبعض أجزئها ، في الفترة
 التي سبقت نزول القرآن الكريم ،
 فقد ورد أن العرب « قالوا : سويكون ،
 وسوف يكون ، وسايكون ، وسيكون^(١) » ،

وعند ما جاء القرآن الكريم ، سجل
 لنا إحدى صور التطور في « سوف » ،

أو قل المرحلة الأخيرة منه ، مع الأصل
 الذي كان لا يزال يعيش معه جنبا إلى
 جنب ، كما روى لنا اللغويون صورا
 التطور الأخرى ، التي لم يكتب لها ما كتب
 لغيرها من الخلود .

وهذا مثال آخر : روى لنا في العربية
 الفصحى ، صيغتان من صيغ الأفعال ،
 بصورتين مختلفتين ، وهما : تفعل
 وتفاعل ، إلى جانب : اتفعل واتفاعل .
 والصورة الأولى هاتين الصيغتين هي
 الأقدم ، وعليها جمهرة الأفعال التي
 رويت لنا في الفصحى ، مثل : تعلم ،
 وتكلم ، وتقاتل ، وتضارب . كما
 روى لنا من الصورة الثانية قوله تعالى :
 « حتى إذا أداركوا فيها جميعا » ،
 وقوله تعالى : « اثنا قاتم إلى الأرض » .
 وقد حدث التطور في هاتين الصيغتين ،
 أول ما حدث في المضارع ؛ إذ لنا أن
 نعصور أن الأصل هو : « يَتَثَاقل » ،
 ثم سكنت التاء للتخفيف ؛ إذ تكره
 العربية توالي المتحركات - كما هو
 معروف - فتضير الكلمة : « يَتَثَاقل » ،
 ثم انقلبت التاء ثاء ، لقربها منها في

(١) انظر : لسان العرب . (سوف) ١١ - ٦٥ .

المخرج والصفة ، فصارت الكلمة :
« يثاقل » : وهنا يشتق من المضارع
ماض جديد ، هو : « اثاقل » .

وقد كانت هذه الظاهرة في سبيل
التطور في العربية الفصحى ، عندما جاء
الإسلام ؛ ولذلك نجد أمثلتها في القرآن
الكريم ، جنباً إلى جنب مع الصيغ
القديمة التي لم يحدث فيها تطور .
ونحن نعدّ هذا دليلاً على أن التطور
اللغوي في آية ظاهرة لغوية ، لا يحدث
فجأة ، فيقضى بين يوم وليلة على كل
أثر للقديم ؛ ففي القرآن الكريم ، أمثلة
كثيرة للصيغ القديمة ، مثل قوله تعالى :
« وما يتذكر إلا من ينيب » ، بل إن
الآية الواحدة لتحتوي في بعض الأحيان ،
على الصورتين معاً ؛ كقوله تعالى :
« لِيَذَّبُرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ » .

وقد ظل هذا التطور سائراً في طريقه
في لهجات الخطاب ، حتى ساد وحده
وقضى على الظاهرة القديمة ؛ ففي اللهجة
العامية المصرية ، نقول مثلاً : فلان
اصدعت دماغه ، واسرع في كلامه ،
واشهى الأكل ، واصور ، واطوع في
الجيش ، ولا أثر للصيغة القديمة في

لهجات الخطاب ؛ إذ لا يقال فيها مثلاً :
فلان تصدعت دماغه ، وتسرع في
كلامه ، وتشهى الأكل ، وتصور ،
وتطوع في الجيش . وكذلك الحال
في ؟ صيغة : « تفاعل » ؛ إذ ماتت هي
الأخرى ، وحلت ؟ محلها صيغة : « اتفاعل »
التي شاهدنا مولدها ، في عصر نزول
القرآن الكريم ، إذ نقول الآن في لهجات
الخطاب : فلان اطاول على فلان ،
واشاتم هو وهو ، واساهل معاه ،
واصالحوا سوا ، بدلاً من : تطاول عليه ،
وتشاتم ، وتساهل ، وتصالح .

والقضية الثالثة التي أريد تأكيدها
هنا ، أن العربية الفصحى لها ظرف خاص ،
لم يتوفر لأي لغة من لغات العالم . وهذا
الظرف يجعلنا نرفض ماينادى به بعض
الغافلين - عن حسن نية أو سوء نية
أحياناً - من ترك الحبل على الغارب
للعربية الفصحى ، لكي تتفاعل مع
العاميات ، تأخذ منها وتعطي ، كما
يحدث في اللغات كلها .

حقاً إن اللغة كائن حي ، يتطور على
السنة المتكلمين بها ، فينشأ من هذا
التطور ، اختلاف بين لغة عصر والعصر

الذى سبقه ، وهنا يحدث الصراع بين أنصار الشكل القديم ، وأنصار الشكل الجديد ، وبعد فترة يصبح قديما ما كان بالأنس جديدا ، فيتصارع مع جديد آخر ، وتضمحل لغة العصر الأسبق أو تندثر ، غير أن كل جديد لا يظهر فجأة ، ولا يقضى على القديم بين يوم وليلة ، بل يظل الصراع بينهما لفترة قد تطول أو تقصر ، غير أن الانتصار يكون فى النهاية للشكل الجديد - تلك سنة الحياة ، وتاريخ اللغات جميعها يشهد بهذا ، ولا نعرف لغة على ظهر الأرض ، جمدت على شكل واحد مئات السنين .

غير أن العربية الفصحى لها - كما قلنا - ظرف لم يتوفر لأية لغة من لغات العالم ؛ ذلك أنها ارتبطت بالقرآن الكريم ، منذ أربعة عشر قرنا ، ودون بها التراث العربى الضخم ، الذى كان محوره هو القرآن الكريم فى كثير من مظاهره . وقد كفّل الله لها الحفظ ، مادام يحفظ دينه ، فقال عز من قائل : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » ، ولولا أن شرفها الله عز وجل ، فأنزل بها كتابه

وقيض له من خلقه من يتلوه صباح مساء ، ووعد بحفظه على تعاقب الأزمان - لولا كلُّ هذا لأمست العربية الفصحى لغة أثرية تشبه اللاتينية أو السنسكريتية ، ولسادت اللهجات العربية المختلفة ، وازدادت على الزمان بعدا عن الأصل الذى انسلخت منه .

هذا هو السر الذى يجعلنا لانقيس العربية الفصحى ، بما يحدث فى اللغات الحية المعاصرة ، فإن أقصى عمر هذه اللغات فى شكلها الحاضر ، لا يتعدى قرنين من الزمان ، فهى دائمة التطور والتغير ، وعرضة للتفاعل مع اللغات المجاورة ، تأخذ منها وتعطى ، ولاتجد فى ذلك حرجا ، لأنها لم ترتبط فى فترة فترات حياتها بكتاب مقدس ، كما هو الحال فى العربية .

وقد صدق الشيخ أحمد رضا العاملى حين قال : « وأنا لا أرتاب فى أن اللغة التى حملها الفرنسيين ، أيام الحملات الصليبية ، إلى سوريا لم تكن كاللغة التى حملها أحفادهم إليها فى هذه الأيام ، وأن اللغة التى نظم بها شكسبير قصائده ، لا يفهمها العامى

الإنجليزى اليوم ، أكثر مما يفهم العامى العربى قصائد المتنبى وأبى العلاء المعرى ، وأن لغة موليير الفرنسية - فيما أحسب - بعيدة عن لغة إميل زولا . ولكن لغة المتنبى لم تتغير عن لغة شوقي ، وبينهما ألف عام ، إلا أن لغة المتنبى تخالف [لغة الزاجل فى زجله اليوم ، بل إن لغة الزاجل فى زجله اليوم تخالف لغة الزاجل فى عصر ابن خلدون ^(١) .

إن ارتباط العربية الفصحى بالقرآن الكريم ، لهو السرّ كذلك فى تمسكنا بالعربية الفصحى القديمة ، ودعوتنا إلى دراستها دراسة مستفيضة ، لكى نفهم بها القرآن الكريم ، ومادار حوله من دراسات ، وكذلك الشعر العربى القديم ، الذى يلقى أضواء على المعانى القرآنية ، ويفيد فى توضيح ألفاظ القرآن الكريم . ولقد صدق الصحابى الجليل عبد الله بن عباس ، حين قال : « الشعر ديوان العرب ، فإذا نحف علينا الحرف من القرآن ، الذى أنزله الله بلغة العرب ، رجعنا إلى ديوانها ، فالتمسنا معرفة ذلك منه » ^(٢) .

فهذه العربية الفصحى التى استمرت حية ، أربعة عشر قرناً ، والتى تستمر فى حياتها إلى ما شاء الله - تستمد من ارتباطها بالقرآن الكريم عنصر الحياة وهذه القضية كانت واضحة فى أذهان اللغويين العرب فى الماضى ، فهذا هو أبو حاتم الرازى (المتوفى سنة ٣٢٢ هـ) يقول : « ولولا ما بالناس من الحاجة إلى معرفة لغة العرب ، والاستعانة بالشعر على العلم بغريب القرآن ، وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والصحابة والتابعين ، والأئمة الماضين ، لبطل الشعر ، وانقرض ذكر الشعراء ، ولغى الدهر على آثارهم ، ونسى الناس أيامهم » ^(٣) .

لقد أطلت فى إبراز هذه القضية هنا ، حتى لا يظن بعض الناس ، أننى حين أعالج قضايا التطور اللغوى أكون من أنصار هذا التطور فى العربية فإننى أعالج هذه القضايا هنا من الناحية الوصفية التاريخية ، وهناك فرق كبير فى مناهج اللغة ، بين الوصفية والمعارية

(١) مولد اللغة للعامل ص ٧٢ . (٢) انظر : الإتيان للسيوطى ١ - ١١٩ . (٣) الزينة للرازى ١ - ١١٦

كما أن استخدام اللغويين المحدثين لكلمة « التطور » ، لايعنى تقييم هذا التطور ، والحكم عليه بالحسن أو بالقبح ، فإنه لايعنى عندهم أكثر من مرادف لكلمة : « التغيير » .

وبهذا هنا أن نشير إلى أن هذا التغيير لا يحدث على نحو مشتت غير مطرد ، بل يحدث وفتما لقواعد ثابتة ، يمكن أن نصوغها في دقة ، إذا تناولنا لغة ما ، في عصرين متتابعين من تاريخ تطورها .

والقوانين الصوتية ، تعبر عن علاقة بين حالتين متتابعتين للغة واحدة في وسط اجتماعي معين ، فهي ليست قوانين عامة شبيهة بقوانين علم الطبيعة أو الكيمياء ، ولهذا السبب ، نجد تطورا صوتيا في إحدى اللهجات ، ولا نجد له أثرا في لهجة أخرى .

ومن أبرز القوانين الصوتية أثرا في التطور اللغوي ، هو قانون « المماثلة » بين الأصوات ، فإن أصوات اللغة ، تختلف فيما بينها في الشدة والرخاوة والجهر والهمس ، والتفخيم والترقيق وما إلى ذلك ، فإذا التقى في الكلام

صوتان من مخرج واحد ، أو من مخرجين متقاربين ، وكان أحدهما مجهورا والآخر مهموسا مثلا ، حدث بينهما شد وجذب ، كل واحد منهما يحاول أن يجذب الآخر ناحيته ويجعله يتماثل معه ، في صفاته كلها أو في بعضها ، وهناك اصطلاحات لعلماء الأصوات ، في أنواع التأثير الناتجة عن قانون المماثلة ، فإن أثر الصوت الأول في الثاني فالتأثير (مقبل) ، وإن حدث العكس ، فالتأثير (مدبر) وإن حدثت مماثلة تامة بين الصوتين ، فالتأثير (كلى) وإن كانت المماثلة في بعض خصائص الصوت ، فالتأثير (جزئى) . ولنضرب على ذلك بعض الأمثلة :

فمثال التأثير المقبل الكلى ، قولنا مثلا : « ادعى » ، إذا أصلها : « ادتعى » ، التقت الدال والتاء ، وهما من مخرج واحد ، هو مخرج الأسنان واللثة ، فأثرت الدال وهى متقدمة ، على التاء التى بعدها ، وقلبتهما دالا مماثلة . ومثال التأثير المقبل الجزئى ، قولنا مثلا : « اضطجع » ، إذا أصلها :

« اُصْتَجِع » ، فقد اجتمعت الضاد والتاء وهما من مخرج الأسنان واللثة كذلك فأثرت الضاد على التاء ، وقلبتها إلى صوت مماثل لها في بعض صفاتها وهو الطاء الذى يماثل الضاد في التفخيم .

ومثال التأثير المدبر الكلى ، تأثير النون في « إِنْ » و « أَنْ » و « مِنْ » و « عَنْ » بالميم واللام التى تليها ، فتقلب ميمًا أو لامًا ، مثل : « إِمَّا » و « أَمَّا » و « إِلَّا » و « أَلَّا » و « مِمَّا » و « عَمَّا » وما إلى ذلك .

ومثال التأثير المدبر الجزئى ، تأثير النون بالباء التالية لها ، إذ تقلب إلى صوت من مخرج الباء وهو صوت الميم إذ هو شفوى كالباء وهذا هو ماسماه علماء القراءات العرب بالإقلاب ، فى مثل قوله تعالى : « من بعدما جاءهم » وقوله تعالى : « عليم بذات الصدور » .

ونحب أن نشير هنا إلى شيء مهم وهو أن الصوت لا يمكن أن ينقلب إلى صوت آخر ، بعيد عنه فى المخرج جدًا فلا ينقلب صوت من أصوات الشفة

(١) سر صناعة الإعراب لابن جنى ١-١٩٧ .

أو الأسنان مثلاً ، إلى صوت من أصوات الحلق ، وكذلك العكس ، وقد فطن إلى هذه الحقيقة ، العلامة ابن جنى فقال : فأما قول من قال فى قول تائب : « شرا » : كأنما حشحوها حصاً قودامه

أو أمّ خشف بذى شت وطباق إنه أراد : حشّوا ، فأبدل التاء الوسطى حاء ، فمردود عندنا .

وإنما ذهب إليه البغداديون وأبو بكر ابن السراج معهم ، وسألت أبا على عن فساده ، فقال : العلة فى فساده أن أصل القلب فى الحروف ، إنما هو فيما تقارب منها ، وذلك : الدال والطاء والتاء ، والذال والظاء والثاء ، والهاء والهمزة والميم والنون ، وغير ذلك مما تدانت مخارجه ، فأما الحاء فبعيدة عن التاء ، وبينهما تفاوت يمنع قلب إحداهما إلى أختها^(١) .

هذا هو قانون المماثلة . وهناك قانون صوتى آخر ، يسير فى عكس اتجاه قانون المماثلة وهو ما يعرف عند علماء الأصوات باسم قانون « المخالفة » ؛ فقد عرفنا أن

قانون المماثلة ، يحاول التقريب بين أصوات بينها بعض المخالفات . أما قانون المخالفة ، فإنه يعتمد إلى صوتين متماثلين تماما في كلمة من الكلمات ، فيغير أحدهما إلى صوت آخر ، يغلب أن يكون من أصوات العلة الطويلة ، أو من الأصوات المتوسطة أو المائعة ، المعروفة في اللاتينية باسم Liquida ، وهي اللام والميم والنون والراء ؛ مثال ذلك : « قيراط » و « دينار » بدلا من : « قرّاط » و « دِنّار » ؛ بدليل الجمع : « قراريط » و « دنانير » .

وكان الناس في القرن الثالث الهجري في العراق يقولون في : « إَجّاص » : « إنجاص » وفي : « إَجّانة » : « إنجانة » ؛ ولذلك قال ابن السكيت في كتابه إصلاح المنطق : « ويقال : هو الإَجّاص ، ولا تقل : إنجاص ، وهي الإَجّانة ، ولا تقل : إنجانة ^(١) » .

كما كان أهل الأندلس في القرن الرابع الهجري ، يقولون : « كرناسة »

في : « كراسة » ، كما كانوا يطلقون على الأسد كلمة : « عَدَنيس » بدلا من « عَدَنيس ^(٢) » .

وليس من اللازم أن يكون الصوتان متجاورين ؛ فكلمة : « عنوان » تنطق في بعض اللهجات عندنا : « علوان » ، وكلمة : « لعل » فيها عشر لغات مشهورة ، ومن هذه اللغات : « لعن ^(٣) » ، وهي أثر من آثار قانون المخالفة .

وقد فطن قدماء اللغويين العرب إلى هذه الظاهرة وكانوا يعبرون عنها أحيانا « بكراهية التضعيف » أو « كراهية اجتماع حرفين من جنس واحد » أو « اجتماع الأمثال مكروه » وما أشبه ذلك .

ويرى علماء الأصوات أن السبب في المخالفة من الناحية الصوتية ، هو أن الصوتين المتماثلين ، يحتاجان إلى جهد عضلي في النطق بهما في كلمة واحدة ، ولتيسير هذا المجهود العضلي ، يقلب

(١) إصلاح المنطق لابن السكيت ١٧٦ .

(٢) لحن العوام للزبيدي ٣٥ ، ١٦١ .

(٣) شرح الأشموني على ألفية ابن مالك ١ - ٢٧١ .

أحد الصوتين صوتاً آخر ، من تلك الأصوات التي لا تتطلب جهداً عضلياً ، كاللام والميم والنون .

وتميل العربية إلى التخلص من توالي الأمثال في أبنيثتها ، عن طريق آخر ، إلى جانب طريق المخالفة الصوتية ، ذلك هو طريق الحذف . ومن أمثلة ذلك فيها : صيغ « تَفَعَّل » و « تَفَاعَلَ » و « تَفَعَّلَ » مع تاء المضارعة ؛ مثل : « تتقدّم » و « تتقاتل » و « تتبختر » ، فالكثير في العربية الاكتفاء بتاء واحدة . وفي القرآن الكريم أمثلة كثيرة لذلك ؛ ففيه مثلاً : « تَذَكَّرُونَ » ١٧ مرة بالحذف ، في مقابل : « تتذكرون » ٣ مرات بلا حذف ، كما يقابلنا فيه مثلاً : « تكاد تَمَيِّزُ من الغيظ » بدلاً من : « تتمييز » و « فأنّت عنه تَلَهَّى » بدلاً من : « تلهي » و « نارا تَلَطَّى » بدلاً من : « تلظى » وغير ذلك .

ومن أمثلة ذلك أيضاً : نون الأفعال الخمسة مع نون الوقاية ، قبل ياء المتكلم ،

أو مع ضمير المتكلمين المنصوب ، وكذلك الفعل المسند إلى نون النسوة ، قبل هاتين الحالتين ؛ كقول الأعشى :

أبالموتِ الذي لا بُدَّ أني
ملاقٍ لا أباك تُخوفيني^(١)

أي : « تخوفيني » . وكقول عمرو ابن معد يكرب :

تراه كالثغام يُعَلُّ مِسْكَاً
يسوء الفالياتِ إذا فَلَينِي^(٢)

أي : « فليني » . وكقول جميل :

أياريحَ الشمالِ أما ترينِي
أهم وأني بادي النُحُولِ^(٣)

أي : « تريني » .

وليست ضرورة الشعر هي المتسببة في هذا الحذف ، كما قد يُتوهم ؛ إذ ورد في النشر كذلك ، فقد ورد في سيرة ابن هشام : « ما الذي تهذّونا به »^(٤) ، وفيها كذلك : « أفلا تعطوني »^(٥) . وفي الأغاني للأصفهاني : « فأخبراه أنهما لا يعرفاني »^(٦) . وفي عيون الأخبار لابن

(١) أمالي ابن الشجري ١-٣٦٢ والكامل للمبرد ٢-١٤٢ والمنصف لابن جني ٢-٣٧ .

(٢) كتاب سيبويه ٢-١٥٤ والمنصف لابن جني ٢-٣٣٧ .

(٣) سيرة ابن هشام ٥١ .

(٤) الأغاني ٥-١٢٦ .

(٥) الأغاني ٨-١٠٩ .

(٦) سيرة ابن هشام ٤٥٨ .

قتيبة : « لم تُز عجوفى من جواركم ؟ »^(١) .
 وفى تفسير الطبرى : « كنا نعطيهم
 فى الجاهلية ستين وسقاً ونقتل منهم
 ولا يقتلوننا »^(٢) .

ومن أمثلة الحذف لكراهة توالى الأمثال
 كذلك : إنَّ وأنَّ ولكنَّ وكأنَّ ، مع نون
 الوقاية قبل ياء المتكلم ، أو ضمير
 المتكلمين المنصوب . والحذف مع هذه
 الأحرف هو الشائع فى القرآن الكريم ؛
 ففيه مثلاً : « إني » ١٢٤ مرة ، فى
 مقابل : « إني » ٦ مرات ، كما ورد
 فيه : « وإنا » ٣٣ مرة ، فى مقابل :
 « وإننا » مرة واحدة . وغير ذلك^(٣) .

ولعل المسئول عن منع كلمة : « أشياء »
 من الصرف ، وقوعها فى القرآن الكريم ،
 فى سياق تتوالى فيه الأمثال لو صرفت ،
 فى قوله تعالى : « لاتسألوا عن أشياء إن
 تبدل لكم تسؤكم » سورة المائدة ١٠١/٥
 إذ لو صرفت لقييل : « عن أشياء إن »
 ولا يخفى ما فيه من تكرار المقطع : « إن » .
 وليست العربية بدعا فى سلوك طريق
 الحذف ، للتخلص من توالى الأمثال ؛

فى الآرامية مثلاً : L'iš ('aryā)
 بمعنى : « ليث » ، أصلها الاشتقاقى :
 'aryayā وفى الألمانية مثلاً كلمة :
 der Beamte بمعنى : « الموظف » ،
 هذه الكلمة أصلها الاشتقاقى :
 der Beamtete وغير ذلك من الكلمات .

وفى العربية الفصحى من المقاطع
 الصوتية ، خمسة أنواع : الأول مقطع
 قصير مفتوح ، وهو ماتكوون من صوت
 صامت وحركة قصيرة ؛ مثل : (ك) ،
 والثانى مقطع طويل مفتوح ، وهو ماتكوون
 من صوت صامت وحركة طويلة ؛
 مثل : (فى) ، والثالث مقطع طويل
 مغلق حركته قصيرة ، وهو ماتكوون
 من صوتين صامتين بينهما حركة
 قصيرة ؛ مثل : (من) ، والرابع مقطع
 طويل مغلق حركته طويلة ؛ مثل :
 (باب) فى الوقف ، والخامس مقطع
 زائد فى الطول ، وهو مابداً بصوت
 صامت ، تليه حركة قصيرة ، ثم يختم

(٢) تفسير الطبرى ٨ - ٥١٠ .

(١) عيون الأخبار ١ - ٢٩٣ .

(٣) انظر أمثلة أخرى فى مقالتنا : كراهة توالى الأمثال ، بمجلة المجمع العلمى العراق - المجلد الثامن . عشر .

بصوتين صامتين متتاليين ؛ مثل :
(بَنْتُ) في الوقف .

ومن القوانين الصوتية في العربية
الابتعاد عن توالي أربعة مقاطع من النوع
الأول ، وهذا هو السر في تغيير نظام
المقاطع ، في الفعل الماضي الثلاثي المتصل
بضمير الرفع المتحرك ، إلى مقطعين من
النوع الأول ، بينهما مقطع من النوع
الثالث ؛ مثل : « ضَرَبْتُ » ، بدلا من
توالي أربعة مقاطع من النوع الأول في :
« ضَرَبْتُ » .

كما تبتعد العربية عن المقطع الرابع ،
في غير الوقف ووسط الكلمة ، بشرط
أن يكون المقطع التالي له مبتدئاً بصامت ،
يمثل الصامت الذي ختم به المقطع السابق .
وهذه الحالة الأخيرة ، هي ما عبر عنها
اللغويون العرب القدامى « بالتقاء الساكنين
على حدهما » وهو أن يكون الأول حرف
لين والثاني مدغماً في مثله ^(١) ؛ نحو
« الضالَّين » و « دَابَّة » و « شَابَّة » .
فإذا نشأ هذا المقطع اشتقاقياً ، في
غير هاتين الحالتين ، حوَّله اللغة إلى

مقطع من النوع الثالث ، بتقصير حركته
مثل : « يَقُومُ » التي تصير عند الجزم :
« لَمْ يَقُمْ » ، وكان الأصل فيها : « لَمْ
يَقُومُ » ، غير أن المقطع : « قُومُ » هو
من نوع هذا النوع الرابع الذي تفر منه
العربية .

ويذهب بعض المستشرقين ^(٢) ، إلى
أن الإعراب كان في الأصل ، بالحركات
الطويلة في آخر الكلمة ؛ بدليل الوقف
بهذه الحركات الطويلة ، في لغة أزد السراة
في قولهم مثلاً في الوقف : « هذا خالدو »
و « رأيت خالدا » و « مررت بخالدي »
وبدليل الوقف بالفتحة الطويلة في الفصحى
في قولنا : « رأيت خالدا » ، غير أن
دخول النون الساكنة للتنوين في الوصل ،
أدَّى إلى نشوء المقطع الرابع ، فتخلصت
منه العربية بتحويله إلى مقطع من النوع
الثالث ، أي أن هذا الرأي يفترض أن
الأصل في مثل : « جاء زيد » و « رأيت
زيداً » و « مررت بزيد » هو : « جاء
زيدون » و « رأيت زيدان » و « مررت
بزيدين » . وهو رأي قد يمكن عن طريقه

(١) انظر شرح ابن يعيش للمفصل ٩ - ١٢٠ .

(٢) انظر : Rabin, Ancient West Arabian, p. 57 .

تفسير وجود الواو في كلمة : (عمرو) ،
وقد وردت في أحد النقوش العربية
القديمة ، مكتوبة بالياء في حالة الجر^(١) .

ومن القوانين الصوتية المؤثرة في
العربية كذلك : المخالفة بين حركتي
الفتح المتتاليتين ، إذا كانت الأولى
منهما طويلة ؛ إذ تتحول الثانية منهما
في هذه الحالة إلى كسرة ؛ فالأصل في
نون المثني هو الفتح ، غير أنها كسرت
تبعاً لهذا القانون ، بدليل أنها ما تزال
مفتوحة في جمع المذكر ، وبدليل بعض
الأمثلة ، التي بقيت على الأصل القديم ،
وهي ما نسميه نحن « بالركام اللغوي » ؛
مثل : « شَتَان » في مثل قولهم :
« شتان أخوك وأبوك » أي هما متفرقان ،
فهو تشنية « شت » والشت المتفرق^(٢) .

ومن لم يقنعه هذا المثال ، فليُنظر في
نون التوكيد المشددة ، وهي مفتوحة - كما
نعرف - في : « يَضْرِبَنَّ » و « تَضْرِبَنَّ » وما
إلى ذلك ، غير أنها مكسورة في مثل :
« يَضْرِبَان » ؛ بسبب المخالفة المذكورة .

وهذه النون التي تسمى بنون الرفع
في الأفعال الخمسة ، هي مفتوحة في :
يفعلون ، وتفعلون ، وتفعلين . ولكنها
مكسورة في : يفعَلان ، وتفعَلان ؛
بسبب هذا القانون نفسه .

بل إن نصب جمع المؤنث السالم
بالكسرة ، لَيُفسَّر كذلك بهذا القانون ،
أي أن الأصل هو نصب هذا الجمع
بالفتحة ، بدليل ما رواه الكوفيون عن
العرب من قولهم : سمعت لغاتهم ،
وقول الرياشي : سمعت بعض العرب
يقول : أَخَذْتُ إِرَاتَهُمْ^(٣) ، غير أن
أثر هذا القانون ، هو الذي أدى إلى
تخالف الفتحة إلى كسرة ، فيما نعتقد .

هذه هي بعض القوانين الصوتية ،
التي تحكم التطور اللغوي في العربية ،
وليس من قصدنا هنا إحصاء هذه القوانين
فلذلك مجال آخر .

أما « القياس » ، فعن طريقه تتطور
اللغة كذلك . وقد ثبت من تتبع حياة
اللغات « أن الاختلاف في حياة اللسان ،

(١) انظر : نقش « أم الجمل » في كتابنا : فصول في فقه العربية ٤٢ - ٤٣

(٢) لسان العرب (شت) ٢ - ٣٥٥ .

(٣) منهج السالك لأبي حيان ص ١١ .

أقدم من الاتفاق في أكثر الحالات ^(١) .
وهنا يأتي القياس اللغوي ، ليبلغى هذه
الاختلافات ، ويقيس بعض الأمثلة على
بعض ، فتتوحد الظاهرة عن هذا الطريق .

مثال ذلك : ثبت من مقارنة اللغات
السامية ، أن الأصل في ضمير المتكلم هو
الكاف ، والأصل في ضمير الخطاب هو
التاء ؛ لأن التكلم جنس يختلف عن جنس
الخطاب . ومن الطبيعي أن يوضع لكل
جنس ، ضمير يخالف ضمير الجنس
الآخر ؛ أي أن الأصل أن يقال مثلاً :
« ضَرَبْتُكَ - ضَرَبْتُ - ضَرَبْتُ » ، غير
أن القياس أدى إلى تسوية هذا الاختلاف
فسادت الكاف وحدها في الحبشية
ففيها مثلاً : « قَتَلَكُوا - قَتَلْتُكَ - قَتَلْتُكَ »
وفي العربية والآرامية والعبرية ، سار
القياس في اتجاه آخر ، فسادت التاء ؛
إذ يقال في العربية مثلاً : « قَتَلْتُ -
قَتَلْتُ - قَتَلْتُ » .

وهذا مثال آخر لأثر القياس في التطور
اللغوي ؛ فالأصل في لام الجر الفتح ،
والأصل في باء الجر الكسر ، بدليل وجود

(١) انظر : التطور اللغوي لبرجستر اسر ص ٤٩ .

هذا الأصل في اللغات السامية الأخرى ،
وبدليل الاحتفاظ به في العربية عند
الاتصال بالضمائر ، في مثل : « له »
و « به » . أما كسر اللام في مثل :
« لِلرَّجُلِ » و « لِلنَّاسِ » في العربية ،
فإن سببه هو القياس على باء الجر .

وما النصب « بما » عند الحجازيين ،
في مثل قوله تعالى : « ما هذا بشراً » ،
إلا أثر من آثار قياس « ما » على « ليس »
إذ المعنى فيهما سواء .

غير أن للقياس أثراً آخر في منع
القانون الصوتي أحياناً ، عن أن يؤدي
بظيفته ؛ فإن صيغ تصريف وزن معين ،
توجد في ذهن في مجموعات مترابطة ،
فلو جاء القانون الصوتي ، وأراد أن يعمل
وكان من جراء عمله الإخلال بذلك الترابط
فإن القياس يلغى القانون الصوتي ،
بسبب ما يسمى « بطرد الباب على وتيرة
واحدة » .

مثال ذلك : أن القانون الصوتي ،
يحتم أن ينطق الفعل : « عَبدَ » مثلاً ،
عند إسناده إلى تاء الفاعل هكذا :

« عَبَّتْ » ، بإدغام الدال في التاء ، تبعاً لقانون المماثلة ، أو التأثير المدبر الكلى ، غير أن القياس على باقى صيغ تصريف هذا الفعل ؛ مثل : « عبدوا » و « عبدا » ، يحتم الإبقاء على الدال ، لكى يطرد الباب على وتيرة واحدة ، وعندئذ نرى العرب يفصلون بين صوتى الدال والتاء هنا بحركة مخطوفة ، هى ما سماها اللغويون العرب فيما بعد ، « بقلقلة » الدال ، حتى لا تتأثر صوتياً بالتاء ، فيقولون : « عَبَّتْ » .

وقد يكمل القياس الطريق الذى بدأه القانون الصوتى ، أى أن القانون الصوتى ، يؤثر فى بعض أمثلة الظاهرة اللغوية ، ثم يطرد القياس الباب على وتيرة واحدة فى الأمثلة الباقية .

فمثلاً : مضارع وزن « أَفْعَل » المسند إلى ضمير المتكلم ؛ مثل : « أَكْرَمُ » ، الأصل فيه : « أُؤَكْرَم » ، فتوالى فيه مقطعان متماثلان . وقد عرفنا من قبل أن العربية تفر من توالى الأمثال ، فتحذف أحد المقطعين المتماثلين ؛ وبذلك يصبح الفعل : « أَكْرَم » ، ثم نقاس باقى

صيغ المضارعة على هذه الصيغة ، طرداً للباب على وتيرة واحدة .

وقد فطن إلى هذا ابن جنى ، فقال : « قولهم : أنا أكرم ، حذفوا الهمزة التى كانت فى (أَكْرَم) ؛ لئلا يلتقى همزتان لأنه كان يلزم : أنا أؤكرم ، فحذفوا الثانية ؛ كراهة اجتماع همزتين ، ثم قالوا : نكرم ، وتكرم ، ويكرم ؛ فحذفوا الهمزة ، وإن كان لو جائعوا بها لما اجتمع همزتان ، ولكنهم أرادوا المماثلة ، وكرهوا أن يختلف المضارع ، فيكون بهمزة ، وأخرى بغير همزة ، محافظة على التجنيس فى كلامهم ^(١) » .

وإذا كان الفعل الناقص المسند إلى الغائبة ، قد تحول من : (رَمَتْ) مثلاً إلى (رَمَتْ) ؛ بسبب تجنب المقطع الرابع ، الذى تحدثنا عنه من قبل ؛ فإن هذا الفعل الناقص نفسه ، إذا أسند إلى الغائبتين ، لا ينشأ فيه هذا المقطع الرابع ، وليس هناك قانون صوتى ؛ يؤدى إلى تحول : (رَمَاتَا) مثلاً ، إلى : (رَمَتَا) ، وإنما هو أثر القياس على

(١) المنصف لابن جنى ١ - ١٩٢ .

الفعل المسند إلى الغائبة ، وطرده للباب على وتيرة واحدة .

كما أن كراهة توالي أربعة مقاطع من النوع الأول ، هو المسئول عن تطور : « ضربت » مثلاً ، عن : « ضربت » - كما عرفنا من قبل . أما مثل : « استخرجت » مثلاً ، فليس فيه توالي هذه المقاطع الأربعة ، وإنما المسئول عن تسكين لام الفعل فيه ، هو القياس على باقى صيغ الأفعال ، وطرده الباب فيها على وتيرة واحدة .

ومن القوانين الصوتية ، التى طردت العربية الباب فيها عن طريق القياس ، قانون يسمى «بقانون الأصوات الحنكية» ؛ فقد وصل العلماء فى مقارنتهم اللغة السنسكريتية باللغتين اليونانية واللاتينية فى أواخر القرن التاسع عشر ، إلى قانون صوتى سموه : « قانون الأصوات الحنكية » ولاحظوا أن أصوات أقصى الحنك ، كالكاف والجيم الخالية من التعطيش ، كالجيم القاهرية مثلاً - تميل بمخرجها إلى نظائرها من الأصوات الأمامية ، حين تليها فى النطق حركة أمامية كالكسرة ؛

لأن هذه الحركة الأمامية فى مثل هذه الحالة ، تجتذب إلى الأمام قليلاً أصوات أقصى الحنك ، فتتقلب إلى نظائرها من أصوات وسط الحنك^(١) . ويغلب أن تكون هذه الأصوات الجديدة من النوع المزدوج ، أى الجامع بين الشدة والرخاوة ، وهو المسمى باللاتينية : Affricata .

ومن الأصوات التى خضعت لهذا القانون فى العربية : صوت الجيم ؛ فإن مقارنة اللغات السامية كلها ، تشير إلى أن النطق الأصلي لهذا الصوت ، كان بغير تعطيش كالجيم القاهرية تماماً ؛ فكلمة : جمل مثلاً ، هى فى العبرية : gāmāl وفى الآرامية : gamlā وفى الحبشية gamal أما العربية الفصحى ، فقد تحول فيها نطق هذا الصوت من الطبق إلى الغار ، أى^(٢) من أقصى الحنك إلى أوسطه ، كما تحول من صوت بسيط إلى صوت مزدوج ، يبدأ بدال من الغار ، ثم ينتهى بشين مجهورة ، غير أن ذلك لم يحدث فى^(٣) البداية فى كل جيم ، وإنما كان يقتصر على الجيم المكسورة ، تبعاً لقانون الأصوات الحنكية ، الذى أشرنا إليه من قبل ، ثم

(١) انظر : فى اللهجات العربية القديمة للدكتور إبراهيم أنيس ١٢٣ .

عَمَّم القياس هذا النطق الجديد في كل جيم ، طردا للباب على وتيرة واحدة . وقد حدث ذلك في العربية القديمة ، في العصور السابقة لظهور الإسلام ، وصار هو النطق المميز للفصحى ؛ ولذلك جاء به القرآن الكريم ، وبقي النطق البائد في بعض اللهجات العربية القديمة ، وامتداداتها في بعض اللهجات الحديثة .

وما حدث لصوت الجيم القديم في الفصحى ، حدث مثله لصوت الكاف في بعض اللهجات القديمة ، في الظاهرتين المعروفتين عند القدماء ، بظاهرتي : الكسكسة والكشكشة ، اللتين رويتا لنا عن بعض القبائل القديمة ، كبكر وهوازن وربيعه وأسد . وقد وقفت هذه الظاهرة في القديم ، عند حدود قانون الأصوات الحنكية ، أي أن الكاف لم تقلب إلى (تس) في الكسكسة ، ولا إلى (تش) في الكشكشة ، إلا إذا كانت مكسورة ؛ ندرك هذا من تقييد اللغويين القدماء لها بكاف المؤنثة ، وهي مكسورة كما نعلم ، وإن كانت أمثلتهم تحتوى على كافات

أخرى مكسورة ، سوى كاف المؤنثة ؛ كقول الراجز :

إن دنوت جعلت تُنْشِش
وإن نأيت جعلت تُدْنِش
وإن تكلمت حثت في فيش
حتى تنقّي كذقيق الدّيش^(١)
أي : تنشيك ، وتدينك ، وفيك ،
والدّيك .

أما اللهجات العربية الحديثة ، فقد طردت هذا القلب في كل كاف عن طريق القياس ، مكسورة كانت هذه الكاف ، أو غير مكسورة ؛ ففي بلاد نجد تسمعونهم يقولون : « تسيف حالك ؟ » و « على تسم ؟ » في : « كيف حالك ؟ » . و « على كم ؟ » . كما نسمع عند أصحاب الكشكشة ، وهم كثيرون في جنوبي العراق ، وبلدان الخليج وشمال أفريقيا : « تشبير » و « تشلب » في : « كبير » و « كلب » وما إلى ذلك . وقد يؤدي القياس إلى نشوء كلمات جديدة في اللغة ؛ فإن بناء : « اتبع » من : « تبع » ، مثلا ، أدى إلى توهم أن « اتخذ » مأخوذة من « اتخذ » ، مع أنها من : « أخذ » ، وبذلك نشأت .

(١) انظر : مجالس ثعلب ١ - ١١٦ وخزانة الأدب ٤ - ٥٩٤ .

كلمة جديدة هي : « تَحْذُ » ، واستخدمها

الشعراء ؛ كقول الممزيق العبدى :

وقد تَحْذَتْ رجلى إلى جنب غرزها
نسيفاً كأفحوص القطب... المطرق

وقد فطن إلى هذا ، الجوهري فقال :

والانحاذ افتعال من الأخذ ، إلا أنه أدغم

بعد تليين الهمزة ، وإبدال الياء تاءً ،

ثم لما كثر استعماله على لفظ الافتعال ،

توهموا أن التاء أصلية ، فبنوا منه :

فَعَلَ يَفْعَلُ ، قالوا : تَحْذُ يَتَحْذُ^(١) .

ولا شك أن هذه هو الطريق ، الذى

وصلت إلينا عنه كلمات أخرى ؛ مثل :

« التكلان » من : « وكل » ، « التخممة »

من الطعام الوخيم ، و « التقوى » من :

« وقى » ، و « التراث » من : « ورث » ،

و « تَجَاه » من : « وجه » ، و « التكمأة »

من : « توكا » ، و « التالد » و « التلاد

و « التليد » من : « ولد » ؛ لأن معناه

المال المولود عند أصحابه . وغير ذلك^(٢) .

وهكذا نرى أنه لا شذوذ فى اللغة ،

وأن القانون اللغوى له من الحتمية

والضرورة ، مثل ما لقانون الجاذبية فى

الطبيعة ، وقانون العرض والطلب فى

الاقتصاد ، ولكن وجود قانون ما ،

لا يمنع وجود قانون آخر يعارضه فى

العمل ؛ فإن قانون الجاذبية مثلاً ،

يقضى بأن الأجسام كلها تسقط نحو

مركز الأرض فى خط عمودى ، لكن هذا

لا يمنع أن نرى ورقة تسقط فى خط

متعرج ، وأن نرى « البالون » يرتفع

إلى أعلى .

إن القانون فى اللغة ، كالقانون فى

الطبيعة ، لا يمضى دون أن يصطدم

بقوانين أخرى . والشذوذ فى قانون

صوتى ليس شذوذاً ، إلا عندما لا نكون

قد اكتشفنا القانون الجديد الذى يفسره

أو القياس الذى يلوى عنقه فى اتجاه آخر .

هذا ما أردت الوقوف عنده من عوامل

التطور اللغوى ، وهى كثيرة ، غير أن

أهمها ما مثلنا له من القياس والقوانين

الصوتية . وبعض الأمثلة يغنى عن بعض

والله أعلم .

رمضان عبد التواب

(١) الصحاح للجوهري (أخذ) ٥٥٩/٢ .

(٢) انظر : القلب والإبدال لابن السكيت ٦٢ - ٦٣ والإبدال لأبي الطيب ١٤٩/١ واللسان (تق) ١١٠/١٨

(وق) ٢٨٣/٢٠ .

ملاحظات حول أنواع الألفاظ المعرّبة في اللغة العربية المعاصرة

للأستاذ نيقولا دوبريشان

لاحظنا أن اللغة العربية أخذت عدداً من المصطلحات التقنية والعلمية من اللغتين الفرنسية والإنجليزية وذلك أن العالم العربي كان في العصر الحديث على اتصال مستمر بالحضارة الأوروبية بواسطة اللغتين المذكورتين ؛ وحتى عملية التعليم جرت ولا تزال في بعض البلدان العربية باللغة الإنجليزية وباللغة الفرنسية نتيجة للسيطرة الاستعمارية الطويلة على هذه البلدان فيما مضى .

أما المجالات الإدارية والتجارية فقد دخل في العربية عدد من الكلمات الإيطالية والتركية وخاصة في النصف الأول من قرننا هذا ، وذلك نتيجة للعلاقات السياسية والتجارية والبحرية الوثيقة القائمة بين الشعوب العربية ، وهذين الشعبين اللذين يعيشان في الحوار

أن التعريب يلعب دوراً معترفاً به عموماً في تكوين المصطلحات العلمية في



مختلف لغات العالم . إن التطورات التي طرأت على موقف مجمع اللغة العربية الموقر في القاهرة وهيئات علمية عربية أخرى والعلماء اللغويين العرب من الألفاظ المعربة معلومة جيداً ، وكذلك المناقشات والمواد التي نشرت في صفحات مجلة مجمع اللغة العربية الموقر ومؤلفات أخرى خلال السنين السابقة . وعلى هذا لا نرى من الضروري أن نلج عليها^(١) . وإذا نعود إلى هذا الموضوع فذلك رغبة منا في التأكيد على بعض الظواهر - وهذا قل من كثير - التي تدل على حالة الألفاظ المعربة في اللغة العربية المعاصرة وخاصة في مجال المصطلحات الاجتماعية والسياسية .

(١) قد نشرنا في مجلة جامعة بوخارست مقالين عن المعرب من المصطلحات العربية وذلك في نطاق رسالة الدكتوراه التي نعدها والتي تتناول موضوع طرق تكوين المصطلحات الاجتماعية والسياسية في اللغة العربية المعاصرة ، وهما :

- 1) Nicolae Dobrisan, L'emprunt lexical en arabe (Période classique), AUB, 1973, 11 p.
- 2) Nicolae Dobrisan, L'emprunt lexical en arabe (Période mederne), AUB, 1973, 24 p.

المباشر للعالم العربي ، ونقدم على سبيل المثال هذه المصطلحات : « بورصة it. borsa « بوسطة it. posta و « فاتورة it. fattura « ديكرتو it. decreto و « باسابورط it. passaporto و « بولصة it. polizza و « دمغة tc. damga و « كمرك (جمرك) tc. gümrük الخ .

إن عددًا من أسماء الآلات والأجهزة الحديثة قد دخلت في اللغة العربية في نفس الوقت مع الحقائق المسماة بدون أن يترك وقت لإيجاد كلمات عربية للمعاني الجديدة . وهذه هي الحالة بالنسبة لمفردات كـ « تلغراف » و « تلفون » و « بطارية » و « بارومتر » وغيرها ، أو بالنسبة لكلمات دخلت اللغة العربية في فترة أقرب منا زمنًا ، مثل « سينما » و « فيلم » و « تلفزيون » و « مترو » وغيرها .

كما دخل العربية عدد من وحدات القياس بشكلها الأوروبي ، مثل « متر » و « لتر » و « هكتار » و « كيلومتر » و « هكتواتر » وغيرها . وكذلك أسماء الآلات المتعلقة بالكهرباء التي تحمل أسماء مخترعيها ، مثل « أمبير » Ampère و « أوم » Ohm و « وات »^(١) Watt وغيرها .

إن هذه المصطلحات تمثل جزءًا مما يسمى بالألفاظ الدولية vocabulary international حيث إنها توجد في معظم لغات العالم بشكل قريب من أصلها .

(١) بشكل (واط) أيضا .

إن أسماء عدد من العلوم المكونة في اللغات الأوروبية من كلمتين ثانيتهما الكلمة اليونانية logia « لوجيا » دخلت في اللغة العربية محتفظة بشكل قريب من شكلها في اللغات الأوروبية (الشكل الفرنسي في معظم الأحيان) ، مثال ذلك : « بيولوجيا » fr. biologie « ميترولوجيا » fr. metrologie و « إبستيمولوجيا » fr. épistémologie وغيرها . في بعض الأحيان حصلت على شكل مصدر صناعي ، أي بتحويل ألف المد في نهاية الكلمة إلى اللاحقة suffixe - ية « الخاصة بالمصدر الصناعي » ، مثل « بيولوجية » وغيرها من العلوم .

وإن الشكل الثاني هذا ليدل على درجة أكبر في اندماج اللفظة assimilation من الناحية الصرفية والصوتية . في الوقت الأخير نلاحظ أن الباحثين منحوا الأسبقية للاحتفاظ بالشكل المكون « أوجيا » اليونانية .

وفي حالات أخرى نجد أشكالًا متوازية « variantes » أي بالاضافة إلى اللفظة المعربة ، توجد ترجمات أو حتى شرحها باستعمال كلمات عربية ، مثال ذلك : « بيديا غوجية » fr. pédagogie « إلى جانب » « علم التربية » و « ديموغرافيا » fr. demografie « إلى جانب » « علم السكان » و « تيپولوجيا » fr. typologie « إلى جانب » « علم تشكيل الإنسان » إلى آخرها .^(٢)

(٢) انظر عبد العزيز بن عبد الله ، معجم أسماء العلوم والفنون والمذاهب والنظم ، فرنسي - عربي ، سلسلة المعاجم عدد ٩ - ١٩٦٩ .

وفي حالة أسماء العلوم غير المنتهية *glor* في اللغة الفرنسية تم الاحتفاظ بشكل قريب من الشكل القائم في اللغة الأصلية ، مثال ذلك : « هيدروستاتيكا » *fr. hydrostatique* و « ميكانيكا »^(١) *fr. mécanique* و « سبرنتيكا »^(٢) *fr. cybernétique* وغيرها .

أما أسماء المذاهب والتيارات الفلسفية أو الأدبية التي تقابلها في اللغة الفرنسية كلمات تنتهي باللاحقة « *isme* » ، فقد تم تعريبها عن طريق تحويل هذه اللاحقة إلى اللاحقة العربية الخاصة بالمصدر الصناعي « -ية » وذلك قياسا على المصطلحات القديمة من هذا النوع، مثال ذلك : « ديناميكية » *fr. dynamisme* و ميكانيكية *fr. mécanisme* و « أكاديمية » *fr. académisme* و « طوطمية » *fr. totémisme* و « دغماطيقية »^(٣) *fr. dogmatisme* وغيرها^(٤).

وفي حالات نادرة تم استعمال كلمة « مذهب » *doctrine* ، مثال ذلك : « المذهب الكلاسيكي » *fr. classicisme* و « المذهب الرومانطيسي » *fr. romanticisme* الخ . . .

ولكن في نفس الوقت هناك إمكانية استعمال الكلمة « مذهب » لتكوين اسم أي مذهب من المذاهب المذكورة سابقا وغيرها من المذاهب الفلسفية أو التيارات الأدبية والحضارية شريطة أن تتبع النسبة المشتقة من اللفظة المعربة المعنية لكلمة « مذهب » .

وانطلاقا من الأسلوب الأوروبي تم اشتقاق أسماء مذاهب وتيارات فلسفية وسياسية من أسماء الأعلام ، مثال ذلك : « الماركسية » (مصر ٦٨) *Marx* و « اللينينية » (مصر ٦٨) *Lenin* و « التروتسكية » *Trotsky* و « ديغولية » *De Gaulle* « برغسونية » *Bergson* وغيرها^(٥).

والجدير بالذكر أن بعض الأسماء للمذاهب اشتقت من أسماء شخصيات عربية ، ومن الممكن أن هذه الظاهرة جرت تحت تأثير الأسلوب الأوروبي ، مثل « الناصرية » « جمال عبد الناصر » البورقينية « الحبيب بورقيبة » والقاسمية « عبد الكريم القاسم » وغيرها .

وبالإضافة إلى المصادر الصناعية المشتقة من أسماء الأعلام فهناك نسب مقابلة لها بمعنى

(١) إلى جانب شكل معرب وهو « الميكانيكيات » وهو جمع المصدر الصناعي .

(٢) إلى جانب الشكلين المنتهين بـ « الميكانيكا » و « سبرنتيكا » .

(٣) إلى جانب « الجمود العقائدي » (العراق ٦٨ و لبنان ٦٨) و « العتائدية الحامدة » (العراق ٦٨) .

(٤) لاقتصاد المكان لا نذكر المصادر أو الصحف التي اخترنا منها الأمثلة ونقتصر على ذكر البلد والسنة فقط .

(٥) وجدنا بعض هذه المصطلحات مذكورة بين « المصطلحات في العلوم الفلسفية والاجتماعية » ، مجلة مجمع

اللغة العربية ، القاهرة ، ج ٩ ، ١٩٥٧ ، ص ١٨٨ - ١٨٩

أنصار المذهب المعنى :- «الماركسيون» و «الناصريون» الخ . . . ولكن اشتقاق النسب من أسماء الأعلام معروف في العربية القديمة :

أسماء شعوب دخلت في اللغة العربية في العصور القديمة ، مثل «الروم» و «الترك» و «الرومان» و «التتار» وغيرها .

ولكن في العادة يتم اشتقاق جمع مذكر سالم من النسبة المشتقة من أسماء البلدان ، مثل «فرنسا» «فرنسي» «فرنسيون» و «رومانيا» «روماني» «رومانيون» وغيرها .

وفي نفس الوقت يمكن اشتقاق نسبة من أسماء الشعوب التي لها شكل أسماء الجنس وفي هذه الحالة يكون المشتق له قيمة اسم وصفية فمثلا : تشتق من «أمريكا» النسبة «أمريكي» وفي نفس الوقت يشتق «أمريكاني» من «أمريكان» وكذلك تشتق من اسم الجنس «ألمان» النسبة «ألماني» التي تجمع على «ألمانيين»^(٢). ففي هذه الحالة يستعمل الجمع السالم المنتهى بـ -ون- ين- لتسمية الشعوب المعنية . كما يشتق من نسبة مؤنث ينتهى بـ -ية- ويستعمل كاسم وكصفة ويشتق منه جمع مؤنث سالم ينتهى بـ «-ات» . ويستعمل لتسمية النساء المنتميات إلى قومية معينة ، فتشتق على سبيل المثال من الاسم «روس» النسبة «روسى» (اسم وصفية) ومنها تشتق «روسية» وتجمع تلك بدورها على «روسيات» (بمعنى النساء المنتميات إلى القومية الروسية) .

وهناك ملاحظة خاصة فيما يتعلق باسم المذهب الفاشى وهى أن لاسم هذا المذهب شكلين لهما نفس الانتشار تقريبا : «الفاشية» و «الفاشستية» والنسبتان المقابلتان لهما «الفاشى» و «الفاشستى» : ويبدو أن الشكل الأول اشتق من الكلمة الفرنسية fascisme (اسم المذهب) بينما اشتق الشكل الثانى من الكلمة الإيطالية fascista . لكننا وجدنا من الناحية الإحصائية أن الشكلين «فاشستى» (اسم وصفية) و « فاشستية » (مصدر صناعى) منتشران بصفة خاصة في الصحف المصرية .

وتمثل أسماء الأمم والشعوب والقوميات نوعا خاصا من الألفاظ المعربة ، فإنها تظهر بشكل اسم جنس collectif قياسا على حالة قديمة في اللغة أو بشكل جمع سالم للنسب المشتقة من أسماء البلدان المعنية .

وفي العصر الحديث انتشرت أسماء الجنس مثل الفرنج^(١) Franc و «الألمان» Allemand و «الأمريكان» Américain و «الإنجليز» Anglais الخ . . . وذلك قياسا على

(١) استعملت الكلمة فيما يعا بمعنى «الأوروبيين» عامة .

(٢) ويستعمل هذا الجمع كصفة بوجه عام في حين يستعمل اسم الجنس كاسم .

وبالنسبة للشعب الروماني تشتق من اسم البلد « رومانيا » النسبة « رومانيون » ولكن بالإضافة إلى هذا الجمع يستعمل لتسمية الشعب اسم الجنس «الرومان» Les Romains وذلك نتيجة لبس مع الرومان القدماء الذين يمثلون أصلـل الشعب الروماني الحالي ولكنهم كانوا شعبا آخر عاش في إمبراطورية روما القديمة في حين نشأ الشعب الروماني من الاختلاط الذي حدث بين الشعب الروماني القديم « والداك » وهم السكان الأصليون للأراضي الرومانية الحالية وذلك خلال القرون الأولى الميلادية .

ونذكر هنا كذلك اتجاهها حديثا نسبيا وهو تعريب بعض الألقاب الأجنبية ، مثال ذلك : « لورد » angl. lord ومستر^(١) « (مصر ٧١) angl. mister و « سيناتور » angl. senator (مصر ٧١) و « بروفيسور » fr. professeur (مصر ٧١) و « سينيور » esb. senor (مصر ٧١) و « سير » angl. sir (مصر ٧١) و « ميسيو » fr. monsieur (مصر ٧١)

ويبدو طبيعيا أن تسبق هذه الألقاب أسماء أشخاص من البلدان التي تستعمل فيها هذه الألقاب ومثلها مثل الألقاب العربية التي لها معنى متشابه تظهر معرفة بأداة التعريف العربية « ال » :

ويمكن اعتبار كل هذه الأنواع من الألفاظ التي ذكرناها في الفقرات السابقة ألفاظا معربة أو في مرحلة التعريب ولكن بالإضافة إلى الألفاظ المعربة يوجد في اللغة العربية ، وهذا ما يحدث في جميع اللغات تقريبا ، نوع آخر من الكلمات الأجنبية وهي الكلمات التي تدل على أسماء منظمات ومؤسسات دولية أو وطنية أو على أسماء صحف ومحطات الإذاعة والتلفزيون .

وبالنسبة للمنظمات والهيئات والمؤسسات الدولية المعروفة وبخاصة المتعلقة منها بالأمم المتحدة ، تتم ترجمة أسمائها ولا تستعمل الحروف الأولى « initiales » للكلمات التي تتكون منها هذه الأسماء في اللغة الإنجليزية أو الفرنسية إلا نادرا جدا ، فمثلا اسم منظمة ONU يترجم بـ « منظمة (هيئة) الأمم المتحدة » واسم منظمة OMS يترجم بـ « المنظمة الدولية للصحة إلخ . . . أما استعمال الحروف الأولى أو مقاطع من هذه الكلمات التي يتكون منها اسم المنظمة فهو ميل حديث في اللغة العربية ، وفي هذه الحالة يتم الالتجاء إلى الأشكال المعروفة في اللغات ذات الانتشار العالمي ، مثل الإنجليزية أو الفرنسية ، وتظهر هذه الأسماء مسبقة بأداة التعريف ولها في بعض الأحيان أكثر من شكل ، مثال ذلك : UNESCO « اليونسكو و الأونسكو » (مصر ،

(١) لاشك في أن بعض هذه الألقاب مثل « اللورد » و « المستر » لها استعمال قديم في اللغة العربية ، ولكننا لم نقصد وضع دراسة تاريخية . ولهذا السبب سجلنا سنة العثور عليها في الصحف الصادرة مؤخرا .

سوريا ، لبنان ٦٨) ، و COMICOM الكوميكون (مصر ، المغرب ٦٨) و OPEC « الأوبك » و « الأوبك » (مصر ، سوريا ، لبنان ٧٠) .

إن أسماء المنظمات أو الهيئات الأجنبية المكونة من كلمة واحدة تظهر بهذا الشكل مشروحة أحيانا، مثال ذلك : « السوفييت » (مصر ٧١) Soviet و « البنتاجون » (مصر ٧٠) angl. Pentagon و « الكونجرس » (مصر ٧٠) angl. Congres الخ . ولما يرى ، فإن جميع هذه الأسماء تظهر معرفة بأداة التعريف « ال » .

أما محطات الإذاعة فنستعمل بصفة عامة لتسميتها الكلمة « راديو » ويلها اسم العاصمة التي توجد فيها المحطة المعنية ، مثال ذلك : « راديو عمان » (مصر ٧١) و « راديو دمشق » (مصر ٧١) و « راديو هانوي » (مصر ٧٠) و « راديو موسكو » (مصر ٧٠) وغيرها . وغيرها . ولكن بالإضافة إلى كلمة « راديو » الأجنبية استعملت كلمة « إذاعة » العربية كمضاف وكاسم تتبعه نسبة ، مثل : « إذاعات الاستعمار » (سوريا ٦٩) . و « الإذاعة الأردنية » (مصر ٧١) وغيرها . ويستعمل نفس الأسلوب لتسمية محطات التلفزيون مثل : « التلفزيون الأمريكي » (مصر ٧٠) و « التلفزيون المصري » (لبنان ٧٠) الخ

وفي الصحف التونسية وجدنا لفظا يدل على درجة أعلى في تعريب الكلمة الأجنبية وهو « التلفزة » (تونس ٦٩) فإن هذا اللفظ الذي له وزن المصدر تم اشتقاقه من الفعل الرباعي الأحرف « تلفز » الذي اشتق بدوره من الكلمة الفرنسية الأصل « تلفزيون » fr. télévision . إن هذا المشتق استعمل في بداية الأمر كمصدر ، كما يستعمل الآن في أغلب البلدان العربية ولكن في تونس انتقل إلى استعمال اسمي صرف .

ووجدنا الكلمة « إذاعة » مستعملة كمصطلح تكنولوجي ، كذلك مثلها مثل الكلمة المعربة « راديو » وذلك في العبارات « أجهزة الإذاعة » و « أجهزة الراديو » .

وهناك نوع آخر من الكلمات الأجنبية التي تدخل في اللغة العربية وهي أسماء الحرائد والمجلات وأسماء وكالات الأنباء . ولأحظنا بالنسبة لهذه الأسماء أن بعضها يظهر معرّفا وبعضها يظهر غير معرّف ، أضف إلى هذا أنه في حالات أخرى نجد الإمكانين : ويبدو أن المعرف منها كان معرّفا في اللغة الأصلية ، وأن غير المعرف منها ، إما أن يكون غير معرّف في اللغة الأصلية ، وإما أن يأتي من لغة لا يعرفها إلا قليل من العرب . وقد حدث بصورة خاصة في الأوقات الأخيرة حين توسعت توسعا مدهشا العلاقات بين جميع دول العالم

وتطور تبادل المعلومات والأخبار بسرعة نتيجة لإدخال أحدث الوسائل في الإذاعات اللاسلكية وعدم السماح بوقت للتعرف على موقف كلمة في لغة أو أخرى من ناحية وسائل التعريف . فإن اسم الجريدة السوفيتية Pravda ^(١) ، على سبيل المثال ، يستعمل في اللغة العربية إما معرفا (البرافدا) أو غير معرف (برافدا) ، رغم أن الروسية لا تعرف التعريف بأداة التعريف. وكذلك بالنسبة لاسم الجريدة الرومانية ^(٢) Scinteia الذي يستعمل معرفا (الاسكتيا) ^(٣) أو غير معرف (سكتيا) :

ولاحظنا أن أسماء الجرائد والمجلات لا تترجم بل تبقى بشكائها من اللغة الأصلية. مثل : مجلة « جين أفريك » (مصر ٧٠) Jeune Afrique وصحيفة « نيويورك تايمز » New York Times (لبنان ٧١) إلخ . وإن الملاحظات المتعلقة بتعريف أو عدم تعريف أسماء الصحف الأجنبية تنطبق كذلك على أسماء وكالات الأنباء الأجنبية ، مثال ذلك : « وكالة تاس » ^(٤) (مصر ٧٠) TASS و « وكالة آجير بريس » (مصر ٧١) ^(٥) Agerpres و « وكالة فرانس بريس » (مصر ٦٩)

France Presse و « وكالة رويتر » (مصر ٧١) Reuter ولكن « وكالة الأسوشيتد بريس » (مصر ٧١) Associated Press .

ويلاحظ أن العرب لم يأخذوا في الاعتبار بصدد حالة هذه الأسماء أن بعضها تتكون من الحروف الأولى أو من المقاطع الأولى لعدد من الكلمات في اللغات الأصلية ، ونمت معالجتها كأنها كلمات مستقلة .

وأخيرا ، نذكر هنا بعض الكلمات المركبة تركيبا مزجيا في لغات أخرى والتي دخلت في اللغة العربية ، لكنها تغيرت شيئا ما من الناحية الصوتية ، والصرفية ^(٦) لما دخلت في العربية .

إن أغلب هذه الكلمات هي مصطلحات علمية وتكنيكية مثل « الصناعة البتروكيماوية » fr. pétrochimique (سوريا ٦٨) ومصنع « البتروكيماويات » (الأردن ٧١) وعدد من المركبات التي تدخل فيها الكلمة « كيلو » fr. kilo مثل « كيلو متر » fr. kilomètre و « كيلوغرام » fr. kilogramme و « كياوات » ^(٧) fr. kilowatt وتجمع هذه الكلمات جمع

(١) معنى الكلمة في اللغة الروسية هي « الحقيقة » .

(٢) معنى الكلمة في اللغة الرومانية « الشرارة » .

(٣) نتيج الشكل « اسكتيا » عن الطريقة التي اتبعها العربون في تعريب اسم يبتدئ بالساكن وذلك لاستحالة النطق بالمبدوء بالساكن في اللغة العربية .

(٤) وكالة الأنباء السوفيتية . (٥) وكالة الأنباء الرومانية .

(٦) لا نعني هنا الألفاظ المركبة في اللغة العربية بالطريقة المعروفة بالنعت .

(٧) والشكل (كيلواط) « اليمن ٧١ » .

مؤنث سالماً : كيلومترات : وكيولوجرامات»
وقد لفت أنظارنا مصطلحا من المصطلحات
الاجتماعية والسياسية وجدناه مؤخرا في
الصحف اللبنانية وهو «حكومة اكسترا برلمانية»
(لبنان ٧١) fr. extraparlamentaire .

ولأننا أخذنا في الاعتبار كثرة المصطلحات
التكنيكية والعلمية المعربة في العصر
الحديث ، وكثير منها تعتبر مصطلحات
ذات انتشار دولي ، لم نرد الخوض بهذه
العجالة في هذا الموضوع الواسع^(١) .
ولكننا نسجل فقط أنه في العصر
الحديث لم يتم تعريب مصطلحات في علوم

مكالحقوق والرياضيات والحيولوجيا والفلك
والجغرافيا إلا في حالات استثنائية، وذلك لأن
لهذه العلوم تقاليد عريقة عند العرب . هذا
من ناحية، ومن ناحية أخرى ففي هذه العلوم
لم تحدث ثورة تشبه الثورة التي جرت
في العلوم التكنيكية والتطبيقية

نيقولا دوبريشان

NICOLAE DOBRISAN

جامعة بوخارست Université de Bucarest

قسم اللغات الشرقية

Section de langues orientales Roumanie

(١) انظر للتفاصيل شروح كتاب اللغة العربية كائن حتى « بلر جي زيدان » ، ص ١١٦ والصفحات التالية .

في القرآن والعربية: الصراع بين القراء والتُّحاة

للدكتور أحمد علم الدين الجندى

مقدمة :

اندفع المسلمون كالسيل يدرسون القرآن ويحفظونه متفقهين متعبدين وكان الاعتماد في نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور ، كما جاء في صفة أمة الرسول صلى الله عليه وسلم « أنا جيلهم ^(١) في صدورهم » لذا أحيط نص القرآن الكريم بالعناية الشديدة المنقطة النظير ، فأقام الله له أئمة ثقات من القراء ^(٢) .

(١) النشر ١ - ٦ .

(٢) سموا بالقراء ، لأنهم يقرءون القرآن ويقرئونه ، وكان من سلوكهم في الصدر الأول أنهم يستعملون على المال على حين تخضع ظهورهم وتنحني أصلاهم على أجزاء القرآن وسوره ، ويقضون ليلهم صلاة ، وصياما وبكاء .

وكان (القارئ) عبد الله بن عمر يجد القوة على أن يختم القرآن في ليلة (غاية النهاية في طبقات القراء ١ - ٤٣٩) ويبلغ عليه بابه ويبكي حتى رمضت عيناه ، وشعاره « ابكوا ، فإن لم تبكوا فتهلكوا » ، فوالذي نفسي بيده لو يعلم العلم أحدكم اصرخ حتى ينقطع صوته ، وصلى حتى ينكسر صلبه . « فقاموا ليلهم أرقا ، وتبادرت دموعهم فرقا ، حتى ضنيت منهم الأبدان وتغيرت منهم الألوان ، صحبوا القرآن بأبدان ناحلة ، وشفاه ذابلة ، ودموع وابلة ، وزفرات قاتلة . . . فاضت عبراتهم من وعيده ، وشابت ذوائبه من تحذيره (لطائف الإشارات) (فما بعدها القسطلاني) وقد لمس النبي (ص) في القراء سعة ثقافتهم وأمانتهم ، وإخلاصهم للدين فاتخذ منهم دعاء للفكر الإسلامي ، وقوادا للتحريير ، ومن أمثلة الالاعة : : أبي بن كعب ، والمنذر بن عمر والأنصاري ، وكان (القراء) أعلم الناس بالعقيدة الجديدة ، والفكر الإسلامي الوليد . أما القواد من (القراء) فمنهم : مصعب بن عمير حامل لواء المهاجرين يوم بدر ، ولقد نأثر النبي (ص) يوم أحد لمصرعه ووقف يتلو « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه » الأحزاب آية ٢٣ ومنهم معاذ بن جبل ، وسعد بن عبيد ، وعبادة بن الصامت ، ولقد بلغ من تكريم النبي (ص) لهم عند مصارعهم يوم أحد أن أمر بتقديم أكثرهم قرآنا (سيرة ابن هشام ٢ - ٩٨) ثم خاطبهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله « إن رسول الله يشهد أنكم الشهداء عند الله يوم القيامة » (الإتقان ١ - ٣٥) . وعلى أطراف أسنة رماح القراء كان النصر يوم حنين ، كما استهات القراء في معارك الردة وكاتوا حملة اللواء فيها . ولما انكشف المسلمون قال واحد من =

تجردوا له ، وبذلوا أنفسهم في سبيله وتلقوه من صاحب الرسالة حرفاً حرفاً ، لم يهملوا منه حركة ولا سكوناً ولا إثباتاً ولا حذفاً ، ولا دخل عليهم في شيء منه شك ولا وهم ، فقد ثبت أن الرسول (ص) كان يستمع إليهم وهم يقرءون عليه ، فعن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اقرأ على : ففتحت سورة النساء فلما بلغت « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً » رأيت عينيه تذرقان من الدمع فقال : حسبك الآن ^(٢) ومن خلال هذا النص نلمح توثيق النص القرآني ، لأن النبي (ص) كان يستمع إلى قراءة أصحابه ، وهناك توثيق آخر ظهر فيما رواه عطاء بن يسار عن أبي سعيد عن

النبي (ص) قال : لا تكتبوا عني شيئاً سوى القرآن فمن كتب عني شيئاً سوى القرآن فليمححه ^(٣) وذلك مبالغة منه في شدة الحفاظ على النص القرآني لذلك كان القرآن هو النص العربي الصحيح المتواتر المجمع على تلاوته بالطرق التي وصل إلينا أيها في الأداء والحركات والسكنات ، فلم يتوفر لنص ما توفر للقرآن الكريم من تواتر رواياته ، وعناية العلماء بضبطها وتحريرها مثلاً وسنداً ، ^(٤) بل لم تعرف البشرية كتاباً أحيط بالعناية واكتنف بالرعاية فحفظ على تراكيبه وكلماته وحروفه وحركاته وكيفية ترتيله بلهجاته . مع إتقان متناه في التلقى والتلقي ، ودقة بالغة في الأخذ والأداء مثل الكتاب العزيز ^(٥) .

== (القراء) بعد أن التقط الراية في ثوبة وغضب : ما هكذا كنا نفعل مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ثم حفر لنفسه حفرة في ساحة المعركة ومعه راحة المهاجرين وظل يضرب في صمود وبأس حتى استشهد ، أما بقية القراء فقد انسحبوا من بين بقية المسلمين وألقوا كتبيهم فدائية انتحارية وكان شعارها (يا أصحاب سورة البقرة) يقصدون القراء فصدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وسحقوا الأعداء بسيوفهم المسلمة ، ولولا (القراء) لكان العار والمصير الرهيب في انتظار المسلمين كما اشترك (القراء) أيضاً في الجيش العربي الإسلامي الذي فتح مصر ٢٠ هـ وكان سلوكهم الحربي : أن يقتلوا أو يقتلوا . انظر القرآن وعلومه في مصر . الدكتور عبد الله البري - في مواطن متفرقة من الكتاب .

(١) النساء ٤١ .

(٢) تاريخ القرآن للزنجاني ص ١٧ لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٥٤ هـ .

(٣) المصاحف للسجستاني ٤ ط أولى المطبعة الرحمانية بتحقيق أثر جفري .

(٤) في أصول النحو : سعيد الأفغاني ٢٥ ط الجامعة السورية ١٩٥٧ ط الثانية .

(٥) نظرة في النحو . طه الراوي ، مجلة المجمع العلمي بدمشق مجلد ١٤ ج ٩ ، ١٠ ، سنة ١٣٥٥ هـ - ١٩٥١ م .

ولهذا كان القرآن الكريم مع قراءاته الواردة إلينا عن الصحابة^(١) وقراء التابعين - وهم جميعا ممن يحتاج بكلامهم العادى بل قراءاتهم التى تحروا ضبطها - حجة فى اللغة لا سيما لهجات العرب الذين أبيح لهم أن يقرءوه على لهجاتهم المختلفة ، قال الإمام أبو محمد عبد الله بن قتيبة « وكان من تيسير الله أن أمر نبيه (ص) أن يقرء كل قوم بلغتهم ، وما جرت عليه عاداتهم فالهزلى

يقرأ (عتي حين) يريد (حتى حين) لأنه هكذا يلفظ بها ، والأسدى يقرأ - تعلمون - و (تعلم) (وتسود وجوه) و (ألم أعهد إليكم) والتميمى بهمز ، والقرشى لا بهمز ، والآخر يقول (وإذا قيل لهم) (وغيض الماء) بإشمام الضم الكسر ، و (بضاعتنا ردت إلينا) بإشمام الكسر مع الضم ، و (مالك لا تأمنا) بإشمام الضم مع الإدغام - وهذا ما لا يطوع به كل لسان^(١) .

(١) اشتهر من الصحابة : عثمان وعلى وأبى زيد بن ثابت وابن مسعود وحذيفة . ومن التابعين بالمدينة : ابن المسيب وعروة وعطاء . ومكة : عكرمة وابن أبى مليكة . وبالكوفة : علقمة والأسود ومسروق والربيع بن خيثم ووز بن حبيش . وبالبصرة : عامر بن عبد القيس وأبو العالية وقتادة . وبالشام : المفيرة الخزوى . ثم قلت هؤلاء طبقة أخرى . وكان بالمدينة : أبو جعفر يزيد بن القعقاع ثم شيبه بن فصاح ثم تافع بن أبى نعيم وإليه صارت قراءة أهل المدينة . وكان بمكة : عبد الله بن كثير ومحمد بن محيصن . وكان بالكوفة : يحيى بن وثاب وسليمان الأعمش ثم الكسائى . وكان بالبصرة : عبد الله بن أبى إسحق وعيسى بن عمر وأبو عمر بن العلاء وإليه صارت قراءة أهل البصرة ، وكان بالشام : عبد الله بن عامر . واشتهر بالآفاق الأئمة السبعة وهم : نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وعاصم وحزمة والكسائى وهؤلاء هم القراء السبعة الذين اختار قراءتهم ابن مجاهد (٣٢٤ هـ) آخر من انتهت إليه الرياسة بمدينة السلام (إبراز المعانى ٣ ، ٥) . واقتصر حديثا مفصلا عن القراء وأفساهم وأساتذتهم وتلاميذهم فى كتاب :

كتاب السبعة فى القراءات لابن مجاهد . تحقيق د - شوق ضيف دار المعارف بمصر .

- * التيسير فى القراءات السبع للدانى تحقيق (أو توبرتزل) .
- * إبراز المعانى من حرز الأمانى لأبى شامة .
- * منجد المقرئين ومرشد الطالبين ابن الجزرى .
- * لطائف الإشارات لفنون القراءات (شهاب الدين القطرلى تحقيق - عبد الصبور شاهين والشيخ عامر عثمان .

- * النشر فى القراءات العشر لابن الجزرى .
- * غاية النهايات فى طبقات القراء لابن الجزرى نشرة ج . برجسترالى .
- * سراج القارئ المبتدى وتذكار المقرئ المنتهى - لأبى القاسم القاسم .
- * تحاف فضلاء البشر - الدمياطى .
- * تاريخ القرآن - الزنجاني .

(١) مشكل القرآن لابن قتيبة ١ - ٢٢٢ ط الخافجي ، النشر ١ - ٢٢ .

والقرآن المعجز وإن نزل بلغة أدبية نموذجية ، إلا أنه أبيع في قراءاته^(١) أن يخرج على تلك اللغة النموذجية - تيسيرا على العرب ، وجمعا لكلماتهم ، وكما يسر الله على الناس في الدين حين أجاز^(٢) لهم على لسان رسوله الكريم (ص) أن يأخذوا باختلاف العلماء من أصحابه رضي الله عنهم في فرائضهم وأحكامهم وصلاتهم وزكاتهم وحجهم وطلاقهم وعققتهم وسائر أمورهم « يسر عليهم كذلك في قراءات القرآن حيث تقرأه كل قبيلة بلهجتها » قال ابن قتيبة « ولو أراد كل فريق من هؤلاء أن يزول عن لغته ، وما جرى عليه اعتياده طفلا وناشئا وكهلا - لاشتد ذلك عليه وعظمت المحنة فيه »^(٣) وذلك يتفق مع ما رواه ابن عباس

رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله (ص) قال : أقرأني جبريل على حرف فراجعته فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف^(٤) « وهذا الحديث مشهور في كتب القراءات والمصاحف والتفاسير كما ورد من طرق متعددة ، وبأوجه مختلفة ، ولكنها مع ذلك متفقة في الفكرة^(٥) وهي أن الرسول (ص) أدرك أن الأمة العربية لا تستطيع أن تقرأ كتاب الله إذا نزل بلغة واحدة ، لأن لغة العرب لهجات مختلفة « فلو كلفوا العدول عن لغتهم والانتقال عن ألسنتهم لكان من التكليف بما لا يطاق^(٦) »

ويدل حديث رسول الله (ص) على أن هذا التيسير والتوسعة في قراءة القرآن

(١) الفرق بين القرآن وقراءاته أن القرآن « هو الوحي المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم للبيان والإعجاز ، والقراءات هي :

اختلاف ألفاظ الوحي المذكور في كتابة الحروف أو كفيته من تخفيف وتثنية غيرهما . البرهان في علوم القرآن ج ١ ص ٣١٨ - وانظر إتحاف فضلاء البشر ص ١٧١ - ويقول ابن الجزري في منجد المقرئين ص ٣ (القراءات هي علم بكيفية أداء كلمات القرآن واختلافها بعزو الناقلة) . وأما المتمعن فهو الغالب بالقراءات أداء ورواها مشافهة فلو حفظ التيسير مثلا فليس له أن يقرأ بما فيه إن لم يشافهه من شوفه به مسلسللا ، لأن في القراءات أشياء لا تحكم إلا بالسمع والمشافهة . منجد المقرئين ٣ . وانظر الفرق بين : المقرئ والقارئ والمنتهى وشروطهم وصفاتهم في : منجد المقرئين الباب الأول .

(٢) القرطبي لابن مطرف الكتاني ١ - ٢٢٣ ط أولى .

(٣) النشر ١ - ٢٣ .

(٤) فتح الباري بشرح البخاري ٩ - ١٩ لابن حجر ط البهية ١٣٤٨ هـ . وانظر النشر ١ - ١٩ لابن الجزري .

(٥) انظر جامع البيان في تفسير القرآن ١ - ١٠ ط أولى للطبري . (٦) النشر ١ - ٢٢ .

على هذه الحروف إنما كان بعد الهجزة ،
وبعد أن دخلت القبائل المختلفة الدين
الجديد فكان من التيسير عليهم قراءته
على هذه الحروف ، ومما يشهد على أن
التيسير كان في هذا الوقت أن جبريل
لقى النبي (ص) وهو عند أضواء بنى غفار
فقال « إن الله يأمرك أن تقرء أمتك
القرآن على حرف ^(١) »

أما أوجه الاختلاف بين القراءات
فقد بينها ابن قتيبة ت ٢٧٦ هـ ، وهي
سبعة أوجه :

١- في الإعراب بما لا يزيل صورتها
في الخط ولا يغير معناها . نحو « هؤلاء
بناتى هن أطهر لكم » و « أطهر » و « هل
يجازى إلا الكفور » و « هل نجازى إلا
الكفور » ، « ويأمرؤ الناس بالبخل »
و « بالبخل » ، « فنظرة إلى ميسرة »
و « ميسرة » .

٢- الاختلاف في إعراب الكلمة
وحركات بنائها بما يغير معناها ولا يزيلها
عن صورتها نحو « ربنا باعد بين أسفارنا

و « ربنا باعد » و « إذتلقونه » و « تلقونه »
و « اذكر بعد أمة » و « بعد أمة » .

٣- الاختلاف في حروف الكلمة دون
إعرابها بما يغير معناها ولا يزيل صورتها
نحو « « وانظر إلى العظام كيف ننشزها »
و « ننشزها » حتى إذا فزع عن قلوبهم » و
« فرع » .

٤- أن يكون الاختلاف في الكلمة بما
يغير صورتها ومعناها نحو « وطلع منضود »
في موضع « وطلع » .

٥- أن يكون الاختلاف في الكلمة بما
يغير صورتها في الكتاب ولا يغير معناها
نحو « إن كانت إلا صيحة واحدة »
و « زقية واحدة » و « كالعهن المنفوش »
و « كالصوف » .

٦- أن يكون الاختلاف بالتقديم والتأخير
نحو « وجاءت سكرة الموت بالحق »
« وجاءت سكرة الحق بالموت » .

٧- أن يكون الاختلاف بالزيادة
والنقصان نحو « وما عملت أيديهم »
و « عملته أيديهم » « فإن الله هو الغنى
الحميد » « فإن الله الغنى الحميد »
بنقصان « هو » « إن هذا أخى له تسع

(١) تفسير الطبرى ١ - ١٣ ط الأميرية فتح البارى ٩ - ٢٣ .

وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة أنثى^(١) .
ثم يقول ابن قتيبة « وكل هذه الحروف
كلام الله تعالى نزل به الروح الأمين
على رسول الله (ص) »^(٢) ، واختلاف
القراءات لا يخرج عن أمرين :

الأول : أن تختلف القراءتان في اللفظ.
وتتفقا في المعنى ، ومن هذا النوع ما يرجع
إلى اختلاف اللغات كقراءة :

(مرفقاً^(٣)) بكسر الميم وفتح الفاء ،
وبفتح الميم وكسر الفاء .

والحكمة في إنزال هذا النوع في
القرآن تيسير تلاوته على ذوى اللغات
المختلفة .

ومن هذا النوع ما لا تختلف فيه اللغات ،
[وإنما هما وجهان ، أو هي وجوه تجري
في فصيح الكلام]
(وَقَوْمُ نُوحٍ مِّنْ قَبْلِ^(٤)) .

وهذا النوع وارد على سنة العرب
من صرف عنايتها إلى المعانى ، ونظرها
إلى الألفاظ على أنها وسائل ، فلا ترى
بأساً في إيراد اللفظ على وجهين أو وجوه
ما دام المعنى الذى يقصده بالخطاب مستقيماً
وفى هذا توسعة على القارئ ، بعدم
قصره في نطاق حرف واحد .

الثانى : أن تختلف القراءتان في اللفظ
والمعنى معاً مع صحة المعنيين كليهما ، فلا
يكونان متناقضين ولا متعارضين ، بل
يمكن اجتماعهما في شيء واحد . نحو
(فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا^(٥)) .

قرىء بحذف الألف بعد الزاى مع
تشديد اللام والمعنى : أوقعهما في إزالة
أى الخطيئة . . . وقرىء بإثبات الألف
بعد الزاى مع تخفيف اللام والمعنى نحاهما
وأبعدهما عن الجنة فالمعنيان متغايران -
كما ترى - ولكنهما يجتمعان ، فإن
إيقاعهما في الزلة اقتضى تنحيتهما عن
الجنة ، فهناك تلازم بين المعنيين .

قرىء بخفض ميم (وقوم) ونصبها .

(١) القرطبي . لابن مطرف الكنتاني ١ - ٢٢١ ط الخانجي - أنظر : النشر لابن الجزرى ١ - ٢٧ - ٢٨ ومقدمتين
في علوم القرآن ١٥٠ : ٢٦٥ . وقارن رأى ابن قتيبة برأى ابن الجزرى والرازي والباقلاني في : ١٤ - ١٥ -
مقدمتان في علوم القرآن ٢٦٥ فا بعدها . لطائف الإشارات لفنون القراءات ٣٨ فا بعدها . والكلمات الحسان ٦٤ المطيعي
مناهل العرفان للزرقاني ١٤٨ . (٢) النشر ١ - ٢٨
(٣) آية ١٦ من سورة الكف . (٤) آية ٤٦ من سورة الذاريات . (٥) آية ٣٦ من سورة البقرة .

كل وقطع بأنّها كذلك أنزلت من عند الله ، وكل قراءة بالنسبة إلى الأخرى حق وصواب .

٢- بيان حكم مجمع عليه كقراءة سعد بن أبي وقاص « وله أخ أو أخت من أم » فهذه القراءة تبين أن المراد بالأخوة هنا هم الأخوة للأم . وفي القراءة المشهورة « وله أخ أو أخت » .

٣- ومنها كذلك ترجيح حكم اختلاف فيه كقراءة « أو تحرير رقبة مؤمنة » بزيادة مؤمنة . وذلك في كفارة اليمين ففيها ترجيح لا شراط الإيمان فيها كما ذهب إليه الشافعي ، ولم يشترطه أبو حنيفة .

٤- ومنها الجمع بين حكمين مختلفين كقراءة « ولا تقربوا النساء حتى يطهرن » أو يطهرن . بالتشديد أو التخفيف فينبغي الجمع بينهما وهو أن الحائض لا يقربها زوجها حتى تطهر بانقطاع حيضها ، وتطهر بالاغتسال .

وحكمة هذا النوع من الاختلاف أن تكون الآية بمنزلة آيتين وردتا لإفادة المعنيين جميعا . أما اختلاف القراءتين في اللفظ والمعنى مع تضاد المعنيين ، وتضارب الهدفين ، فلا أثر له في القرآن الكريم ومحال أن يكون فيه :

« وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا » .

اختلاف القراءات وتنوعها وحكمة ذلك :

١- التسهيل والتخفيف على الأمة كما قال الرسول (ص) لجبريل « إني أرسلت إلى أمة أمة أمية فيهم الرجل والمرأة والغلام والجارية والشيخ الفاني الذي لم يقرأ كتابا قط » ولو كلف هؤلاء بلغة واحدة لشق عليهم ذلك ، فاقضى الدين أن تتنوع القراءات . وإلى ذلك أشار النبي (ص) حيث قال لأحد المختلفين « أحسنت » وفي الحديث الآخر « أصبت » ولثالث « هكذا أنزلت » فصبوب قراء

(١) آية ٨٢ من سورة النساء وانظر القرطبي بن مطرف ١ - ٢٢٣ : أو القراءات للشيخ القاسمي .
(٢) انظر النشر . لابن الجزري ١ - ٥١ فما بعدها ، وكتب التفسير ، والإتقان للسيوطي في قراءات القرآن .
د . عبد الحلیم النجار مجلة كلية الآداب ١٠ ج ١٠ .

٥- ومنها اختلاف حكمين شرعيين
كقراءة « فامسحوا برؤوسكم وأرجلكم »
بالكسر أو الفتح ، فالخفض يقتضى
فرض المسح ، والنصب يقتضى فرض
الغسل وقد بين النبي (ص) ذلك فجعل
المسح لمن يلبس الخف ، والغسل لغيره .
٦- ومنها ما فى ذلك من نهاية البلاغة
وكمال الإعجاز ، وغاية الاختصار وجمال
الإيجاز .

٧- ومنها ما فى ذلك من عظيم البرهان
وواضح الدلالة إذ هو مع كثرة هذا
الاختلاف وتنوعه لم يتطرق إليه تضاد
ولا تناقض بل كله يصدق بعضه بعضا
على نمط واحد وأسلوب واحد وما ذلك إلا
آية بالغة ، وبرهان قاطع على صدق رسول
الله صلى الله عليه وسلم . ()

٨- ومنها أنها تكشف عن فروق المعانى
ولمح دقائقها ورقائقها فى السياق القرآنى :
ومن ذلك قراءة على عليه السلام ،
وأبى رجاء وابن يعمر وثابت وغيرهم «
قد شعفها حبا^(١) » بالعين المهملة ،

وقراءة الجماعة : بالغين المعجمة . فالأولى
كما يرى ابن جنى^(٢) : أن حبه وصل إلى قلبها
فكاد يحرقه لحدته . والثانية أنه فرق شغاف
قلبها حتى وصل إليه . فالفرق كما ترى
دقيق رقيق بينهما ، وإن كان المآل أحد .
ولم يزل العلماء يستنبطون من كل
حرف يقرأ به القارئ - معنى لا يوجد
فى قراءة آخر ذلك المعنى . يقول شهاب
الدين القسطلانى « فالقراءات حجة الفقهاء
فى الاستنباط ، وسحبهم فى الاهتداء
إلى سواء الصراط^(٣) » .

وليسست القراءة السبعية وحدها مصدرا
من مصادر لهجات القبائل بل
شاركتها القراءات العشرة وما فوقها
والقراءات الشاذة كذلك يقول أبو حيان
« والقراءات جاءت على لغة العرب
قياسها^(٤) وشاذها » وذلك لأن لها سندا
من صحة الرواية وموافقتها وجهها من
وجوه العربية ، ولهذا كان ابن جنى
على حق عندما وثق الشاذ واحتج له وأنه
« نازع بالثقة إلى قرائه ، محفوف
بالرواية من أمامه وورائه^(٥) » ثم حاول

(٢) المحتسب ١ - ٣٣٩ ط المجلس الأعلى .

(٤) البحر المحيط ٨ - ٤٩٣ .

(٥) المحتسب فى شواذ القراءات ١ - ٣ لابن جنى لم يدر بمكة تيمم ٣٧٩ تفسير .

(١) سورة يوسف ٣٠

(٣) لطائف الإشارات : ١ - ١٧١ .

ابن جني مرة أخرى أن يقارن بين الشاذ وغيره بقوله « ولعله أو كثير منه مساو في الفصاحة للمجتمع عليه ، نعم وربما كان فيه ما تلطف صنعته ، وتعنف بغيره فصاحته ، وتمطوه ^(١) قوى أسبابه ، وترسو به قدم إعرابه ... إلى أن يقول « لكن غرضنا منه أن نرى وجه قوة ما يسمى الآن شاذاً ، وأنه ضارب في صحة الرواية بجرائه آخذ من سمت العربية مهلة ميدانه ^(٢) » وقد أطبق الناس على الاحتجاج بالقراءات الشاذة في العربية إذا لم تخالف قياساً معروفاً بل ولو خالفته يحتج بها في مثل ذلك الحرف بعينه ، وما القراءات الشاذة في نظرنا إلا صورة نابضة بالحياة لكثير من لهجات القبائل - ولكن هذه القبائل ، لم تنل نصيباً من المجد والجاه فحكموا بشذوذ قراءتهم التي هي صورة حية لللهجاتهم ، وأرى أن القراءة وإن شذت - فهي أقوى من تراث

النشر والشعر على السواء ، لأن القراء كانوا يسجلون نزر الخلاف وقليله ؛ وهم في ذلك أضبط من رواة الشعر وغيرهم حين نقلوا إلينا إشارات لهجية وقع فيها التحريف تارة والتصحييف تارة أخرى ، يقول الفراء « والكتاب أعرب وأقوى في الحجة من الشعر ^(٣) » ، ولذا قامت حركة علمية على امتداد التاريخ بالتأليف في القراءات الشاذة والدفاع عنها .

وليست القراءات المختلفة وحدها في الميدان - وإنما تمدنا المصاحف القديمة ^(٤) أيضاً بمدد لا ينقطع من سمات لهجات القبائل ، لأن اختلافها في الرسم والإملاء يوضح اتساع العربية إبان نزول الوحي من جهة ؛ وسن جهة أخرى يشير إلى تعدد لهجات القبائل .

١ - فحاول التاء ^(٥) المفتوحة محل المربوطة في (رحمت) في المواضع السبعة

(١) تمده .

(٢) المجلس في شواذ القراءات ١ / ٣ لابن جني مخطوط مكتبته تيمور ٣٧٩ تفسير .

(٣) معاني القرآن للفراء ١ - ١٤٠

(٤) ذكر السجستاني المصاحف التي تملكها الصحابة وهي : مصحف عمر وعلى وأبي بن كعب وابن مسعود وابن عباس وابن الزبير وعبد الله بن عمر وعائشة وحفصة وأم سلمة « كتاب المصاحف ٥٠ - ٨٨ كما ذكر مصاحف التابعين وهي : مصحف عبيد بن عمير الليثي ، وعطاء بن أبي رباح ، وعكرمة ومجاهد وسعيد بن جبير والأسود بن يزيد النخعي ، وعلقمة بن قيس النخعي ومحمد بن أبي موسى وحاتم الرقاش ، وصالح بن كيسان وطلحة بن مصرف الأيامي وسليمان بن مهران الأعمش (المصاحف ٨٨ - ٩١ .

(٥) وكانت قبائل طي تقف على هاء التانيث بالتاء وذلك يصور الاحتفاظ بالطور الأقدم لظاهرة التانيث .

بالبقرة والأعراف وهود وأول مريم والروم
والزخرف ، (ونعمت) في أحد عشر
موضعا من كتاب الله ، و « امرأت » في
سورة القصص والتحريم وآل عمران ،
(وقرت) بالقصص و (فطرت) بالروم ،
و (شجرت) في سورة الدخان و (لعنت)
بآل عمران والنور (وجنت نعيم) بالواقعة
و (بنت عمران) بالتحريم (ومعصيت
بالمجادلة و (كلمة ربك) بالأعراف^(١) .
يشير إلى أثر القرشية في الإملاء
القرآني .

٢ - ومن ذلك أيضا قراءة الحسن
« سَأُورِيكُمْ دَارَ^(٢) الْفَاسِقِينَ » بواو ساكنة
بعد الهمزة على ما يقتضيه رسم المصحف ،
قد نسب أبو حيان قراءة الاشباع
إلى قبائل الحجاز بل قال « وهي أيضا
في لغة أهل الأندلس كأنهم تلففوها من
لغة الحجاز ، وبقيت في لسانهم إلى الآن^(٣)
ولهذا الرسم الإملائي وجه ما ، إذ أنه
موضع وعيد وإغلاظ - فمكن الصوت
فيه .

ولقد كان إسرائيل ولفنسون على
حق في قوله « إن العربية يجب أن تبحث
أحوالها في ضوء القرآن أولا^(٤) » ،
إذ القرآن هو الحقل الخصيب الذي
ينطوى على تاريخ العربية وأصول منابعها
وحسب القرآن بعد هذا معجزة أن جمع
القبائل العربية الشتيتة على وحدة لغوية
بعد أن صهرت لغة القرآن كل ما كان
بينهم من خلافات^(٥) ، وهضمت خلاياه
النامية لهجاتهم المتنافرة حتى حولها إلى
عصارة نافعة غدت العربية وأمدتها بروافد
غنية - ثم بنى على هذه الوحدة اللغوية
وحدة سياسية قومية شادها على وطائد
كثير من : مبادئه السامية ومثله السمحة
وقد اشترأبت حينذاك وتناولت أعناق^(٥)
كل قبيلة تيهها وفخرا حين رأث أن
لهجتها ممثلة في كتاب العربية الخالد .

مبادئ وقضايا :

وقد استقرت عند المسلمين معالم
وضوابط يعتمد عليها في القراءة ومقاييس
وضعتها الأئمة ميزانا يرجع إليه ، ومعيارا

(١) الإتحاف ١٠٣ - المقنع للرائي ٧٧ فابعدها .

(٢) البحر ٤ - ٣٨٩ .

(٤) تاريخ اللغات السامية ٢٠٦ ط أول .

(٥) انظر مقالنا في حوليات كلية دار العلوم العدد الثاني ١٩٧١ م ص ١٨١ .

يعول إليه ، ليأمنوا الزلل والخطل ،
وقد جمعتها من مصادر متعددة من علوم
القرآن ، شملت : تفسيره ومعانيه ،
وإعرابه وعزيبه ، ومشكله وقراءاته ،
ثم وضعتها في تقسيم منهجي يأخذ بعضه
بحجز بعض .

وهي في جملتها قضايا على جانب كبير
من الأهمية لموضوعنا ، فهي بمثابة الجرح
والتعديل لفن القراءات ، وضحت شروط
القراءة الصحيحة والشاذة ، سبعة
وعشرية وما فوقها ؛ كما وضعت أدوا
للقراءات الضعيفة والمتكورة وكشفت
المزيف والدخيل ؛ ثم أثار قضايا هي
لموضوعنا : لحمته وسداه كالفصاحة
وقياس العربية ، ورسم المصحف ، وما
استقر في مصاحف الصحابة والتابعين ،
ونظرية القراءة بالمعنى ، ومخالفة المصحف
الإمام ، ومكان كل من الأستاذ والرواية
والأثر في القراءة ، ثم استنباط الأحكام
الشرعية من القراءات وموقف النحاة
وأقيستهم ، وصلة ذلك بكل نوع من
أنواع القراءات .

أولا قراءة وافقت العربية ولوبوجه ،
ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولواحتالا
وصح سندها . فهي القراءة الصحيحة
التي لا يجوز ردها ولا يحل إنكارها ،
بل هي من الأحرف السبعة التي نزل بها
القرآن ووجب على الناس قبولها ، سواء
أكانت عن الأئمة السبعة أم عن العشرة
أم عن غيرهم من الأئمة المقبولين .

ومتى اختل ركن من هذه الأركان
الثلاثة أطلق عليها ضعيفة أو شاذة أو
باطلة سواء أكانت عن السبعة أم عن
هو أكبر منهم . هذا هو الصحيح عند
أئمة التحقيق من السلف والخلف^(١) .

* أئمة القراء لا تعمل في شيء من
حروف القرآن على الأفشي في اللغة والأقيس
في العربية ، بل على الأثبت في الأثر
والأصح في الثقل ، والرواية إذا ثبتت
عنهم لم يردوها قياس عزبية ، ولا فشو
لغة ، لأن القراءة سنة متبعة يلزم قبولها
والمصير إليها^(٢) .

ثانيا - القراءات سنة متبعة ونقل محض
فلا بد من إثباتها وصحتها ، ولا طريق

(١) النشر ١ - ٩ التجارية وانظر منجد المقرئين ١٥ . والكلمات الحسان ٤٧ .

(٢) أنظر كتاب السبعة في القراءات ص ٥٠ لا بن مجاهد ، وانظر منجد المقرئين ٦٥ - النشر ١ - ١٠

إلى ذلك إلا بالإسناد^(*) فلهذا توقفت عليه معرفة هذا العلم^(١) .

* ما وافق العربية والرسم ولم ينقل البتة فهذا رده أحق ، ومنعه أشد^(٢) .

* امتنعت القراءة بالقياس المطلق ، وهو الذى ليس له أصل فى القراءة يرجع إليه ولا ركن وثيق فى الأداء يعتمد عليه^(٣) .

* الاعتماد فى نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور لا على حفظ المصحف والكتب^(٤) .

ثالثاً - لا نعلم أحداً من المسلمين حظّر القراءة بالثلاث الزائدة على السبع وهى قراءة يعقوب وخلف وأبى جعفر ، فالعشر متواترة^(٥) .

* كل ما ورد أنه قرئ به جاز الاحتجاج به فى العربية سواء أكان متواتراً أم آحاداً أم شاذاً ، وقد أطبق الناس على الاحتجاج بالقراءات الشاذة فى العربية إذا لم تخالف قياساً معروفاً ، بل ولو خالفته يحتاج بها فى مثل ذلك الحرف بعينه ، وإن لم يعجز القياس عليه^(٦) .

* من يزعم أن أئمة القراءة ينقلون حروف القرآن من غير تحقيق ولا بصيرة ولا توقيف فقد ظن ما هم منه مبرءون ، وعنه منزهون^(٧) .

رابعاً - ما وافق العربية وصح سنده وأخالف الرسم فهذه القراءة تسمى اليوم شاذة لكونها شذت عن رسم المصحف

* علم الإسناد هو أعظم مدارات فن القراءات ، لأنها مسنة متبعة ونقل محصن فلا بد من إثباتها وصحتها ولا طريق إلى ذلك إلا بالإسناد وهو : خصيصة فاضلة من خصائص هذه الأمة . وروى عن يحيى بن معين الإسناد العالى قربه إلى الله وإلى رسوله (صلى الله عليه وسلم) وقيل له فى مرض موته : ما تشبهى ؟ فقال : بيتاً خالياً وإسناداً عالياً : لطائف الإشارات ص ١٧٣ . وإذا كانت صحة السند من أركان القراءة تعيين أن يعرف حال رجال القراءات كما يعرف أحوال رجال الحديث . ولقد أوجدت المكتبة الإسلامية (لأول مرة) معاجم من نوع مختلف لضبط الأشخاص والرجال وتراجهم وهو فن قائم بذاته يعرف به (الجرح والتعديل) لمعرفة الثقة والمزييف والدخيل والضعيف وبحث حال كل بحثا يتناول حياته : ذهنه وسلوكه ، هيئة وصلاته ، عدالة وضبطه ليحددوا مكانه : قبولاً أو رفضاً . كما يحددوا النسبة بين الخبر ومصدره ، ومن السهل عليك أن تقرأ زاوية لقراءة من القراءات وأنت على مكتبك ناعم البهال ، ولا تعرف المنهج الصارم والطريق الشاق والأساس النقدي النزىه فى سبيل هذا الإسناد .

(١) لطائف الاشارات لفنون القراءات ص ١٧٣ القسطلانى .

(٢) ١٧ - ١ النشر .

(٣) ١٧ - ١ النشر وانظر التبيين لبعض المباحث

(٤) ١ - ٦ النشر .

المتعلقة بالقرآن ٨٩ ظاهر الجزائرى .

(٥) منجد المقرئين ٢٤ ، ٢٧ ، ٢٩ . لطائف الإشارات ٧٥ .

(٦) ص ١٥ الاقداح للسيوطى .

(٧) ٢ - ٢١٤ النشر .

المجمع عليه . . . وإجماع المسلمين على أنه لا تجوز القراءة بالشاذ ، ولا يجوز أن يصلى خلف من يقرأ بها^(١) .

* القراءة الشاذة عن قراءة الحجة ، كفى بشذوذها عن قراءتهم دليلاً على بعدها من الصواب^(٥) .

* القراءة الشاذة هي ما وراء العشر ولا تجوز القراءة بها^(٢) مطلقاً وإن كان إسنادها صحيحاً ويجوز تعلمها وتدوينها وبيان وجهها من حيث اللغة والإعراب والمعنى ، واستنباط الأحكام الشرعية منها والاستدلال بها على وجه من وجوه العربية^(٣) .

* قال أبو حيان في البحر ٨٧/٤ حكى أبو عمر الزاهد في كتاب اليواقيت أن أبا العباس أحمد بن يحيى كان لا يرى الترجيح بين القراءات السبع . وقال : إذا اختلف الإعراب في القرآن عن السبعة لم أفضل إعراباً على إعراب في القرآن . فإذا خرجت إلى كلام الناس فضلت الأقوى . قال أبو حيان : نعم السلف لنا أحمد بن يحيى كان عالماً بالنعو واللغة ومتديناً ثقة^(٦) .

* ما وافق المعنى والرسم أو أحدهما من غير نقل لا تسمى شاذة بل مكذوبة ينكفر متعمداً^(٤) .

خامساً - ما قرئ به في السبعة لا يرد ولا يوصف بضعف ولا قلة .

(١) منجد المقرئين ص ١٦ ابن الجزرى ط الوطنية الإسلامية .

(٢) انظر التبيان ١١٩ .

(٣) وقد كان ابن شنيوز (٣٢٨ هـ) يرى القراءة بالشاذ ، أى ما خالف الرسم . ما دامت الرواية صحيحة النقل ، فأمر الوزير بضربه سبع درر أو أكثر . . . وتوبه عن التلاوة بها غضباً ، وقيل إنه نفي من بغداد (طبقات القراء ٢ / ٥٤ فما بعدها) وكان يقرأ بقراءة ابن مسعود وأبي وأشهر من ألف في القراءات الشاذة : قطرب ٢٠٦ هـ ، وثعلب ٢٩١ هـ ، والجستاقى ٣١٦ هـ ، وابن خالويه ٣٧٠ هـ ، وابن جنى ٣٩٢ هـ كما ترى هذه القراءات مشبوبة في كتب التفاسير كالكشف للزحشرى ، والبحر المحيطة لأبي حيان ويمكن أن يحمل الشاذ على قلة من قرأ به في الأمصار بالقياس إلى القراءات السبع وهذا المعنى ما عناه ابن جنى في صدر كتابه (المحتسب) .

(٤) منجد المقرئين ١٧ لابن الجزرى ، وكان ابن مقسم الطائفة ٢٥٤ يرى أن كل ما صح له وجه في العربية لحرف من حروف القرآن المدونة في المصحف العثماني تجوز قراءته بها في الصلاة وغيرها فكان يقرأ بما لم ينقل عن القراء مستخرجاً لها وجوها من اللغة ، وهذا المذهب يؤدي إلى قراءات مكذوبة وعقد له مجلس ووقف للضرب فتشاب . طبقات القراء ٢ - ١٢٤ .

(٥) تفسير الطبرى ١١ / ١٩٨ تحقيق شاكر .

(٦) وانظر البحر ٢ - ٢٣١ ، ٢٦٥ ، ٥٠٦ ، ٨٨ - ٣ ، وانظر الاثقان ١ - ١٤٢ فما بعدها ط ٣ حجازى .

* وما جاء به المسلمون من القراءة مستفيضاً
فيهم ، فغير جائز الاعتراض بالشاذ من
القول - على ما قد ثبتت حجته بالنقل
المستفيض^(١) .

* إذا اختلفت القراءات في الألفاظ
واتفقت في المعاني ، فأعجبها إلى ما كان
أظهر وأشهر^(٢) .

* ما اجتمعت عليه القراءة حجة ، وما
انفرد به المنفرد عنها رأى . ولا يعترض
بالرأى على الحجة^(٣) .

* يقول ابن خالويه^(٤) وبعد : فإنني
تدبرت قراء الأئمة السبعة من أهل
الأمصار الخمسة^(٥) المعروفين بصحة النقل ،
وإتقان الحفظ ، المأمونين على تآدية
الرواية واللفظ ، فرأيت كلاً منهم قد
ذهب في إعراب ما انفرد به من حرفه
مذهباً من مذاهب العربية لا يدفع ،
وقصد من القياس وجهاً لا يمنح ، فوافق

باللفظ والحكاية ، طريق النقل والرواية
تغير موثر للاختيار على واجب الآثار .
سادساً - أقوى القراءتين إعراباً ما عليه
الجماعة^(٦) .

* يقول ابن هشام لم يوجد في القرآن
العظيم حرف واحد إلا وله وجه صحيح
في العربية^(٧) .

* الكتاب أعرب وأقوى في الحجة من
الشعر^(٨) .

* القراءة قد تأتى على القليل وعلى المرجوح
في الاستعمال العربي .

سابعاً - إذا ثبتت القراءة لهجة عربية
فلا ينبغي أن يخطأ بها القارئ أو يغلط^(٩)
* القرآن يأتي باللغتين المختلفتين^(١٠) :
* توجيه تأويل القرآن إلى الأشهر من
اللغات - أولى من توجيهه إلى الأنكر -
ما وجد إلى ذلك سبيلاً^(١١) .

* القراءات جاءت على لغة العرب قياسها
وشاذها^(١٢) .

(١) تفسير الطبري ٢٦٤/٣ ، ٦٥/٦ تحقيق شاكر . (٢) تفسير الطبري ٥٦٩/٧

(٣) تفسير الطبري ٦ - ٤٤٢ (٤) الحجة في القراءات السبع ص ٢٧ بيروت

(٥) المدينة ومكة والبصرة والكوفة والشام . (٦) المحتسب ١١٥ / ٢ ط المجلس الأعلى

(٧) نقلاً عن المهدوي في شرح الهداية وانظر (شرح شذور الذهب لابن هشام ٤٢ تحقيق محي الدين) .

(٨) معاني القرآن للغراء ١ / ١٤ مصطفى محمد بدون تاريخ .

(٩) البحر ١ / ١٥٢ النهر للماد ١ / ١٥٢ (١٠) معاني القرآن للغراء ٣ / ٧٤

(١١) البحر ٨ - ٩٢ (١٢) تفسير الطبري تحقيق شاكر ٥ / ٣٣٧

- * القرآن يختار له ولا يختار عليه^(١) .
- * النحاة حكموا النحو الذي وضعوه في القرآن . قال الإمام محمد عبده^(٨) .
- ثامناً - فأما القرآن فيختار له أفصح اللغات^(٢) .
- * لغة القرآن أفصح اللغات^(٣) .
- * لغة القرآن أفصح أساليب العربية على الإطلاق^(٤) .
- * قال ابن خالويه في شرح الفصيح « قد أجمع الناس جميعاً أن اللغة إذا وردت في القرآن فهي أفصح مما في غير القرآن لا خلاف في ذلك^(٥) .
- * كتاب الله جل ثناؤه نزل بأفصح لغات العرب ، وغير جائز توجيه شيء منه إلى الشاذ من لغاتها ، وله في الأفصح الأشهر معنى مفهوم ووجه معروف^(٦) .
- * كتاب الله جل ثناؤه نزل بأفصح لغات العرب ، وغير جائز توجيه شيء منه إلى الشاذ من لغاتها ، وله في الأفصح الأشهر معنى مفهوم ووجه معروف^(٦) .
- * لا يلزم من وجود وجه في اللغة وجود قراءة به ؛ لأن القراءة توقيفية^(١١)
- * القراءات تجري على الرواية والأثر لا على مذهب القياس والنحو ، وبيان ذلك :

(١) المحتسب ١ / ٤١ ، ٥٣ ط المجلس .
 (٢) سر صناعة الإعراب ١ / ٣١٨ .
 (٣) المزهري ١ / ٢٥٧ ط الحلبي .
 (٤) الإنتصاف بهامش الكشف ٢ / ٤٢ .
 (٥) البحر ٢ / ٣٦٢ .
 (٦) أمالي ابن الحاجب ٧٣ / دار الكتب رقم ٢٦ مخطوطة .
 (٧) المحتسب ١ / ٢٧٢ .
 (٨) العربية يوهان فك ٤ ، ٥ .
 (٩) تفسير الطبري ١٢ / ٣٢٢ .
 (١٠) تفسير المنار ٢ / ٢٣٦ .
 (١١) ١٠ / ١ النشر .

مايتنصل بالدرس النحوى :

(أ) في شواذ القرآن لابن خالويه ص ٤
« ولا تكونوا أول كافر به واشتروا ^(١) »
أجازه الفراء في الذمير . وهى فى المصحف
« ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا » وما أجازه
الفراء عند علماء النحو لم يقرأ به واحد
فى السبعة ولا فى العشرة ولا الأربعة الذين
بعد هؤلاء .

(ب) « فدعا ربه أن هؤلاء قوم ^(٢) » .
يقول الفراء : تفتح أن - ولو أضمرت
القول فكرتها لكان صوابا ^(٣) . ولم يقرأ به
واحد من السبعة أو العشرة أو الأربعة
بعدها ^(٤) .

(ج) « وقيل يارب ^(٥) » خفضها
عاصم والسلمى ونصبها أهل المدينة
والحسن قال الفراء « ولو قال

قائل : وقيله - رفعا كان جائزا ^(٦) » ولم
يقرأ بها واحد من السبعة أو العشرة
أو الأربعة بعدها ^(٧) . وإنما جاءت فى قراءة
شاذة عن أبى قلابة وقتادة والحسن ^(٨) .

(د) « وقل سلام فسوف تعلمون ^(٩) »
« رفع سلام » بضمير عليكم وما
أشبهه ، ولو كان : وقل سلاما كان
صوابا . ولم يقرأ بما رآه الفراء أحد من
السبعة أو العشرة أو الأربعة بعدها فى
هذا الموضع ^(١٠) .

فالقراءة جرت على الأثر والرواية ولم
تجر على ما يجيزه القياس ومذاهب العربية .

(هـ) « ولا تحلقوا رؤوسكم حتى ^(١١) »
يبلى الهدى محله ^(١٢) يقول أبو حيان : المحل
هنا المكان ولم يقرأ إلا بكسر الحاء فيما
علمنا ، ويجوز الفتح إذا كان يراد به المكان ^(١٣) .

(١) البقرة ٤١ .

(٢) الدخان ٢٢ .

(٣) إتحاف فضلاء البشر ٣٨٨ . وإنما قرأ بها عيسى بن عمر والحسن وابن أبى إسحق وهى قراءة شاذة .
أنظر مختصر شواذ القرآن لابن خالويه ١٣٧ .

(٤) الزخرف ٨٨ .

(٥) معاني القرآن للفراء ٣ / ٣٨ ، وأنظر النشر ٢ / ٣٧٠ .

(٦) مختصر ابن خالويه ١٣٦ .

(٧) إتحاف فضلاء البشر ٣٨٧ .

(٨) النشر ج ٢ سورة الزخرف . الإتحاف

(٩) الزخرف ٨٩ .

(١٠) البقرة ١٩٦ . (١٢) البحر المحيط ٢ / ٧٥ .

(١١) الزخرف - كتاب السبعة لابن مجاهد ٥٨٩ .

ما يتصل بالدرس اللغوى :

أ (أ) « هذا لله بزعمهم »^(١) .

واللغة تحكيها مثلثة الزاى ثلاث
نمات ، ولم يقرأ بكسر الزاى أحد
نعلمه^(٢)

وأجود ذلك ما اختارته القراء الذين
يؤثر عنهم القراءة^(٣) وهو الوجوه
اللغوية خارجة عن الرواية لذالم يعترف بها
أى قارئ. وإن كانت اللغة ترضاها .
(ب) وفى قوله تعالى : « لمن أراد أن
بسم الرضاغة^(٤)

واللغة تحكيها بفتح الراء وكسرها .
والقراء أجمعوا على الفتح^(٥) .

عاشراً نص كثير من العلماء على أن الحروف
التي وردت عن أبي وابن مسعود وغيرهما
بما يخالف هذه المصاحف . منسوخة
وإن كان يصح الاحتجاج بها فى العربية ؛
لأنها مروية بالسند المتصل ، مع شذوذها
لمخالفتها المصاحف العثمانية ، وأما من
يقول إن بعض الصحابة كابن مسعود

كان يجيز القراءة بالمعنى فقد كذب عليه
إنما قال : « إني قد سمعت إلى القراءة
فوجدتهم متقاربين » فاقروا كما علمتم
نعم كانوا ربما يدخلون التفسير فى
القراءة إيضاحاً وبياناً ، لأنهم محققون
لما تلقوه عن النبي (صلى الله عليه وسلم)
قرآنا فهم آمنون من الالتباس ، وربما
كان بعضهم يكتبه معه لكن ابن مسعود
رضى الله عنه كان يكره ذلك ويمنع
منه فروى مسروق عنه أنه كان يكره
التفسير فى القرآن ، وروى غيره عنه :
« جردوا القرآن ولا تلبسوا به ما ليس
منه^(٦) ويؤخذ من هذا النص :

١- أن ما يخالف المصحف الإمام
بالزيادة والنقصان - إنما هو من التفسير
والبيان ولا يعتبر قرآناً كقراءة الحسن
« وإن منكم إلا وادها - الورود الدخول »
قال ابن الأنبارى : قوله الورود
الدخول « تفسير من الحسن المعنى
الورود ، وغلط فيه بعض الرواة فادخله

(٢) وإنما قرئ بالفتح والضم .

(٤) سورة البقرة ٢٣٣ .

(١) الأنعام ١٣٦ .

(٣) معاني القرآن للقراء ١- ٣٥٦ .

(٥) معاني القرآن للقراء ١/ ١٤٩ .

(٦) النشر ٢/ ٣٢ وقارنه بما ورد فى تفسير الطبرى تحقيق محمود شاكر ١/ ٥١ .

في القرآن^(١) ومما يؤكد ذلك أن هذه الزيادات إنما هي من قبيل التفسير قراءة ابن عباس « النبي أولى بالموؤمنين من أنفسهم » .

وهو صلى الله تعالى عليه وسلم أب لهم بدون « وأزواجه أمهاتهم » ثم ذكر الشهاب الخفاجي أن « عمر رضى الله تعالى عنه مربغلام يقرأها فقال للغلام « حكّه من المصحف »^(٢) .

٢- أنه لا يجوز (قراءة القرآن بالمعنى) لأنها تكل تحديد النص القرآني إلى هوى كل إنسان .

ونظرية القراءة بالمعنى يراها المستشرقون من نولدكه إلى رجييس بلاشير حيث أقحم الأخير على النص القرآني بعض آيات إلى سورة النجم اعتمادا على

روايات لا سند لها رفضها النقد المنهجي سندنا ومتنا مما يسمى عند علماء المسلمين بالجرح والتعديل ، وهو منهج معيارى صارم شامل في نقد الأسانيد والمتون^(٣) .

* قرأ على بن أبي طالب وهو على المنبر « وطلع منضور^(٤) » فقبل له : أفلا تغيره في المصحف .

فال : ما ينبغي للقرآن أن يهاج أى (لا يغير)^(٥) .

الحادى عشر- القراءة نقل ، ماوافق منها ظاهر الخط^(٦) كان أقوى ، وليس اتباع الخط بمجرده واجبا ما لم يعضده نقل ، فإن وافق فيها ونعمت ذلك نور على نور^(٧) وذلك كما في سورة الحج

(١) الكواكب الدرية ٣٣ / ٣٤ لحداد ط ١٣٤٤ . وانظر أمثلة كثيرة في مصاحف الصحابة والتابعين في :

(ط ليدن ١٩٣٧ . Materials For The History of The Test of The Our'an)

(٢) تاريخ القرآن ١٦٠ د . عبد الصبور شاهين نقلا عن نسيم الرياض في شرح شفاء القاضى عياض ١-٣٠٣ ط أولى .

(٣) وانظر مزيداً من البيان والتفصيل عن هذا الموضوع في كتاب تاريخ القرآن ، د - عبد الصبور

شاهين (٧٧-٩٧) . (٤) الواقعة ٢٩ . (٥) شواذ ابن خالويه ١٥١ .

(٦) وقد كتب برسم كان أدق ما وصل إليه في هذا العهد ويسمى الرسم العثمانى نسبة إلى عثمان رضى الله عنه

وأصبح هذا الرسم الذى قدره عثمان باجماع الصحابة سنة لا تخالف ؛ خوفا من العبث فيه والتبديل . وقد سئل مالك :

هل يكتب المصحف على ما أحدثه الناس من الهجاء ؟ فقال : لا . إلا على الكتابة الأولى (لطائف الإشارات ١-٢٩٧)

(وقد فصل بعضهم بين كتابة ليكون أصلا يرجع إليه ، وبين كتابته للتعليم والرسم غير القراءة ، لأن القراءة مصدرها

الواية والرسم مصدره طريقة الكتابة والمسلمون ينطقون بالحرف كما روى لا كما رسم والعمدة في نقل القرآن على حفظ

الصدور لا على خط المصاحف والكتب وليس اتباع الخط وحده ملازما ما لم يؤيده نقل وأكثر رسم المصاحف موافق

لقواعد العربية إلا أنه قد خرجت أشياء عنها يجب علينا اتباع مرسومها والوقوف عند رسومها . ا . هـ .

(٧) إبراز المعاني من حرز الأمانى لأبي شامة ٤٠٦ ط الحلبي رسم المصحف ٦٦ ، د - عبد الفتاح شلبي .

« ٢٣ آ) يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير » .

فقراً عاصم ونافع بالنصب هنا وفي فاطر في قوله تعالى « يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤ » والباقون بالجر فيهما . ورسم بالالف في الحج خاصة دون فاطر ، فلو اتبعوا الخط لقرأوا ما في الحج بالالف ، وما في الملائكة بالخفض ويقول أبو عبيد « لولا الكراهية لخلاف الناس لكان اتباع الخط أحب إلى فيكون في هذا ^(١) بالنصب والآخر ^(٢) بالخفض وأبو عبيدة لم يقرأ بهذا ، وآثر النقل والرواية على الخط والرسم . * لا تأخذوا القرآن من مصحفى ولا العلم من صحفى ^(٣) » ولذلك عد من تحريف وتصحيف .

أهل البدع :

(أ) ما عزي إلى حمزة الزيات من أعدائه « ذلك الكتاب لا زيت فيه ^(٤) » ! وكان يتعلم القرآن من المصحف فقراً ذلك وأبوه يسمع

فقال أبوه : دع المصحف وتلقن من أفواه الرجال .

(ب) وأن عبد الله بن أحمد بن حنبل تقدم قوما يصلى بهم ، « فقراً : اقرأ باسم ربك الذى خلق » فقال له قائل أبوك ضرب بالسياط على أن يقول كلام الله مخلوق ، وقد جعلت خالق الأشياء مخلوقاً ^(٥)

(ج) كما قرأ آخر « وفرش مرفوعة » وآخر « وأخذ برأس أخيه يجره إليه »

وجميع هذه وجوه مصحفة وكلها عبث وضلال ولا تعتبر قرآنا مع أن رسم المصحف يحتملها .

على أن هناك قراءات في اللغة صحيحة ويحتملها الرسم ، ولكن لم يقرأ . ومن ذلك :-

(أ) قوله تعالى : « وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ^(٦) » فقد أجمع القراء على ضم الميم من مكث . مع أن اللغة تجيز فيها تثنية الميم ورسمها يحتمل الأوجه الثلاثة ^(٧) .

(٢) سورة فاطر آ ٣٣

(١) سورة الحج .

(٣) التصحيف والتحريف - ٨ للعسكري ط ١٩٠٨

(٤) التصحيف والتحريف ٩ للعسكري .

(٥) التنبيه على حدوث التصحيف ٣٠ حمزة الأصمى

من علماء القرن الرابع نسخة مخطوطة عن مصورة دار الكتب المصرية ٦٨١ هـ .

(٧) البحر ٦ / ٨٨

(٦) الإسراء ١٠٦

(ب) وفي قوله تعالى في سورة البقرة^(١) « وعلى أبصارهم غشاوة » وفي سورة الجاثية^(٢) « وجعل على بصره غشاوة » فرسم المصحف للكلمة بحذف الألف في المكانين ومع ذلك اتفق القراء بقراءتها بكسر الغين وفتح الشين وإثبات ألف بعدها في البقرة ، على حين اختلفوا في الجاثية ، فبعضهم يقرأ بكسر الغين مع الألف بعد الشين وبعضهم بفتح الغين وسكون الشين ، ولو قرئ موضع البقرة بفتح الغين وسكون الشين لصح لغة ومعنى ، ولكن لم يقرأ أحد بهذه القراءة في هذا الموضع .

فليس تجرد المصحف من الشكل سببا في تنوع القراءات واختلافها وإلا لوجدنا القراءة تقرأ على ما تجيزه اللغة من الحركات ، وإنما مرد هذا التنوع

والاختلاف : الروايات الموثقة والأسانيد الثابتة الموصولة ، والنقل والتوقيف والتلقي والسماع لا الخط والرسم . [لا سيما إذا عرفنا أن القراءات تليت ورويت قبل كتابة المصحف فهي أصل والرسم تابع لها ، وهذا يؤكد فساد مذهب بعض المستشرقين الذين يرون^(٣) أن الرسم أصل وإليه يرجع أكثر القراءات ؛ إذ كان غفلا من النقط ومن الحركات . يلاحظ أن النحويين السابقين كانوا من المقرئين ، وكانوا بهذه الصفة (القراء النحاة) رقباء على أداء القراءات ومن ذلك أن أبا الأسود ٦٩ هـ وهو قارئ نحوي سمع رجلا يقرأ : « إن الله برئ من المشركين ورسوله » بالجر . فاستعظم أبو الأسود وقال : عز وجه الله أن يبرأ من رسوله^(٤) ! فالمدرستان كانتا في اتجاه واحد يصعب الفصل بينهما ، وقد قامتتا بعمل واحد في إعراب النص

(١) آية ٥٧ . (٢) آية ٢٣ .

(٣) وانظر كتاب مذاهب التفسير الإسلامي د - النجار ص ٨ ، والمذاهب الإسلامية ٤ / د . على عبد القادر ، ورسم المصحف د - عبد الفتاح شلبي ، والقراءات للشيخ القاضي .

(٤) نزعة الألباء . ٨ - ٩ . يؤكد الصلة القوية بين النحاة الأول والقراء ما نراه في كتب طبقات النحاة من مثل قولهم (كان حسن الإقراء ونهاية في علم العربية) وقولهم (وكان إماما في القراءات وعللها . . . وأما النحو فكان فيه بحرا لا يحارى) . وقولهم (كان مقدما في صنعة الإعراب ضابطا للقراءات) . وقولهم (أقرأ القرآن والعربية) أنظر نزعة الألباء ، وبغية الوعاة في أماكن مختلفة . وهذا يؤكد وحدة مدرسة النحو والقراءة .

القرآني أيام أبي الأسود . ثم توجه
نفر من رجال هذه المدرسة إلى دراسة
النحو ليلائم بين القرآن والعربية فيتخذ
منهما مصدر تقعيد ، ومناطق إصلاح
وتصحيح . ومن ذلك أن أبا عمرو
بن العلاء سمع رجلا ينشد :

ومن يلق خيرا يحمد الناس أمره

ومن يغو لا يعلم على الغي لائما

فقال : أقومك أم أتركك تتسكع

في طُمتك ؟ فقال : بل قومني . فقال :

قل : ومن يغو (بكسر الواو) ألا ترى
إلى قول الله عز وجل : (فغوى) .

كما كانوا معا يردون القراءات التي
لم ترد عن الرسول وإن كانت جائزة في
في العربية :

(أ) فالحجاج بن يوسف يقول

ليحيى بن يعمر ت ١٢٩ هـ :

أتجدني ألحن ؟ فقال :

الأمير أفصح من ذلك ، فقال :

عزمت عليك لتخبرني ! فقال

يحيى : نعم ! فقال له : في

أى شيء ؟ فقال : في كتاب

الله تعالى ، فقال : ذلك

(١) التوبة ٢٤ .

(٣) أنظر البحر المحيط ٥ / ٢٢٠ .

أشنع ، ففي أى شيء من كتاب الله
تعالى ؟ قال : قرأت : « : « قل إن
كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم
وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها
وتجارة تخشون كسادها ومساكن
ترضونها أحب إليكم^(١) » .

فرفعت أحب . وهو منصوب . . فقال
الحجاج ليحيى : لا تساكني ببلد أنا
فيه ، ونفاه إلى خراسان^(٢) .

والرواية بالنصب ، والرفع مخالف:
لإجماع القراء ، وإن كان جائزا في
في العربية^(٣) . ولم يستطع الحجاج
أن يحاج يحيى بن يعمر بما تجيزه
العربية ، على الرغم من بطشه ، وسلطانه .
(ب) وهذا أبو عمرو بن العلاء وقد

كان له مذهب خاص في النحو
ومع ذلك كان في القراءة
لا يتعدى ما نقله عن أئمتيه
وتلقاه عن شيوخه ، ولو خالف
مذهبه في العربية . فقد حدث
أبو عمرو قائلا :

لولا أنه ليس لي أن أقرأ إلا بما قرئ
لقرأت كذا وكذا من الحروف كذا

(٢) نزهة الألباب : ترجمة يحيى بن يعمر .

وكذا . فقد أدغم أبو عمرو وحده الراء في اللام من (يغفر لكم) وما شاكله في القرآن . وهو ضعيف عند البصريين^(١) . ولا نستطيع أن نفسر ذلك إلا أن أبا عمرو يلتزم في القراءة النقل والرواية فقد خالف البصريين مع أنه بصري ! ،

وأخيرا اشتد الجدل بين القراء والنحاة واندلعت نار العداوة والبغضاء ، وذلك بعد أن انفصلت مدرسة القراءة عن مدرسة النحو^(٢) ، فاتجه النحاة إلى القراءات ليأخذوا منها ما يؤيد وجهة نظرهم ، أو ليرفضوا منها ما يتخالف مع أقيستهم ، فهم من هذا المنطق يؤيدون أو يعارضون ،

أولا - من ذلك أن الأصمعي سأل المازني : ما تقول في قول الله عز وجل « إنا كل

شيء خلقناه بقدر »^(٣) فقال المازني : يذهب سيبويه إلى أن الرفع فيه أقوى من النصب في العربية لاشتغال الفعل بالضمير . وليس هناك شيء هو بالفعل أولى ، ولكن أبي القراء إلا النصب^(٤) ، والقراءة سنة متبعة .

ويقول ابن جني في المحتسب^(٥) (الرفع هنا أقوى من النصب) .

ثانيا - كما نرى عيسى بن عمر : وكان عالما بالنحو وله اختيار في القراءة على مذاهب العربية يفارق قراءة العامة ويستنكره الناس^(٦) - يقرأ :

« هؤلاء بناني هن أطهر لكم » بنصب أطهر^(٧) وفي المحتسب^(٨) يقول أبو الفتح : ذكر : سيبويه هذه القراءة وضعفها

(١) الحجة لابن خالويه ٥٦ بيروت وانظر : إعراب ثلاثين سورة لابن خالويه ١٢ وفيها يذكر أن سيبويه لا يميز الإدغام ، والفراء يميزه .

(٢) يقول السيوطي في البنية ٢ / ٤٨٢ تحقيق أبي الفضل في ترجمة ثابت بن محمد بن يوسف بن حيان الكلاعي « إنه لم يكن من أئمة النحويين ، بل كان من أئمة المقرئين » وانظر : ترجمة محمد بن عبد الله بن مالك صاحب الألفية ١ - ٤٨٢ في المرجع السابق .

(٣) ٤٩ من سورة القمر .

(٤) لم يقرأها بالرفع إلا أبو السمال : المحتسب ٢ / ٣٠٠ ، وله اختيار في القراءة ، شاذة عن العامة ، ولم يصحح ابن البلزري سند قراءته . طبقات القراء ٢ / ٢٧

(٥) ٢ / ٣٠٠ ط المجلس الأعلى .

وكذلك كان يحيى اليزيدي ، فقد اشتهر بالنحو ، وله اختيار في القراءة ، خالف فيه أبا عمرو .

(٦) طبقات القراء ١ / ٦١٣ (٨) ١ / ٣٢٥ ط المجلس الأعلى .

وقال فيها « احتبى ابن مروان في لحنه »
وكان محمد بن مروان المدنى القارى
قد قرأ بها . ويقول ابن جنى « وأنا من
بعد أرى أن لهذه القراءة وجهها صحيحا » .

ثالثا : كما يضعف سيبويه^(١) النصب
في قوله تعالى : « إنما أمره إذا أراد شيئا .
أن يقول له كن فيكون »^(٢) مع أن
قراءة النصب قراءة ابن عامر ، وقراءة
الكسائى في بعض المواضع^(٣) . والقراءة
سبعية متواترة قرأ بها ابن عامر ، وإمام
الكوفيين الكسائى ويقول أبو حيان
(فالقول بأنها لحن من أقبح الخطأ
المؤثم الذى يجر قائله إلى الكفر^(٤)) .
وهذه لمحة من تعصب النحاة لفنهم
وقواعدهم لأنهم كثيرا ما يصححون
قراءة القرآن بما يوافق العربية وإن لم
تثبت الرواية ، وقد شدد علماء القراءات
النكير عليهم . ويظهر ذلك واضحا
أولا - فى زمن متأخر عند أبى العباس
المبرد حين قال : لو كنت ممن يقرأ
لقراءت «ولكن البر» بفتح الباء يشير إلى

قراءة : « ليس البر أن تولوا وجوهكم
قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن
بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب . . »
بكسر الباء فيهما . فالمبرد يرجح قراءة
الفتح ، « ومن أجل ذلك كان على
المبرد أن يتحمل سخط أهل السنة عليه
قرونا طويلة بعد وفاته ، إذ كانوا يرون
فى القراءة المتلقاة بالقبول « ليس البر »
بكسر الباء تحقيقا للإعجاز البلاغى فى
كلام الله^(٥) . وهو نفسه المبرد الذى
يقول (لو صليت خلف إمام يقرأ :
« ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى
إنى » بكسر الياء لأخذت نعلى ومضيت^(٦) »
فانظر كيف يقاوم المبرد قراءة سبعية
بخروجه عن جماعة المسلمين وإمامهم !
كما يتواصى النحاة على القدح فيها
والنيل منها ، وهى قراءة أحد القراء
السبعة وصحت سماعا وقياسا !

ثانيا : زمن متقدم - ومن ذلك أن ابن
أبى عبيدة^(٧) قرأ (اقتتلنا) وقرأ عبيد

(١) الكتاب ١ / ٤٢٣ .

(٣) النشر ٢ / ٢٢٠ ط التجارية .

(٥) أنظر : مذاهب التفسير الإسلامى : اجنتس جولد تسهر ٤٦ تحقيق د - على عبد القادر . وانظر تحقيق

د - النجار ٦٦ فابدها . (٦) تفسير القرطبى ٥ - ٣ الاونظر درة الغواص ٩٥ للحريرى .

(٧) انظر : تفسير الكشاف ، والبحر المحيط فى سورة الحجرات .

ابن عمير وزيد بن علي (اقتتلا) وذلك في قوله تعالى : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما »^(١)

فقد عاد ضمير جمع المذكور على مشى مؤنث ، والقواعد النحوية تقتضي أن يقال (اقتتلتا) أو يقال (اقتتلا) فقد روعي فيها معنى (طائفتان) إذا أريد بالطائفة : الفريق

والقراءة السبعية أصح في النقل وأثبت في الرواية والسند إذ ركيزتها التلقين والتوقيف ، والتلقى والمشافهة ، وقد جرت على أفصح الأساليب ، وتوجيهها أن الطائفة الواحدة تجمع أفراد كثيرة ، فالطائفتان في معنى الجماعة ، ولهذا أتى بواو الجمع في (اقتتلوا) باعتبار معنى (طائفتان) ، وإذا كان القرآن الكريم قد راعى المعنى فقد راعى هنا اللفظ أيضا حيث أتى باللف التثنية في قوله

عز وجل (فأصلحوا بينهما) والسر الخفي في مراعاة المعنى أولا واللفظ ثانيا أن الطائفتين في حال القتال تكون طائفة مختلطة بالأخرى بحيث لا يستطيع التمييز بينهما بخلاف حالهما في الصلح بحيث تكون كل طائفة متميزة عن الأخرى ، ولهذا جمع ضميرهما في حال القتال وثناه في حال الصلح بينهما^(٢) أما ما جاء عن ابن أبي عبيدة وعبيد بن عمرو وزيد بن علي فهمي قراءة شاذة لم ترد لافي السبعة ولا في غيرها من القراءات الصحيحة الموثقة وإنما وردت في مصاحف قديمة : لابن مسعود ، وأبي ومصحف عبيد بن عمرو^(٣) ، وابن أبي عبيدة ، له حروف في القراءات واختيار خالف فيه العامة وفي صحة إسنادها إليه^(٤) ، نظر فقرائته واهية ، كما أن القراءة الصحيحة المشهورة تقدم

(١) الحجرات ٩ .

(٢) انظر : القراءات في نظر المستشرقين : ١٩٧ للشيخ القاضي ، المذاهب الإسلامية ٦٤ جولد تسيهر ونقله إلى العربية د - علي عبد القادر .

(٣) انظر مصحف ابن مسعود وأبي بن كعب ومصحف عبيد بن عمرو في : Materials For the History of the text of the Our'an, JEFY, Brill, 1937.

(٤) طبقات القراء : ١ / ١٩ وتوفي ابن أبي عبيدة ١٥١ هـ أو ٥٢ أو ١٥٣ . وأخذ القراءة عن أم الدرداء الصغرى . وزيد بن علي ت ٣٥٨ هـ . طبقات القراء ١ / ٢٩٨ . وعبيد بن عمرو بن قتادة المكي ت ٧٤ هـ . طبقات القراء ١ / ٤٩٦ .

المقياس المصحح للاستعمال العربى لا العكس^(١) .
والقواعد النحوية يجب أن تخضع
 للقراءة لا العكس . وأخيرا فإن للقرآن
 طريقا فى النحو ينبغى أن يقاس عليه ،
 كما له لغته الخاصة به .

ولكن النحاة جعلوا من أنفسهم رقبا
 على اللغة وأهلها ، ولقد كانت لهم فى
 هذا صولات وجولات معروفة فى نقد
 الشعر والنثر على السواء فى العصرين
 الجاهلى والإسلامى^(٢) ، وبمرور الأيام
 قوى نفوذهم ، واشتدت وطأتهم ،
 فأصبحوا المشرعين والمقنين فى الحقل
 اللغوى وحدهم ، لا يلوون على شئ
 ولا يابسون ، فرفض بعضهم الاستشهاد
 بالحديث النبوى ، لهجوا أن رواه
 قد دخل عليهم اللحن كما لحنوا
 العرب وغلطوهم فى لغتهم ، حتى جائوا
 إلى قراءات القرآن الكريم فنالوا منها
 ومن أصحابها وأخضعوها لقراءتهم ،
 وقوانينهم ، لأنهم أصحاب معايير

ومقاييس ، واستطاعوا بسلطانهم وسطوتهم
 أن يسيطروا على حقل الدراسات القرآنية
 فضيقوا وحجروا وأولوا ، واجترأوا
 وتطاولوا على القراءات السبعية وما فوقها
 بـ « أجاز القراء فى النحو » ولاتكونوا
 أول كافريه واشتروا^(٣) وهى فى
 المصحف « ولاتشتروا بآياتى ثمنا قليلا^(٤) »
 وما أجاز القراء عند علماء النحو لم يقرأ به
 واحد فى السبعة ولا فى العشرة ولا الأربعة
 الذين بعد هؤلاء
 جـ- وأخيرا يأتى السيوطى ليؤكد موقف
 المتقدمين من النحاة بقوله « وكان قوم من
 النحاة المتقدمين يعيبون على عاصم وحمزة
 وابن عامر قراءات بعيدة فى العربية ،
 وينسبونهم إلى اللحن ، وهم مخطئون
 فى ذلك ، فإن قراءاتهم ثابتة بالأسانيد
 المتواترة الصحيحة التى لا مطعن فيها ،
 وثبت ذلك دليل على جوازها فى العربية^(٥) »
 والحق أن كثيرا من هؤلاء النحاة
 قد تأثروا بمدارس علم الكلام ودعامتها :
 القياس والعقل ، ومدرسة القراءة ركيزتها
 الرواية والنقل ، فالقراء أعدل ، لأنهم

(١) مذاهب التفسير الإسلامى ٦٨ جولد تسيهر .

(٣) شواذ القرآن لابن خالويه ٤ .

(٤) البقرة ٤١ .

(٢) الموشح للربزبانى فى موطن متفرقة . ط السلفية .

(٥) اقتراح السيوطى ١٧ ط أول .

لا يعملون في شيء من حروف القرآن على
[الأفشى في اللغة ، والأقيس في العربية
بل على الأثبت في الأثر ، والأصح في
النقل ، والرواية إذا ثبتت عنهم لم
يردها قياس عربية ، ولا فشوغة ، لأن
القراءة سمة متبعة (١) . هذا :

ويجب أن نقرر (أولا) أن موقف
النحاة من القراءات ورميهم كثيرا منها
باللحن والغلط ، والضرورة والشذوذ
والخطأ واتهامهم القراء بالوهم تارة ،
والغفلة وعدم الدراية تارة والغفلة وعدم
الدراية تارة أخرى ، وإخضاعهم
القراءات للمذاهب النحوية والأقيسة
العقلية ، هو الذي جراً المستشرقين على
الطعن في كثير من القراءات والذيل منها
متسترين بلباس البحث العلمي حيناً
وبالحقد الدفين والسهام المسمومة أحياناً
وهم في هذا وذلك قد تنكبوا الطريق السوى
وضلوا وأضلوا في بعض ما كتبوا وما نقلوا .

وثانياً - أن هذه المعارك الحامية بين
الفريقين أمدتنا بشراء في النحو العربي

فتعددت مسائله ، واختلفت الآراء حول
كل جزئية منه : فتلاقت الآراء حيناً
واختلفت أحياناً ، كما رأينا من خلال
ذلك ألوانا من التأليف جديدة تعتبر من
أجل مصادر تراثنا المجيد ، وكلها تدور
في فلك القراءات والنحو - ناقدة
ومعلمة ، ومحتجة ومفاضلة ، ومحصنة
ومستشهد ، وهي في جميع هذا تكشف
عن آراء كل فريق والوجه الذي آثره
واختاره - نقلاً وعقلاً ، ورواية ، ودراية .
ومن هذه المؤلفات :

معاني القراءات لأبي زكريا الغراء
والسبعة في علل القراءات السبع لأبي
علي الحسن الفارس والمحتسب في تبیین
وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها لأبي
الفتح عثمان بن جني والحجة في القراءات
السبع لابن خالويه ، والكشف عن وجوه
القراءات لمكي القيس ، وإعراب الشواذ
للعكبري .

أحمد علم الدين الجندی

(١) النشر ١ - ١٠

(٢) مع اعترافنا بأن نفراً منهم لهم يد في التراث العربي لا نذكر من حيث المنهج والتحقيق وعمق الدراسة .